الوزارة، وفوضت للأمير بدر الدين بيدرا المنصوري، وكان أمير مجلس السلطان، ثم نقل الى
الاستادارية، ثم الى الوزارة، واستقر كذلك الى آخر الدولة المنصورية.
وفيها، في ليلة يسفر صباحها عن يوم الإثنين سادس عشر ربيع الأول، وقع الحريق في خزائن
السلاح والمشهد الحسيني بالقاهرة، ثم طفئ.
وفيها، بنى السلطان الملك المنصور بابنة الأمير شمس الدين سنقر التكريتي الظاهري،
وأفرج عن والدها من الاعتقال، وأمّره بالشام. ثم فارقها السلطان، فقيل في سبب فراقه
لها، إن والدها زوج أختها من أحد مماليكه، فكره السلطان، وأنف منه، وفارقها بسببه.
وقيل، بل تعاطت نوعاً من الكبر وأقامت لها من الجواري سلاح دارية وجمدارية وسقاة
وغيرهن، مما يتعلق بالسلطنة، ففارقها السلطان لذلك. ولما انقضت عدّتها، أمر السلطان
أن تزوج لأردى أولاد الأمراء سيرة، نكاية لها. فكشف عن سير أولاد الأمراء ممن اشتهر
بسوء السيرة، فوق الاتفاق على جمال الدين يوسف بن سنقر الألفي، فزوجته منه.
وفي هذه السنة، ولي القاضي بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين ابراهيم ابن جماعة
الشافعي الكناني، قضاء القدس الشريف، والخطابة به. وتوجه من دمشق، في رابع شوال،
ووصل الى القدس في يوم الإثنين حادي عشر الشهر. وولي الخطابة بالقدس، بعد وفاة
الشيخ قطب الدين أبي الذكاء عبد المنعم ابن يحيى بن ابراهيم القرشي. وكانت وفاته،
رحمه الله تعالى، بالقدس الشريف في يوم الجمعة، سابع عشر شهر رمضان، من هذه السنة.
وولي بعد القاضي بدر الدين، تدريس المدرسة القيمرية، القاضي علاء الدين أحمد ابن
قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. وجلس لإلقاء الدرس بها، في يوم الأحد تاسع
عشر شوال.
وفيها، في شهر رمضان، فوض نظر الحسبة بدمشق للصدر شمس الدين ابن السلعوس.
ووصل توقيعه بذلك من الأبواب السلطانية، عوضاً عن شرف الدين أحمد بن عز الدين
عيسى بن الشيرحي. وكان ابن الشيرحي قد وليها، في جمادى الآخرة من السنة.

وفيها، فوض قضاء المالكية بدمشق، لقاضي القضاة جمال الدين الزواوي.
توج ناصر الدين بن المقدسي الى دمشق
وما فوض إليه من مناصبها، وما اعتمده
في هذه السنة، توجه ناصر الدين بن المقدسي، من الأبواب السلطانية، الى دمشق. وقد
فوض له السلطان الملك المنصور وكالته، ونظر الأوقاف بدمشق والشام أجمع. ومن جملة
ذلك، نظر الجامع الأموي، والبيمارستانات الثلاثة، ونظر الأشراف والأسرى، والأيتام
والصدقات، والأسوار والخوانق والربط وغير ذلك. وحضر صحبته مشدان، من الأبواب
السلطانية، وهما بدر الدين القشتمري، وصارم الدين الأيدمري. فتردد الناس الى خدمته،
وخافوا شره. ولزم أرباب السعايات والمرافعات بابه. وشرع يتتبع الناس فيما ابتاعوه من
الأملاك، وقصد إثبات سفه من أباع، وأن يسلك في ذلك الطريق الذي سلكه في أمر ابنة
الملك الأشرف. فامتنع القضاة بدمشق من موافقته على ذلك، وعضدهم الأمير حسام
الدين نائب السلطنة. فمنع ناصر الدين القضاة الجامكية المرتبة لهم على مصالح الجامع
الأموي. فلم يردهم ذلك إلا امتناعاً من موافقته على أغراضه. وشرع في عمارة الأملاك
السلطانية، واستجد حوانيتاً على جسر باب الفراديس من الجانبين. وأصلح الجسر، قبل
عمارة الحوانيت. ثم أصلح باب الجابية الشمالي، وكان مستقلاً فهدمه وعمره. ولم يكن له
حسنة، غير إصلاح هذين الجسرين والباب، ومساطب الشهود بباب الجامع.
وفي هذه السنة، في شهر رمضان المعظم، كبس بدر بن النفيس النصراني الكاتب
بدمشق، وعنده امرأة مسلمة، وهم يشربون الخمر. فطولع الأمير حسام الدين نائب
السلطنة بدمشق بذلك. فأمر أن يحرق النصراني، فبذل في نفسه جملة من المال، وسأل
مخدومه الأمير سيف الدين كجكن في أمره، فلم يجب نائب السلطنة الى إبقائه. وأضرمت
له نار بسوق الخيل، وألقي فيها. وأما المرأة، فقطع بعض أنفها، وشفع فيها فأطلقت.
وفي هذه السنة، في مستهل رجب، توفيت الست غازية خاتون زوجة الملك السعيد،

ودفنت عند والدتها، بالقبة الصالحية، بجوار مشهد السيدة نفيسة، بظاهر القاهرة.
وفاة الملك الصالح
وتفويض ولاية العهد الى الملك الأشرف
في هذه السنة، في يوم الجمعة رابع شعبان، توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان
الملك المنصور، وكانت علته دوسنطاريا كبدية. وصلى عليه بالقلعة، قاضي القضاة، تقي
الدين ابن بنت الأعز، وصلّى خلفه والده السلطان الملك المنصور، وأخوه الملك الأشرف،
وصلى عليه خارج القلعة، قاضي القضاة معز الدين الحنفي. ودفن بتربته المجاورة لمشهد
السيدة نفيسة. وحصل لوالده السلطان عليه من الألم، ما لا مزيد عليه. وخلف ولداً
واحداً، من زوجته منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكيه، وهو الأمير مظفر الدين موسى،
وله أخبار، ترد إن شاء الله تعالى.
ولما مات الملك الصالح، فوض السلطان ولاية العهد بعده، لولده الملك الأشرف صلاح الدين
خليل. وركب بشعار السلطنة، في حادي عشر شعبان من قلعة الجبل، الى باب النصر.
وشق المدينة، وخرج من باب زويلة، وعاد الى القلعة، والأمراء في خدمته. وكتب بذلك الى
الشام، وسائر البلاد، وخطب له بولاية العهد، بعد أبيه على عادة أخيه الملك الصالح.
وكتب تقليده فتوقف السلطان على الكتابة عليه. وسنذكر ذلك، إن شاء الله تعالى، في
أخبار الملك الأشرف.
وفي هذه السنة، توفي الأمير بدر الدين الأيدمري الصالحي، في ليلة يسفر صباحها عن يوم
الإثنين، خامس المحرم. وتوفي الأمير فخر الدين اياز، المعروف بالمعزي الحاجب، في ليلة
يسفر صباحها عن يوم الجمعة، العشرين من شهر ربيع الأول، وذلك عقيب عوده من
الحجاز. وكان رحمه الله تعالى، من حسنات الدهر. وكانت الملوك تعتمد عليه في المهمات
الجليلة. وتوفي الأمير سيف الدين بلبان العلائي الصالحي النجمي، المعروف بقول الله كريم
الدين، رحمه الله تعالى، في يوم الثلاثاء سادس عشرين جمادى الآخرة منها، ودفن بتربته
بالقرافة الصغرى. وهو خوشداش السلطان الملك المنصور، وسنقر الأشقر وغيرهما، كانوا

كلهم مماليك الأمير علاء الدين أقسنقر الساقي العادلي. وكان السلطان يرعى له حق
الخوشداشية ويكرمه. ويزوره إذا مرض في منزله، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي القاضي الخطيب، فخر الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة عماد الدين عبد
الرحمن بن السكري. وكانت وفاته بالمدرسة المعروفة بمنازل العز بمصر، في رابع عشرين
شوال. ومولده في سنة أربع وستمائة، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثمان وثمانين وستمائة
1289
في هذه السنة، في المحرم، توجه السلطان الى الشام، وافتتح طرابلس، وقد ذكرنا ذلك في
الفتوحات.
ولما افتتح السلطان طرابلس، جهز الأمير حسام الدين طرنطاي، الى المملكة الحلبية،
بطائفة من العسكر. وكان قد وصل الى السلطان، وهو بطرابلس، رسل صاحب سيس،
يسألون مراحم السلطان، ويطلبون مراضيه. فطلب منهم السلطان تسليم مرعش، وبهسنا
والقيام بالقطيعة على العادة، وخلع عليهم وأعادهم. ورحل عن طرابلس ونزل على
حمص، وأقام بها أياماً. فعادت رسل سيس بهدية كثيرة، واعتذارات عن تسليم مرعش
وبهسنا، وبذل جملة كثيرة من المال في كل سن. فرحل السلطان عن حمص، ودخل الى
دمشق، في يوم الإثنين خامس جمادى الأولى.
ما اتفق بدمشق من المصادرات
كان السلطان قد استصحب معه في هذه السفرة، الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، بعد
عزله من الوزارة. فلما عاد الى دمشق من طرابلس، أمره أن يتحدث في تحصيل الأموال
بدمشق، ومكّنه من ذلك، فأوقع الحوطة، على الصاحب تقي الدين توبة. فوجد له
أخشاباً كثيرة وبضائع وسكّراً، فطرح ذلك على أهل دمشق، بأضعاف قيمته. فكان
يحفظ لمن يطرح عليه منه الربع فما دونه. فحصل من ذلك تقدير خمسمائة ألف درهم.
وكان غرضه بذلك، أن يطلع السلطان، على أن تقي الدين توبة قد حصل الأموال الكثيرة،
لعداوة كانت بينهما. ثم شرع في مصادرات الناس، فهرب أكثر الدماشقة الى القرى

والضياع، واختفوا منه. وطلب نجم الدين عباس الجوهري، بسبب ضيعة كان قد
اشتراها من ابنة الملك الأشرف، بالبقاع العزيز. فطولب بما أخذه من ريعها، فكان
خمسمائة ألف درهم، فحمل جوهراً، قُوّم له، بثمانين ألف درهم. فشدد عليه الطلب،
فجاء الى مدرسته التي أنشأها بدمشق، وحفر في دهايزها، وأخرج خونجاه ذهب، مرصعة
بالجوهر، وعليها قرقة مرصعة، فقوم ذلك بأربعة ألف درهم، وسبك الذهب، وكان سبعة
آلاف دينار، ونقل الجوهر الى الخزانة.
وأظهر السلطان للأمراء، أن إقامته بدمشق، لانتظار الأمير حسام الدين طرنطاي. فوصل
في سابع عشر شهر رجب. وتلقاه السلطان بالعساكر، وأقام بدمشق، الى يوم الخميس ثاني
شعبان. فتوجه في هذا اليوم الى الديار المصرية، بعد أن حصل الإجحاف بأهل دمشق،
واستصحب تقي الدين توبة مقيّداً. فلما وصل الى حمراء بيسان، مرّ عليه الأمير حسام
الدين طرنطاي، والأمير زين الدين كتبغا، وهو بالزردخاناة، فسبهما أقبح سب، وكانت هذه
عادته، وذكر ما فُعل به، وهما يضحكان من سبه لهما. فتوجها الى السلطان، وسألاه في
أمره، وضمنها فأفرج عنه. وأخذاه عندهما. فتألم الأمير علم الدين الشجاعي لذلك ألماً
شديداً. وكان قد كتب الى نابلس والقدس وبلد الخليل والبلاد الساحلية، يطلب الولاة
والمباشرين، وأن يجهزوا الى غزة. فلما حصل الإفراج عن تقي الدين توبة، غضب
الشجاعي وأظهر حرداً، وامتنع من الحديث في المصادرين، فكانت ذلك من الألطاف بمن
طُلب. ووصل السلطان الى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء.
وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء ثامن عشري شعبان، وقت الظهر توفي بدمشق الملك
المنصور شهاب الدين محمود ابن الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل.
وفيها، كانت وفاة الأمير علاء الدين الكبكي بالقدس الشريف، في شهر رمضان، رحمه الله
تعالى.
واستهلت سنة تسع وثمانين وستمائة
1290

في هذه السنة، في أولها توجه الأمير حسام الدين طرنطاي، ومعه جماعة من الأمراء
والعساكر، الى الوجه القبلي. فوصل الى منزلة طوخ دمنوا، قبالة مدينة قوص. وتصيد في
هذه السفرة، ومهد البلاد، وقتل جمامة من العربان، وحرق بعضهم بالنار، وأخذ خيولهم
وسلاحهم ورهائن أكابرهم، وعاد الى قلعة الجبل.
وفيها، في شهر ربيع الأول، استدعى السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، من
دمشق، على خيل البريد. فلما وصل الى بابه أكرمه، وقال له: اعلم أنني ما اشتريتك،
وأمّرتك، وواليتك شاد الدواوين بالشام، إلا ظناً مني أنك تنصحني وتحصل أموالي، وتنهض
في مصالح دولتي، فالتزم بتحصيل الأموال. فخلع عليه، وفوض له، مضافاً الى شدّ الشام،
الحصون بسائر الممالك الشامية والساحل، وديوان الجيش. فعاد الى الشام، وكان وصوله
الى دمشق، في يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الآخر، وتعاظم في نفسه وكثر تجبّره.
وفيها، أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين جرمك الناصري، وذلك في جمادى
الأولى.
وفيها، جهز السلطان الأمير سيف الدين التقوي، الى طرابلس، واستخدم معه ستمائة
فارس بطرابلس. وهو أول جيش استخدم بها. وكان الجيش قبل ذلك بالحصون.
إيقاع الحوطة على ناصر الدين المقدسي وشنقه
وفي هذه السنة، في جمادى الآخرة، برز أمر السلطان بالكشف على ناصر الدين بن
المقدسي وكيله بالشام. فورد المرسوم الى دمشق، في ثاني عشرين الشهر، فكشف عليه،
فظهرت له مخازي كثيرة. وسر الناس بذلك، فرسم عليه، وطولع السلطان بما ظهر عليه.
فورد الجواب، في يوم الجمعة، تاسع عشر شهر رجب، أن يستخرج منه، ما التمسه، فطولب
بذلك، وضرب بالمقارع، في يوم ورود المرسوم. وشرع في بيع موجوده، وحمل ثمنه، واستمر
كذلك، وهو بالمدرسة العذراوية في النرسيم، الى يوم الخميس ثاني شعبان. فورد المرسوم
السلطاني، يطلبه الى الأبواب السلطانية. فلما اجتمع الناس، بكرة نهار الجمعة، دخلوا

عليه، فوجدوه قد شنق، فحضر أولياء الأمر والقضاة والشهود، وشاهده على تلك
الصورة، وكتبوا محضراً بذلك. ودفن، واستراح الناس من شره.
وفي هذه السنة، رسم السلطان لنائب السلطنة بالشام، والأمير شمس الدين الأعسر، لعمل
مجانيق، وتجهيز زردخاناة، لحصار عكا. فتوجه الأمير شمس الدين الأعسر، الى وادي
مربين، وهو بين جبال عكا وبعلبك، وفيه من الأخشاب وأعواد المجانيق، أشياء كثير لا
يمكن أن يوجد مثلها في غيره. وأخبرني جماعة أثق بأخبارهم، في سنة إحدى عشرة
وسبعمائة، وأنا يوم ذاك بالقرب من هذا الوادي، أن به عوداً قائماً طوله أحد وعشرون
ذراعاً، بذراع العمل، ودوره كذلك، وأنهم حققوا ذلك، بأن صعد رجل الى أعلاه، ودلّى
حبلاً الى الأرض، من أعلاه، وأداروا الحبل عليه، فجاء سواء، لا يزيد ولا ينقص. فتوجه
الأمير شمس الدين الى هذا الوادي، وقرر على ضياع المرج والغوطة بدمشق مال، من ألفي
درهم الى خمسمائة درهم، كل ضيعة بحسب متحصلها، لأجرة جر أعواد المجانيق، وكذلك
ضياع بعلبك والبقاع. وجني المال، ونال أهل بعلبك والبقاع شدة عظيمة بسبب ذلك.
وبينا الأمير شمس الدين بالوادي المذكور، وهو مهتم في قطع الأعواد وجرها، سقط عليه
ثلج عظيم، فركب خيله، وخرج منه. وأعجله كثرة الثلج وترادفه، عن نقل أثقاله وخيامه،
فتركها ونجا بنفسه، ولم يلو على شيء. ولو تأخر بسببها، واشتغل بحملها هلك هو ومن
معه، وارتدمت أثقاله بالثلوج، وبقيت تحتها الى فصل الصيف، وتلف أكثرها.
وفي هذه السنة أيضاً، فوض السلطان تقدمة العسكر بغزة والأعمال الساحلية، الى الأمير
عز الدين أيبك الموصلي، عوضاً عن الأمير شمس الدين أقسنقر كرتيه. فتوجه إليها من
دمشق، في رابع شهر رجب.
وفيها، في شعبان، اشتد الحر بحماه، حتى شوى اللحم على بلاط الجامع، على ما حكاه
الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه. ووقعت نار في دار صاحب حماه فاحترقت،
وأرسل الله ريحاً واشتدت، فقويت النار واستمرت يومين وبعض الثالث، وما قدر أحد أن

يتقدم إليها، فاحترقت الدار بما فيها، وكان صاحب حماه في الصيد.
وفيها، في شعبان، خرج مرسوم السلطان الى الشام، أن لا يُستخدم أحد من أهل الذمة، اليهود والنصارى، في المباشرات الديوانية، فصُرفوا منها. وورد مثال بالإفراج عن المعتقلين.
وفيها، ثار جماعة من الفرنج بعكا، فقتلوا جماعة من تجار المسلمين بها، كانوا قدموا للمتجر، تمسكاً بالهدنة، وذلك في شعبان. فادعى أهل عكا، أن ذلك إنما فعله الفرنج الغُرْب، وأنه ليس برضاهم. فكان ذلك من أكبر الأسباب التي أوجبت أخذ عكا، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وفاة قاضي القضاة نجم الدين المقدسي الحنبلي وتفويض القضاء بدمشق بعده للشيخ شرف الدين المقدسي
وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء، ثاني عشر جمادى الأولى، توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي، قاضي الحنابلة بدمشق. فعين الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة ثلاثة، وكتب في حقهم الى السلطان، وهم الشيخ زين الدين بن المنجا، والشيخ تقي الدين سليمان، والشيخ شرف الدين الحسن. فورد المثال السلطاني، في غرة جمادى الآخرة، لنائب السلطنة، أن يفوض القضاء بدمشق للقاضي شرف الدين الحسن ابن الخطيب شرف الدين أبي العباس أحمد بن أبي عمر بن قدامه المقدسي. ففوض إليه نائب السلطنة القضاء، حسب الأمر السلطاني. وكُتب تقليده عن نائب السلطنة، وخلع عليه في يوم الإثنين تاسع الشهر.
وجلس بجامع دمشق، وحكم بين الناس، على عادة القضاة قبله.
وفيها، توفي الشيخ الإمام العالم، رشيد الدين أبو حفص عمر بن اسماعيل ابن مسعود الفارقي الشافعي. وكانت وفاته بالمدرسة الظاهرية بمدشق، في يوم الأربعاء، رابع شهر المحرم، ودفن بمقابر الصوفية. ويقال إنه وجد مخنوقاً، وكان من العلم والفضيلة بالمكان المشهور، وشهرته بذلك تغني عن وصف محاسنه، رحمه الله تعالى.
وفيها، في ليلة الأحد الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، توفي الطواشي شرف الدين

مختص الظاهري، مقدم المماليك السلطانية، في الدولة الظاهرية والسعيدية والمنصورية، ودفن
من الغد بالقرافة. وكان مهيباً سَلطاً على المماليك السلطانية، مبسوط اليد فيهم، ذا
حرمة وافرة، رحمه الله تعالى.
وفاة السلطان الملك المنصور
سيف الدين قلاون، رحمه الله
كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بمنزلة مسجد تبر، وهي المنزلة الأولى، وذلك في العشر
الأخير من شوال، فقامت به علته الى أن مات، رحمه الله تعالى، وحمل الى قلعة الجبل ليلاً،
واستمر بها الى آخر يوم الخميس غرة المحرم سنة تسعين وستمائة. ففي هذا اليوم قال:
أرسل السلطان الملك الأشرف، الى التربة المنصورية بالقاهرة جملة يصدق بها. فلما كان في
ليلة الجمعة المسفرة عن ثاني المحرم، نقل رحمه الله تعالى، من القلعة الى تربته التي أنشأها
بالقاهرة وأدخل من باب البرقية، وصُلّي عليه بالجامع الأزهر، ثم حمل منه الى التربة. ونزل
قبره الأمير بدر الدين بيدرا، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي. وفرق في صبيحة ذلك
اليوم، جملة من الذهب على الفقراء. وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين
وأربعة عشر يوماً.
وخلّف من الورثة، أولاده الخمسة، وهم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وهو
الذي ملك بعده، والسلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد، وهو سلطان هذا العصر،
والأمير أحمد - مات في سلطنة أخيه الملك الأشرف - وابنتان، وهما دار مختار الجوهري،
واسمها التطمش، ودار عنبر الكمالي، وزوجته والدة السلطان الملك الناصر.
تسمية نواب السلطان الملك المنصور ووزرائه
ناب عن السلطان الملك المنصور، رحمه الله تعالى، بأبوابه الشريفة في أول سلطنته، الأمير
عز الدين أيبك الأفرم الصالحي، ثم استعفي كما تقدم. واستقر في نيابة السلطنة، الأمير
حسام الدين طرنطاي المنصوري، واستمر الى أن كانت وفاة السلطان. وناب عن السلطان
بدمشق، بعد استعادتها من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، الأمير حسام الدين لاجين

السلحدار المنصوري، المعروف بالصغير. وناب عن السلطنة بالمملكة الحلبية في ابتداء
الدولة، الأمير جمال الدين أقش الشمسي، الى أن مات، ثم الأمير علم الدين سنجر
الباشقردي الى أن عزل، وولي الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكان دار المنصوري الى آخر
الدولة. وناب عن السلطنة بحصن الأكراد، الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري،
وبالكرك الأمير عز الدين أيبك الموصلي، ثم الأمير ركن الدين بيبرس الداوداري
المنصوري. وناب عن السلطنة بالمملكة الصفدية في ابتداء الدولة، الأمير علاء الدين
الكبكي وغيره، وتقدم ذكرهم. وناب عن السلطنة بغزة وحمص، جماعة قد تقدم ذكرهم.
وأما الوزراء، فوزر للسلطان، رحمه الله تعالى، ستة نفر، أربعة من أرباب الأقلام، وهم
الصاحب برهان الدين الخضر السنجاري مرة بعد أخرى، والصاحب فخر الدين ابراهيم
بن لقمان، والصاحب نجم الدين حمزة بن محمد الأصفوني، وقاضي القضاة تقي الدين عبد
الرحمن ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وقد تقدم ذكر ولايتهم في أثناء أخبار
الدولة. ومن الأمراء اثنان الأمير علم الدين سنجري الشجاعي، كان يتولى شد الدولة
المنصورية وتدبيرها. فإذا شغرت الوزارة من متعمم، جلس مكان الوزير، وكتب على عادة
الوزراء، وولى وعزل، واستخدم وصرف. ثم استقل بالوزارة، بعد وفاة الصاحب نجم الدين
حمزة بن الأصفوني. وكان في وزارته وشده، كثير العسف والمصادرات، محصلاً للأموال من
وجوهها وغير وجوهها شديداً على المباشرين. قد أوقع الرعب في قلوبهم، حتى كرهه
الخاص والعام، وتمنوا زوال الدولة بسببه، واستمر في الوزارة الى أن عزل كما تقدم. وولى
الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري الى آخر الدولة.
وولي القضاء في الأيام المنصورية، بالديار المصرية والشامية، جماعة قد تقدم ذكرهم.
وملك السلطان الملك المنصور، من المماليك الأتراك والمغل وغيرهم، ما لم يملكه ملك
بالديار المصرية في الإسلام قبله. فيقال إن عدتهم بلغت اثني عشر ألفاً، وتأمّر منهم في الأيام

المنصورية جماعة كثيرة. ومنهم من ناب عن السلطنة الشريفة في الممالك الشامية والديار
المصرية. ومنهم من استقل بالسلطنة وخطب له على المنابر، وضربت السكة باسمه، على
ما نذكر ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى. وبقايا المماليك المنصورية الى الآن، هم أعيان
الأمراء في وقتنا هذا.
ولما مات الملك المنصور، ملك بعده ولده الملك الأشرف.
الملك الأشرف صلاح الدين خليل
ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي
وهو الثامن من ملوك دولة الترك بالديار المصرية. ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، وما
أضيف الى ذلك من الممالك الإسلامية والأقطار الحجازية، بعد وفاة والده السلطان الملك
المنصور رحمه الله تعالى.
وكان جلوسه على تخت السلطنة بقلعة الجبل المحروسة، في يوم الأحد المبارك السابع من
ذي القعدة، سنة تسع وثمانين وستمائة، ولم يختلف عليه إثنان. لأن الأمراء، أرباب الحل
والعقد، ونواب السلطنة بسائر الممالك، مصراً وشاماً، مماليك والده، ومن عداهم من
الأمراء الصالحية، لم يظهر منهم إلا الموافقة والطاعة والانقياد، والمبادرة الى الحلف. وقد
تقدم أن السلطان الملك المنصور كان قد جعل له ولاية العهد من بعده، بعد وفاة أخيه الملك
الصالح علاء الدين علي، وركّبه بشعار السلطنة، وتأخرت كتابة تقليده، وطلب ذلك مرة
أخرى، والسلطان يتوقف في الإذن بكتابة التقليد. ثم تحدث مع السلطان الملك المنصور
فرسم بكتابته، فكتب - وقد شرحنا مضمونه في الجزء الثامن من كتابنا هذا - فلما قدم
الى السلطان، ليكتب عليه، توقف وأعاده الى القاضي فتح الدين ابن عبد الظاهر،
صاحب ديوان الإنشان، ولم يكتب عليه. فأرسل الملك الأشرف الى القاضي فتح الدين،
يطلب التقليد، فاعتذر أنه لم يقدمه للعلامة. وقدمه ثانياً الى السلطان، فردّه. وقال يا فتح
الدين: أنا أولى خليلاً على المسلمين. ثم أرسل الملك الأشرف يطلبه، فخشي فتح الدين أن
يقول إن السلطان امتنع من الكتابة عليه؛ واعتذر أيضاً. وخاطب السلطان في معناه،

وقدمه إليه، فرماه به. وقال: قد قلت لك إنني ما أولى خليلاً على المسلمين. فأخذ التقليد
بغير علامة، وخرج. واتفق من خلال ذلك، خروج السلطان ووفاته.
فلما تسلطن الملك الأشرف، طلب فتح الدين بن عبد الظاهر، وقال له: أين تقليدي. فأقام
وأحضره إليه، وهو بغير علامة السلطان، واعتذر أن السلطان الملك المنصور، شغلته
الحركة والفكرة في أمر العدو عن الكتابة عليه. فقال له السلطان الملك الأشرف: يا فتح
الدين، إن السلطان امتنع أن يعطيني، فأعطاني الله. ورمى له التقليد، فكان عنده بغير
علامة. ثم عند ابنه المرحوم علاء الدين، الى أن مات رحمه الله تعالى.
قال بعض الشعراء يمدحه:

فداك يا عادل يا منصف أرجى من الغيث الذي يوصف
أغنى عباد الله عن نيلهم فجودك البحر الذي يعرف
أطاعك الناس اختياراً وما أذلهم رمح ولا مرهف
كم ملكت مصر ملوك وكم جادوا وما جادوا ولا أسرفوا
حتى أتى المنصور أنسى الورى بفعله سائر ما أسلفوا
ما قدموا مثل تقاه ولا مثل الذي خلفه خلفوا
فته على الأملاك فخراً بما نلت فأنت الملك الأشرف

قال، وخلع الملك الأشرف على سائر الأمراء وأرباب المناصب. ثم ركب بشعار
السلطنة، في يوم الجمعة بعد الصلاة، الثاني عشر من الشهر. وسيّر بالميدان الأسود؛
والأمراء والعساكر في خدمته. وطلع الى قلعة الجبل، قبل أذان العصر. ويقال إن الأمير
حسام الدين طرنطاي، كان قد قصد اغتيال الملك الأشرف، في يوم ركوبه، وأنه عزم على
قتله عند ابتداء التسيير، إذا قرب من باب الإصطبل، وأن السلطان شعر بذلك. فلما سيّر
السلطان أربعة ميادين، والأمير حسام الدين ومن وافقه عند باب سارية. فلما انتهى
السلطان الى رأس الميدان، وقرب من باب الإصطبل، وفي ظن الناس أنه يعطف الى جهة
باب سارية، ليكمل التسيير على العادة، عطف الى جهة القلعة، وأسرع وعبر من باب
الإسطبل. ولما عطف، ساق الأمير حسام الدين ومن معه، ملء الفروج، ليدركه. فما
وصل الى باب الاسطبل، إلا والسلطان قد دخل منه، وحف به مماليكه وخواصه، فبطل

على طرنطاي ما دبره. وبادر السلطان بالقبض عليه.
القبض على الأمير حسام الدين طرنطاي وقتله
وعلى الأمير زين الدين كتبغا واعتقاله
لما استقل السلطان الملك الأشرف في السلطنة، وقف الأمير حسام الدين طرنطاي بين يديه
في نيابة السلطنة، على عادته مع السلطان الملك المنصور أبيه. وكان الملك الأشرف يكره
الأمير حسام الدين طرنطاي أشد الكراهية لأمور: منها ما كان يعامله به من الاطراح
لجانبه، والغض منه، واهنة نوابه، وأذى من ينسب إليه. ومنها ترجيح جانب أخيه، الملك
الصالح على جانبه، والميل إليه. ولما مات الملك الصالح، وانتقلت ولاية العهد بعده، الى
الملك الأشرف مال إليه من كان يميل عنه، وتقرب الى خاطره من كان يجفوه. ولم يزد ذلك
الأمير حسام الدين إلا تمادياً في الإعراض عنه، وجرياً على عادته، في أذى من ينتسب
إليه. وأغرى السلطان الملك المنصور، بناظر الديوان الأشرفي، شمس الدين محمد بن
السلعوس، حتى ضربه وصرفه على ما نذكر ذلك، وعامله بمثل هذه المعاملة، والملك
الأشرف لا يستطيع دفع ذلك، لتمكن الأمير حسام الدين من السلطان الملك المنصور،
ويكتم ما عنده منه، ويصبر من ذلك، على ما لا يصبر مثله على مثله.
فلما ملك السلطان الملك الأشرف، تحقق الأمير حسام الدين أنه يحقد عليه أفعاله، وأن
خاطره لا يصفو له. فشرع في إفساد نظامه سراً، وإخراج الأمر عنه. وتحقق السلطان
ذلك، ووشى به بعض من باطنه. فلما نزل السلطان من الركوب في يوم الجمعة، الثاني عشر
ذي القعدة، استدعاه فدخل عليه، وهو يظن أن أحداً لا يجسر أن يقدم عليه، لمهابته في
القلوب، ومكانته من الدولة، وظن أن السلطان لا يبادره بالقبض عليه. ولما استدعاه
السلطان، نهاه الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، عن الدخول على السلطان وحذّره، وقال
له: والله أخاف عليك منه، فلا تدخل عليه، إلا في عصبة وجماعة، تعلم أنهم يمانعون
عنك أن لو وقع أمر. وقال له: - فيما حكي لي - والله لو كنت نائماً، ما جسر خليل

ينبهني. وقام ودخل على السلطان، فحمل زين الدين كتبغا الإشفاق عليه، أن دخل معه.
فلما صار طرنطاي بين يدي السلطان، وكان قد قرر مع الأمراء الخاصكية القبض عليه،
فبادروا الى ذلك، وقبضوا على يديه، وأخذوا سيفه. فصرخ كتبغا، وجعل يقول: إيش
عمل، إيش عمل، يكرر ذلك. فأمر السلطان بالقبض على كتبغا، فقبض عليه واعتقل، ثم
أفرج عنه بعد ذلك.
وأما طرنطاي، فإنه لما قبض عليه، أمر بقتله، فقتل. وقيل إنه عوقب بين يدي السلطان
حتى مات. وقيل كانت وفاته في ثامن عشر ذي القعدة، وبقي ثمانية أيام، بعد وفاته، ثم
أخرج من القلعة، ليلة الجمعة سادس عشرين الشهر، وقد لفّ في حصير، وحمل على
جنوية، الى زاوية الشيخ أبي السعود. فغسله الشيخ عمر السعودي، وكفنه ودفنه، خارج
الزاوية. وبقي كذلك، الى أن ملك الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، فأمر بنقله الى
تربته التي أنشأها بالقاهرة، بمدرسته التي بجوار داره بخط المسطاح.
ولما قبض السلطان عليه، ندب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي لإيقاع الحوطة على
موجوده، واستصفاء أمواله، لما كان بينهما من العداوة. فنزل الشجاعي الى دار طرنطاي
التي بالقاهرة، وحمل ما في خزانته وذخائره. وطلب ودائعه، ونبش مواضع من داره،
وشعثها. وحمل من أمواله الى الخزائن وبيت المال جملة عظيمة، يقال إن جملة ما حمل من
ماله، ستمائة ألف دينار عيناً، ومن الدراهم سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل بالمصري،
ومن العدد والأقمشة والخيول والمماليك ما لا يحصر قيمته كثرة. ويقال إنه كان قد جمع
ذلك وادّخره، لطلب السلطنة لنفسه، فلم ينل ما تمناه.
ووقف الأمير علم الدين الشجاعي، بعد القبض على طرنطاي، أياماً قلائل، من غير أن
يخلع عليه خلع النواب، ولا كتب تقليده، ولم يشتهر ذلك. ثم فوضت النيابة، للأمير بدر
الدين بيدرا.

تفويض نيابة السلطنة الشريفة للأمير بدر الدين بيدرا المنصوري

لما قبض على الأمير حسام الدين طرنطاي كما تقدم، قام الأمير علم الدين سنجر
الشجاعي، بوظيفة النيابة أياماً قلائل، كما ذكرناه. ثم فوض السلطان النيابة عن السلطنة،
للأمير بدر الدين بيدرا المنصوري. وخلع عليه، على عادة نواب السلطنة، وأجرى عليه،
ما كان جارياً على الأمير حسام الدين طرنطاي، من الإقطاعات وغيرها.
وفي هذه السنة، رسم السلطان بطلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، شاد الدواوين
بالشام، فوصل البريد الى دمشق يطلبه، في رابع ذي الحجة منها، فتوجه الى الأبواب
السلطانية، في ثامن الشهر. ولما وصل الى بين يدي السلطان، ضربه مرة بعد أخرى، وبقي
في الترسيم، الى أن حضر الصاحب شمس الدين بن السلعوس فسلّمه إليه. وولى شاد
الدواوين بدمشق، الأمير سيف الدين طوغان المنصوري. وأعاد السلطان الصاحب تقي
الدين توبة التكريتي الى وزارة الشام. فوصل الى دمشق، في خامس المحرم، سنة تسعين
وستمائة. وأوقع الحوطة على موجود الأمير شمس الدين سنقر الأعسر. حسب المرسوم
السلطاني.
وفيها، رسم السلطان الملك الأشرف، بإحضار الأمير بدر الدين بكتوت العلائي، من
حمص الى الباب السلطاني، في ذي الحجة، فحضر.
وفيها، في ذي الحجة، رسم السلطان بتجديد تقليد الأمير حسام الدين لاجين المنصوري،
نائب السلطنة بالشام، فكُتب. وزاده السلطان على إقطاعه المستقر، الى آخر الأيام
المنصورية، خرستا، وجهز ذلك على يد مملوكه شمس الدين أقسنقر الحسامي. وأعطى
أقسنقر إمرة عشرة طواشية. فوصل الى دمشق في ثامن عشر ذي الحجة من السنة.
وفيها، في الخامس والعشرين من ذي الحجة، كان وفاة الأمير الحاج علاء الدين طيبرس
الوزيري. وكان ديّناً كثير الصدقة والمعروف، قليل الأذى، وخلّف أموالاً عريضة، فأوصى
بثلاثمائة ألف درهم من ماله، تنفق في العساكر وأوقف مدرسة بمصر، على طائفة الشافعية
والمالكية، وأوقف خاناً بظاهر دمشق، على الصدقات، ريعه في كل شهر تقدير خمسمائة

درهم، وله آثار حسنة، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة تسعين وستمائة
1391
في هذه السنة، في سادس المحرم، أفرج السلطان عن الملك
فخر الدين عثمان ابن الملك
المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل، سيف الدين أبي بكر،
ابن الملك الكامل ابن الملك
العادل صاحب الكرك والده. وكان قد اعتقل في الدولة
الظاهرية، في رابع عشر شهر ربيع
الأول، سنة تسع وستين وستمائة، كما قدمنا ذكر ذلك. وكانت
اعتقاله عشرين سنة،
وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً. ولما أفرج السلطان عنه،
رتّب له راتباً جيداً. ولزم
داره، واشتغل بالمطالعة والنسخ، وانقطع عن السعي، إلا
للجمعة أو الحمام، أو ضرورة لابد
منها.
تفويض الوزارة للصاحب شمس الدين ابن السلعوس وشيء من
أخباره
كان الصاحب شمس الدين محمد بن فخر الدين عثمان بن أبي
الرجا، بن السلعوس قد
توجه الى الحجاز الشريف، قبيل وفاة السلطان الملك المنصور.
فاتفقت وفاة السلطان
وسلطنة الملك الأشرف في غيبته. فكتب السلطان إليه كتاباً
يعلمه أنه قد ملك، ويستحثه
على سرعة الوصول إليه. فوصل إليه كتاب السلطان، وهو في
أثناء الطريق، وقد عاد من
الحجاز الشريف. فاجتمع من كان بالركب، من الأعيان والكتاب،
وانضموا إليه، وركبوا في
خدمته، وسايروه وعاملوه من الآداب بما يعامل به الوزراء
وعظموه، فكان كذلك، الى أن
وصل الى باب السلطان. وكان وصوله، في يوم الثلاثاء،
العشرين من المحرم سنة تسعين
وستمائة. فاجتمع بالسلطان، ففوض إليه السلطان الوزارة،
في يوم الخميس، الثاني والعشرين
من الشهر، وخلع عليه. وكان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي
يتحدث في الوزارة في هذه
المدة، قبل وصوله، من غير تقليد ولا تشريف.
وكان شمس الدين بن السلعوس هذا، تاجراً من أهل دمشق،
ولم يكن من التجار
المياسير. ولكنه كان يأخذ نفسه بالحشمة والرئاسة. حتى كان
التجار فيما بينهم ينعتونه

بالصاحب استهزاء به. ثم تعلق بالخدم، وانتمى الى تقي الدين توبة التكريتي وزير دمشق، في
الدولة المنصورية، فاستخدمه في بعض الجهات. وتنقل الى أن ولي نظر الحسبة بدمشق، في
شهر رمضان، سنة سبع وثمانين وستمائة كما تقدم. ثم ولي نظر ديوان الملك الأشرف
بالشام، فأظهر الاجتهاد، واستأجر للملك الأشرف ضياعاً بالشام، وعمل له متجراً،
وحصل من ذلك أموالاً، فتقدم عند الملك الأشرف، ومال إليه. وحضر الى باب الملك الأشرف، في صفر، سنة ثمان وثمانين وستمائة. واستناب عنه في
نظر الحسبة بدمشق والديوان الأشرفي، القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين
محمد بن الشيرازي. ولما حضر الى باب الملك الأشرف، نقله الى نظر ديوانه نيابة، عوضاً
عن تاج الدين بن الأعمى. وخلع عليه خلع الوزارة. واستمر في نظر ديوان الملك الأشرف
ووكالته، الى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة. فاتفق أن الملك الأشرف، خلع عليه
خلعة سنية، تشبه خلع الوزراء. فرآه السلطان الملك المنصور، وعليه تلك الخلعة، فأنكر
هيئته، وسأل الأمير حسام الدين طرنطاي عنه. فقال هذا وزير الملك الأشرف، وذكر
مساوئه للسلطان. فغضب السلطان الملك المنصور لذلك، وأنكره. وأمر بإحضاره،
فأحضر بين يديه، فأنكر عليه كونه خدم ولده، بغير أمره، ولا أمر نائبه، ولا وزيره. وأمر
السلطان بنزع تلك الخلعة، التي ألبسها، فنزعت. وسلمه الى شاد الدواوين يومئذ، وهو
الأمير زين الدين أحمد الصوابي، وأمر بمصادرته، والإخراق به، وضربه. وأرسل إليه الأمير
حسام الدين طرنطاي، أن يوقع به الأهنة والإخراق، ويبادر بضربه. وأرسل إليه الملك
الأشرف، الى مشد الدواوين، يستوقفه عند ذلك، ويتوعده إن ناله منه سوء. فخاف للشد
المذكور غائلة الملك الأشرف، وتوقف عن الإخراق به. ورسم عليه في قاعة، كان المشد
يجلس فيها، في وقت استراحته. ثم تلطف الملك الأشرف في أمره، مع الأمير حسام الدين
طرنطاي، وراسله بسببه. وتكررت رسائله إليه، والى غيره في معناه، حتى حصلت

الشفاعة فيه عند السلطان، فأطلقه. وأمر السلطان بصرفه، فصرف، ولزم داره. وكانت
هذه الواقعة من أضرر شيء على الأمير حسام الدين طرنطاي، ومن أكبر أسباب القبض
عليه وقتله.
واستمر الصاحب شمس الدين بداره الى زمن الحج، فتوجه الى الحجاز الشريف. واتفقت
وفاة السلطان الملك المنصور، وسلطنة الملك الأشرف، كما تقدم، فكتب إليه يعلمه بذلك.
ويقال إن السلطان كتب بخطه إليه، بين سطور الكتاب، يا شقير، يا وجه الخير، عجل
بالسير، فقد ملكنا. ويقال إنه لما حملت الى السلطان الملك الأشرف، أموال طرنطاي،
ووضعت بين يديه، جعل يقلبها ويقول:
من عاش بعد عدوه يوماً فقد بلغ المنى
ثم يقول أين أنت يا ابن السلعوس.
فلما وصل ابن السلعوس الى السلطان، فوض إليه الوزارة، ومكّنه من الدولة تمكيناً
عظيماً، ما تمكن وزير قبله مثله في دولة الترك. وجرّد في خدمته جماعة من المماليك
السلطانية، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، ويقفون بين يديه، ويمتثلون أوامره. فعظم
بذلك شأنه، وتعاظم في نفسه واستخف بالناس. وتعدى أطوار الوزراء، حتى كان أكابر
الأمراء يدخلون الى مجلسه، فلا يستكمل لهم القيام. ومنهم من لا يلتفت إليه. وكان في
بعض الأوقات يستدعي أمير جاندار وأستاذ الدار، على كبر مناصبهما. فكان إذا
استدعى أحداً منهما، يقول اطلبوا فلاناً أمير جاندار، وفلاناً أستاذ للدار، يسمى كل واحد
منهما باسمه، دون نعته. ثم ترفّع عن هذه الرتبة الى الاستخفاف بنائب السلطنة الأمير
بيدرا، وعدم الالتفات الى جهته ومشاركته في بعض وظيفته، والاستبداد عنه، ومعارضته
فيما يقصد فعله، وتعطيل ما يؤثره. هذا، والأمير بدر الدين بيدرا يصبر على جفاه، ولا
يمكنه مفاجأته لما يشاهده من ميل السلطان إليه. حتى أخبرني شهاب الدين بن عبادة:
قال: رأيت الصاحب شمس الدين في بعض أيام المواكب، قد قام من مجلس الوزارة، يقصد
الدخول الى الخزانة، فصادف ذلك خروج الأمراء من الخدمة، هم ونائب السلطنة. فكان

الأمراء الأكابر يبادرون الى خدمته ومنهم من يقبل يديه، وكلهم يخلي له الطريق، ويومئ
بالرجوع بين يديه، فيشير إليه بالانصراف. فلما وطئ عتبة باب القلة برجله، توافى هناك،
هو والأمير بدر الدين، نائب السلطنة. فسلّم كل منهما على الآخر، وأومأ له بالخدمة، إلا
أن النائب خدم الوزير، أكثر من خدمة الوزير له. قال: لقد رأيته، وقد رجع مع الصاحب،
ولم يسامته في مشيه، بل كان النائب يتقدمه يسيراً، ويميل بوجهه الى جهة الصاحب
ويحدثه. فكانا كذلك الى أن وصلا الى المصطبة، التي يجلس عليها أستاذ الدار وناظر
البيوت، وهي من داخل الباب الثاني، من باب القلة لجهة الخزانة، على باب الفراش خاناه
قديماً. وهذا الموضع الآن، هو أحد أبواب الجامع الذي عمر في أيام السلطان الملك
الناصر. وسنذكر إن شاء الله تعالى، خبر هذا الجامع في الأيام الناصرية. قال: فما انتهينا
الى ذلك المكان، مسك الصاحب بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة، وأشار إليه بالرجوع.
قال: وسمعت الصاحب يقول له: بسم الله يا أمير بدر الدين؛ لم يزده على ذلك، وهذا أمر لم
يسمع بمثله. والذي شاهدته أنا، غير مرة ولا مرتين، أن الصاحب كان إذا أراد الركوب الى
القلعة، اجتمع ببابه نظار النظار وشاد الدواوين ووالي القاهرة ووالي مصر، ومستوفي الدولة،
ونظار الجهات، ومشدّي المعاملات؛ وغير هؤلاء من الأعيان. ثم يحضر قضاة القضاء
الأربعة ومن يتبعهم. فإذا اجتمع هؤلاء كلهم ببابه، عرّفه حجّابه أن الموكب قد كمل. وكان
كمال الموكب عندهم، حضور قضاة القضاة الأربعة، فيخرج عند ذلك، ويركب ويسوق
الناس بين يديه على طبقاتهم. فيكون أقرب الناس إليه، قاضي القضاة الشافعية، وقاضي
القضاة المالكية، يكونان أمامه، وأمامهما قاضيا القضاة الحنفية والحنبلية؛ ثم نظار النظار
والأعيان، ومستوفي الدولة، ونظار الجهات على قدر مراتبهم. ويستمر القضاة معه، الى أن
يستقر في المجلس. فينصرفون ثم يعودون عشية النهار الى القلعة، ويركبون في موكبه بين يديه
الى أن يصل الى داره؛ حتى أنه تأخر ليلة بالقلعة الى قرب العشاء الآخرة، وغلق باب

القلعة. وانقلب موكب الصاحب، الى جهة باب السلطان، وجاء القضاة ووقفوا على
بغالهم، بظاهر باب الاسطبل السلطاني، ولم ينصرفوا حتى خرج وركب، وساقوا في
خدمته، الى داره على عادتهم، لم يخلوا بها. وكان لا ينتصب قائماً لبعض أكابرهم، ولم
ينتظم هذا لوزير قبله. ولما عظم موكبه، وبقي الأكابر، يزدحمون في شوارع القاهرة، ويضيق
بهم لكثرة من معه، ويزدحم الغلمان، انتقل الى القرافة، وسكنها بسبب ذلك. ثم كان من
أمره ما نذكره، إن شاء الله تعالى في موضعه.
القبض والإفراج على من نذكر من الأمراء، وعنه
وفي يوم الجمعة، سابع صفر، أمر السلطان بالقبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر،
والأمير سيف الدين جرمك الناصري، وعدّد لهما ذنوباً كثيرة. وكان مما عدّه على الأمير
شمس الدين سنقر الأشقر، أن قال هذا ما أحسن إليه أحد، إحسان طرنطاي، فإنه مازال
يدافع عنه السلطان المنصور ويمنعه من القبض عليه، إذا أراده. ويقول له، والله لا يقبض
عليه، حتى يقبض على قبله. ووفى له طرنطاي بما عاهده عليه، بصهيون، لما استنزله
منها. ولم يرع له حق هذا الإحسان العظيم والذب عنه. وكان هو أكبر أسباب القبض
عليه، فإنه أفشى سره.
وأفرج السلطان في هذا اليوم، عن الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وأعاد عليه إمرته،
وأنعم عليه إنعاماً كثيراً. وكان قد قبض عليه، كما تقدم لما همّ بالمدافعة عن طرنطاي.
فتوح عكا وصور وصيدا وحيفا
قد ذكرنا أن السلطان الملك المنصور، والد السلطان، كان قد أهمه أمر عكا وتجهز
لغزوها. وخرج لذلك، وعاجلته المنية، دون الأمنية. فلما استقر أمر السلطان الملك
الأشرف، وخلا وجهه، ممن كان يقصد مناوأته، صرف اهتمامه الى عكا وغزوها. وندب
العساكر من الديار المصرية، وسائر الممالك والحصون. وأمر نواب السلطنة بالممالك الشامية
والساحلية، ونواب القلاع والحصون، بتجهيز الزردخانات وأعواد المجانيق والحجارين
وغيرهم. وندب الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار لذلك. فتوجه من الباب

السلطاني، ووصل الى دمشق، في سلخ صفر. فجهزت أعواد المجانيق من دمشق، وبرزت
الى ظاهرها في مستهل شهر ربيع الأول، وتكامل ذلك، في يوم الخميس ثاني عشر الشهر.
وتوجه بها الأمير علم الدين سنجر الداوادار، أحد الأمراء بالشام، ثم فرقت على الأمراء
مقدمي الألوف، فتوجه كل أمير ومضافوه منها، بما أمر بنقله.
ثم توجه الأمير حسام الدين
لاجين، نائب السلطنة بالشام، في آخر الجيش، ببقية العسكر، في يوم الجمعة، العشرين من
شهر ربيع الأول. وندب السلطان أيضاً، الأمير سيف الدين طغريل الإيقاني الى الحصون
والممالك يستنجدهم على سرعة تجهيز المجانيق والآلات، فبادر النواب الى ذلك.
ووصل الملك المظفر صاحب حماه الى دمشق، في ثالث عشرين شهر ربيع الأول، بعسكر
حماه، وصحبته مجانيق وزردخانات. ووصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، نائب
السلطنة بالفتوحات، بعساكر الحصون وطرابلس وما معها، بالمجانيق، والزردخانات، في رابع
عشرين الشهر، ووصل سائر النواب، وتوجهوا الى عكا. هذا ما كان من أمر نواب الممالك
الشامية وعساكرها.
وأما السلطان الملك الأشرف، فإنه لما عزم على التوجه الى عكا، أمر بجمع القراء والعلماء
والقضاة والأعيان، بتربة والده السلطان الملك المنصور. فاجتمعوا في ليلة الجمعة، الثامن
والعشرين من صفر، وباتوا بالقبة المنصورية، يقرأون القرآن. وحضر السلطان الى التربة في
بكرة النهار، وتصدق بجملة من المال والكساوي، ثم عاد الى قلعة الجبل. واستقل ركابه
منها، في ثالث شهر ربيع الأول. وجهز السلطان آدره العالية الى دمشق، فوصلوا الى
قلعتها، في يوم الاثنين، سابع شهر ربيع الآخر. ووصل السلطان الى المنزلة بعكا، في يوم
الخميس ثالث شهر ربيع الآخر. ووصلت المجانيق الى عكا في اليوم الثاني، من وصوله،
وهي اثنان وتسعون منجنيقاً، ما بين افرنجي وقرابغا وشيطاني، فنصبت وتكامل نصبها في
أربعة أيام، وأقيمت الستائر.
وكان الفرنج، لما بلغهم اهتمام السلطان وعزمه، كاتبوا ملوك البحر، وسألوهم إنجادهم،

فأتوهم من كل مكان. واجتمع بعكا منهم جموع كثيرة، فقويت نفوسهم، ولم يغلقوا أبواب
البلد. واسمتر الحصار وعملت النقوب، الى السادس عشر من جمادى الأولى.
فلما كان في يوم الجمعة السابع عشر من الشهر، أمر السلطان أن تضرب الكوسات جملة
واحدة، وكانت على ثلثمائة جمل. فلما ضربت، هال أهل عكا ما سمعوه منها. وزحف
السلطان بالعساكر، قبل طلوع الشمس من هذا اليوم. فما ارتفعت الشمس، إلا والصناجق
السلطانية على أسوارها.
ولما أشرف المسلمون على فتح عكا، وتحقق من بها ذلك، خرجت طائفة منهم، نحو
عشرة آلاف رجل مستأمنيم، فرّقهم السلطان على الأمراء، فقتلوا عن آخرهم. وأرسل
السلطان جماعة من الأسرى، الى الحصون الإسلامية.
وكانت مدة الحصار على عكا، منذ حل ركاب السلطان، الى أن فتحت، أربعة وأربعين
يوماً. واستشهد من الأمراء على حصارها، الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي، ونقل
الى جلجولية ودفن بها، والأمير عز الدين أيبك المعزي، نقيب العساكر، والأمير جمال الدين
أقش العتمي، والأمير بدر الدين بيليك المسعودي، والأمير شرف الدين قيران السكري،
وأربعة من مقدمي الحلقة، وجماعة يسيرة من العسكر.
وكانت عكا بيد الفرنج، منذ استرجعوها من السلطان، الملك الناصر صلاح الدين يوسف
بن أيوف، في سنة سبع وثمانين وخمسمائة، والى هذا التاريخ مائة سنة وثلاث سنين، وأمر
السلطان الآن بإخرابها، فخربت.
وفتح الله تعالى على يد السلطان، في بقية الشهر، من المدن المشهورة الساحلية، صور،
وصيدا، وحيفا، وعثليث، بغير قتال. وذلك أن الله تعالى، أوقع في قلوب أهلها الرعب، لما
فتحت عكا، وعلموا أنهم لا يقدرون على حفظها، ففارقوها ونجوا بأنفسهم. فملكها
السلطان، فأمر بهدمها جميعها فهدمت. ثم فتحت صيدا وبيروت، على يد الأمير علم
الدين الشجاعي، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وأكثر الشعراء ذكر هذا الفتح. فكان ممن امتدح السلطان، وذكر هذا الفتح من الشعراء،

الشيخ الفاضل بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجي التاجر المقيم بالقاهرة، فقال:

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل وفُتّ شأو ملوك الأعصر الأول
وحزت رق العلى بادج مجتهداً وجزت غاباتها سبقاً على مهل
ونلت بالحول دون الناس منفرداً ما لم ينله ملوك الأرض بالحيل
فطل بدولتك الميمون طائرها فإنها غرة في أوجه الدول
واسعد بهمتك العليا التي وصلت لك السعود بحبل غير منفصل
فأنت للدين والدنيا صلاحهما وفيهما حمل ضيم غير محتمل
فكم بلغت مراداً بت تأمله بعزمك الباتر العاري من الفلل
وكم فتحت حصوناً طالما رجعت لليأس عنها الملوك الصيد في خجل
حررت من عكة الغراء ما عجزت عنه الملوك بعزم غير منتشل
عقيلة المدن أمست من حصانتها وصونها من ليالي الدهر في عقل
وقد دعتها ملوك الأرض راغبة وعطفها عنهم بالتيه في شغل
صدت عن الصيد لا تلوي فلم تطل الأوهام منها الى وصل ولم تصل
أم لهم برّة ك؛م رام خطبتها بعل سواك، فلم تذعن ولم تنل
حتى أمرت فأمست وهي طائعة بعد الإباء لأمر منك متثل
مازال غيرك فيها طامعاً وعلى يديك، قد كان هذا الفتح في الأزل
فتحاً تطاول عن نثر يحوط به وصفاً، وعن نظم شعر محصد الطّول
قصدْتَها فأصيبت بعدما فجعت في أهلها من أسود الغيل بالغيل
في جحفل لجب كالليل أنجمه تبدو لرائيه من قُصْب ومن أسل
تمم المهامِه من وعر ومن أكم وطبّق الأرض من سهل ومن جبل
تخالهم وجياد الخيل تحتهم لليأس في الروع آساداً على قلل
لا تنظر العين منهم إن هم لبسوا لامات حربهم يوماً، سول المقل
صدمتها بجيوش لو صدمت بها صم الجبال، أزالتها ولم تزل
فأصبحت بعد عز الملك خاضعة من ذلة الملك طول الدهر في سمل

أمست خراباً وأضحى أهلها رمماً وسطرتها يد الأيام في المثل
فسَلْبُ بزتها عنها وقد عطلت ألذ للطرف من حَلْي ومن حلل
ومحو أثارها منها وقد خربت أشهى الى النفس من روض الربى الخضل
بالأشرف السيد السلطان زال عنا التثليث وابتهج التوحيد بالجدل
تدبير ذي حكم في عز منتقم وعمر مقتبل في رأي مكتهل
راحت وقد سلبت أرواحهم بشبا الهندي أموالهم من جملة النقل
هدمت ما شيدوا، فرقت ما جمعوا نقضت ما أبرموه غير محتفل
وعندما أصبحت قفراً بلادهم من السواحل بعد الأهل في العطل
رحلت عنها، ولكن كم أقمت بها من خوف بأسك جيشاً غير مرتحل
لازلت ذا رتب في المجد سامية وسؤدد بنواصي الشهب متصل
وقال المولى شهاب الدين أبو الثنا محمود الحلبي كاتب الإنشاء، لما عاين النيران في جوانب
عكا، وقد تساقطت أركانها وتهدمت جدرانها:
مررت بعكا بعد تخريب سورها وزند أوار النار في وسطها وار
وعاينتها بعد التنصر قد غدت مجوسية الأبراج تسجد للنار
وقال أيضاً:
الحمد لله زالت دولة الصُّلب وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها دهر أو شدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت في البر والبحر ما ينجى سوى الهرب
كانت تخيلها آمالنا فترى إن التفكر فيها أعجب العجب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتناً شاب الوليد بها ولاً ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها دارا، وأدناهما أنأى من القطب

خرقاء أمنع سوريها وأحصنه غُلْبُ الكماة، وأقواه على النوب
مصفح بصفاح، حولها شرف من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمامة تهدي من صواعقها بالنبل أضعاف ما تهدي من السحب
كأنما كل برج حوله فلك من المجانيق برمي الأرض بالشهب
ففاجأتها جنود الله يُقدِمها غضبان لله لا للملك والنشب
لبت أبي أن يرد الوجه عن أمم يدعون رب الورى سبحانه بأب
كم رامها ورماها قبله ملك جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه، بل في أوائله نال الذي لم ينله الناس في الحقب
لم ترض همته إلا التي قعدت للعجز عنها ملوك العجم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين ماثلة ما بين مضطرم ناراً ومضطرب
جيش من الترك تَرْك الحرب عندهم عار، وراحتهم ضرب من الوصب
خاضوا إليها الردى والبحر فاشبته ال أمران واختلفا في الحال والسيب
تسنموها فلم يترك ثباتهم في ذلك الأفق برجاً غير منقلب
تسلموها فلم تخل الرقاب بها من فتك منتقم أو كف منتهب
أتوا حماها فلم تدفع وقد وثبوا عنها مجانيقهم شيئاً ولم يثب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت من الفتوح وما قد خُطّ في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما عسى يقوم به ذو الشِّعر والخطب
كانت تُمني بك الأيام عن أمم والحمد لله شاهدناك عن كثب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدْتهم لله أي رضى في ذلك الغضب
وأطْلع الله جيش النصر فابتدرت طلائع الفتح بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادي الهشير على ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقرّ عيناً بهذا الفتح وابتهجت ببشره الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض مسرى الريح سمعته فالبر في طرب والبحر في حرب
وخاضت البيض في بحر الدماء فما أبدت من البيض إلا ساق مختضب

وغاص زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطن يهوى الى قلب
توقدت وهي تروى في نحورهم فزادها الري في الإشراق واللهب
أجرت الى البحر بحراً من دمائهم فراح كالراح إذ غرقاه كالحبب
وذاب من حرّها عنهم حديدهم فقيدتهم به ذعراً يد الرهب
تحكمت فسطت فيهم قواضيها قتلاً وعفت لحاويها عن السلب
كم أبرزت بطلاً كالطود قد بطلت حواسه فغدا كالمنزل الخرب
كأنه وسنان الرمح يطلبه برج هوى ووراه كوكب الذنب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك الممالك واستعلت على الوثب
ما بعد عكا، وقد لانت عربكتها لديك شيء تلاقيه على تعب
فانهض الى الأرض فالدنيا بأجمعها مدت إليك نواصيها بلا نصب
كم قد دعت، وهي في أسر العدا زمناً صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
لبيتها يا صلاح الدين معتقداً بأن ظنّ صلاح الدين لم يخب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم من قبل إحرازها بحراً من الذهب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت منه لسرّ طواه الله في الكتب
وجئتها بجيوش كالسيول على أمثالها بين أجام من القضُب
وحطتها بالمجانيق التي وقفت أمام أسوارها في جحفل لجب
مرفوعة نصبوا أضعافها قبلت للجزم والكسر منها كل منتصب
ورضتها بنقوب ذلك شمماً منها وأبدت محياها بلا نقب
وبعد صحبتها بالزحف فاضطربت رعباً وأهوت بخديها الى الترب
وغنت البيض في الأعناق فارتقصت أجسادها لعباً منها مع اللعب
وخلّقت بالدم الأسوار فابتهجت طيباً ولولا دماء القوم لم تطب
وأبرزت كل خود كاعب نُثرَتْ لها الرؤوس وقد زفت بلا طرب
ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم فاستعقلتهم ولم تطلق ولم تهب
فأحرزتهم ولكن للسيوف لكي لا يلتجي أحد منهم الى هرب

وجالت النار في أرجائها وعلت فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
أضحت أبا لهب تلك البروج وقد كانت بتعليقها حمالة الحطب
وأفلت البحر منهم من يخبر من يلقاه من قومه بالويل والحرب
وتمت النعمة العظمى وقد ملكت بفتح صور بلا حصر ولا نصب
أختان في أن كلاً منهما جمعت صليبة الكفر لا أختان في النسب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب
إن لم يكن ثمّ كون البحر منصبغاً بها إليها والألسن اللهب
فالله أعطاك ملك البر وابتدأت لك السعادة ملك البحر فارتقب
من كان مبدأه عكا وصور معاً فالصين أدنى من كفيه من حلب
علا بك الملك حتى إن قبته على الثريا غدت ممدودة الطنب
فلا برحت عزيز النصر مبتهجاً بكل فتح قريب المنح مقترب

وعمل الشعراء في هذا الفتح قصائد كثيرة، اقتصرنا منها، على ما أوردناه، فلنذكر خلاف ذلك.

القبض على الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام

وفي هذه السنة، والسلطان على حصار عكا، قُبض على الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطنة بالشام. وسبب ذلك، أن الأمير علم الدين سنجر الحموي المعروف بأبي خرص، سعى الى السلطان به، ثم أوهم الأمير حسام الدين المذكور من السلطان، وقال إنه قد عزم على القبض عليك، فحمله الخوف على أنه ركب من الوطاق بعكا ليلاً، وقصد الهرب. فركب الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وساق خلفه.

فأدركه، وقال له، بالله لا تكن سبب هلاك هذا الجيش، فإن هذا البلد قد أشرف الناس على فتحه. ومتى علم الفرنج بهروبك، قويت نفوسهم، وركب العسكر خلفك، وانصرفت عزائم السلطان عن حصار عكا إليك. فوافقه، ورجع الى خيمته، وظن أن ذلك يستتر، ولا يشعر السلطان به. وكان ذلك في ثامن جمادى الأولى. فلما كان في اليوم الثاني من هذه

الحادثة، خلع السلطان عليه، وطيّب قلبه، ثم قبض عليه في الثالث، وجهّزه الى قلعة
صفد، تحت الاحتياط، ثم جُهّز منها الى قلعة الجبل.
رحيل السلطان عن عكا ودخوله الى دمشق
وما قرره من أمر النيابة بها، وبالكرك وغير ذلك
ولما قضى السلطان الوطر من فتح عكا وما يليها، عاد الى دمشق. فكان وصوله إليها، في
الساعة الثالثة من يوم الإثنين، ثاني عشر جمادى الآخرة، ودخل دخولاً ما دخله ملك قبله.
وزينت البلد أحسن زينة، ونزل بالقلعة. وفي يوم دخوله الى دمشق، فوض نيابة السلطنة
بالشام الى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري. ورتب الأمير جمال الدين أقش
الأشرفي في نيابة الكرك، عوضاً عن الأمير ركن الدين بيبرس الدواداري المنصوري، بحكم
استعفائه من النيابة بها. وأقره السلطان في جملة الأمراء بالديار المصرية.
وفي هذا اليوم، قبض السلطان على الأمير علم الدين سنجر أرجواش المنصوري النائب
بقلعة دمشق. وسبب ذلك، أنه وقف بين يدي السلطان، وكان الأمير شرف الدين بن
الخطير الرومي، يكثر من البسط بين يدي السلطان على الأمراء وغيرهم. ويقصد بذلك أن
يشرح خاطر السلطان ويضحكه. وكان السلطان في بعض الأوقات، ينظر إليه نظراً يفهم
منه مراد السلطان في البسط على من يشير إليه. فنظر إليه السلطان وأومأ إليه أن يبسط
على أرجواش. فنظر ابن الخطير الى علم الدين أرجواش، وكان لا يعرف البسط ولا
يعانيه، ولا يزال في تصميم. فقال ابن الخطير للسلطان: كان لوالد المملوك بالروم، حمار
أشهب أعور، أشبه شيء بهذا الأمير علم الدين، فضحك السلطان، وغضب أرجواش،
وقال هذه صبيانية، فاشتد غضب السلطان لذلك، وأمر بالقبض عليه. وضرب بين يدي
السلطان ضرباً كثيراً مؤلماً. ثم أمر أن يقيد ويلبس عباءة، ويستعمل مع الأسرى، ففعل به
ذلك. ثم رسم بحمله على خيل البريد، الى الديار المصرية مقيداً. فتوجه البريدية به،
وحصلت الشفاعة فيه، فرد من أثناء الطريق. ثم أفرج السلطان عنه، بعد أن أوقع الحوطة

على موجوده، وكان يحتوي على جملة كثيرة من الأموال والعدد. وأعاده السلطان الى نيابة
القلعة، في شهر رمضان، فاستمر بها الى أن مات.
وفي يوم الأحد، ثامن عشر جمادى الآخرة، رتب السلطان الأمير شمس الدين سنقر
الأعسر، في شد الشام على عادته، وكان قد أفرج عنه قبل ذلك. ونقل الأمير سيف الدين
طوغان، من الشد الى ولاية البر، على عادته الأولى.
وفيها، في يوم الأربعاء، ثاني عشر شهر رجب، ولي القاضي محيي الدين ابن النحاس نظر
الشام، عوضاً عن تقي الدين توبة، وبطل اسم الوزارة بدمشق، وولي شرف الدين أحمد بن
عز الدين عيسى بن الشيرجي، نظر الحسبة، عوضاً عن تاج الدين بن الشيرازي، في ثاني
عشر الشهر.

فتوح برج صيدا

كان قد بقي بصيدا برج عاص، فندب السلطان لحصاره، الأمير علم الدين سنجر
الشجاعي، فتوجه لذلك، في يوم الثلاثاء رابع شهر رجب. ووصل الى صيدا وحاصر
البرج، وافتتحه في يوم السبت، خامس عشر الشهر. وعاد الأمير علم الدين الى دمشق،
بعد فتحه، على خيل البريد، فوصل إليها عند رحيل السلطان الى الديار المصرية، وذلك في
يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وكان وصوله الى قلعة الجبل، في يوم الإثنين تاسع
شعبان، ودخل من باب النصر وخرج من باب زويلة.

فتح بيروت

لما توجه السلطان الى الديار المصرية، أمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، أن يتوجه
إليها، فتوجه وافتتحها في يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب. وذلك أن الأمير علم الدين
سنجر وصل إليها؛ وكانت داخلة في الطاعة، فتلقاه أهلها وأنزلوه بقلعتها. فأمرها أن ينقلوا
أولادهم وحريمهم وأثقالهم الى قلعتها، ففعلوا ذلك، وظنوه شفقة عليهم. فلما صاروا
بالقلعة، قبض على الرجال، وقيدهم وألقاهم في الخندق، وملك البلد. وعاد الأمير علم
الدين الى دمشق، فوصل إليها، في يوم الجمعة سابع عشرين شهر رمضان من السنة. ولم يبق
بالساحل أجمع، من الفرنج أحد، وخلا الساحل بجملته منهم. ولم يتأخر بالبلاد الشامية

غير فلاحيها النصارى، وهم داخلون في الذمة، يؤدون الجزية.
ولما فتح السلطان هذا الفتح، أوقف منه ضياعاً على تربة والده السلطان الملك المنصور،
وهي: الكابرة من عكا، وتل المفتوح منها، وكردانه وضواحيها منها. ومن ساحل صور
معركه، وصريفين. وأوقف على تربته ضياعاً، وهي قرية الفرج من عكا، وقرية شفر عمر
منها، وقرية الحمراء منها، وقرية طبرنية من ساحل صور.
ذكرى إنقاذ ولدي السلطان الملك الظاهر ووالدتهما الى بلاد الأشكري
وفي هذه السنة، أمر السلطان بإخراج ولدي السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس،
وهما الملك المسعود نجم الدين خضر، والملك العادل بدر الدين سلامش، من الاعتقال،
وجهزهما ووالدتهما الى ثغر الاسكندرية، صحبة الأمير عز الدين أيبك الموصلي، أستاذ
الدار العالية. فتوجه بهم، وسفّرهم منها الى البحر المالح، الى القسطنطينية. فلما
وصلاها، أحسن الأشكري إليهما، وأجرى عليهما ما يقوم بهما وبمن معهما. فاتفقت وفاة
الملك العادل بدر الدين سلامش هنا، فصيبّرته والده بالصبرة، وجعلته في تابوت، ولم تدفنه
الى أن عادت به الى الديار المصرية، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
الإفراج عن الأمير بدر الدين بيسري الشمسي وغيره من الأمراء
وفي هذه السنة، في يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان، أمر السلطان بالإفراج عن الأمير بدر
الدين بيسري الشمسي الصالحي النجمي. وكان السلطان الملك المنصور، قد اعتقله في
أوائل دولته، كما تقدم ذكر ذلك، فأفرج السلطان عنه الآن.
وكتب له إفراج شريف
سلطاني، ونسخته بعد البسملة:
الحمد لله على نعمه الكاملة، ومراحمه الشاملة، وعواطفه التي أضحت بها بدور الإسلام
بازغة غير آفلة، ومواهبه التي تجول وتجود وتحيي رميم الآمال في يومها بعد رمسها بأمسها،
في أضيق اللحود، ويقرّ لها بالفضل كل جحوده.
أحمده حمداً يعيد سالف النعم، ويفيد آنف الكرم الذي خص وعم.
ونشهد أن لا إله إلا
الله، وحده لا شريك له، شهادة نؤدي حقوقها ونجتنب عقوقها.
ونشهد أن محمداً عبده

ورسوله، المبعوث بمكارم الأخلاق، والموصوف بالعلم والحلم على الإطلاق، صلاة لاتزال
عقودها حسنة الأنساق، ونسلم تسليماً كثيراً.
وبعد، فإن أحق من عومل بالجميل، وبلغ من مكارم هذه الدولة القاهرة، الرجا والتأميل،
من إذا ذكرت أبطال الإسلام، كان أول مذكور. وإذا وصفت الشجعان، كان إمام صف كل
شجاع مشهور. وإذا تزينت سماء الملك بالنجم، كان بدرها المنير. وإذا اجتمع ذوو الآراء
على امتثال أمر، كان خير مشير، وإذا عدت أوصاف أولي الأمر كان أكبر أمير. كما
تجمّلت المواكب بحلوله بأعلى قدر، وتزينت المراتب منه بأبهى بدر. وهو المقر الأشرف
العالي المولوي الأميري الكبيري - وذكر ألقابه، فقال - البدري بيسري الشمسي الصالحي
النجمي الملكي الأشرفي. فهو الموصوف بهذه الأوصاف والمدح، والمعروف بهذه المكارم
والمنح.
فلذلك، اقتضى حسن الرأي الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي الصلاحي،
لازالت الكُرب في أيامه تُكشَف، والبدور تكتسي في دولته الغراء، إشراقاً ولا تخسف، أن
يفرج عنه في هذه الساعة، من غير تأخير، ويمثل بين يدي المقام الأعظم السلطاني بلا
استئذان نائب ولا وزير، إن شاء الله تعالى.
وجعل هذا الإفراج في كيس أطلس أصفر، وختم عليه بخاتم السلطان، وتوجه به الى باب
الجب، الأمير بدر الدين بيدرا، والأمير زين الدين كتبغا، وجماعة من أكابر الأمراء. وأخرج
الأمير بدر الدين من الجب، وقرئ عليه هذا الإفراج، ورسم بكسر قيده، وأحضر له
التشريف السلطاني. فقال بيسري: لا يفك القيد من رجلي، ولا ألهس التشريف، إلا بعد
أن أتمثل بين يدي السلطان، وصمم على ذلك. فأُعلِم السلطان بذلك، فرسم بفك قيده،
وأن يُحضَر الى بين يدي السلطان بملبوسه، الذي كان عليه في الجب. فحضر الى بين يدي
السلطان، فانتصب له قائماً. وتلقاه وأكره، وألبسه التشريف، وأجلسه الى جانبه، وأنعم
عليه بالأموال والأقمشة، وأمّره لوقته، بمائة فارس، وأقطعه إقطاعاً وافراً، من جملته منية بني

حصيب، دريستا، بالجوالي والمواريث الحشرية، وقرّبه السلطان لديه، وأدناه إليه. وكان يخلو
به ويؤانسه ويبرّه، ويضاعف له الإنعام، حتى أن الأمير بدر الدين بيسري، انتسب الى
الأشرفية، وكان فيما مضى من عمره في الأيام الظاهرية وغيرها، يكتب بيسري الشمسي،
فصار يكتب بيسري الأشرفي.
وفيها، في يوم الجمعة رابع شهر رمضان، أفرج السلطان عن الأمير شمس الدين سنقر
الأشقر، والأمير حسام الدين لاجين المنصوري، والأمير ركن الدين بيبرس صقصوا، والأمير
شمس الدين سنقر الطويل، من الاعتقال، وأمرهم على عادتهم.
وفيها، أمر السلطان بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الداوادار، فقبض عليه من
دمشق، وجهز الى الأبواب السلطانية مقيداً. وكان وصوله الى قلعة الجبل في يوم الخميس،
سابع عشر شهر رمضان.
عزل قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز عن القضاء ومصادرته
وفي هذه السنة، عزل السلطان قاضي القضاة، تقي الدين عبد الرحمن ابن قاضي القضاة،
تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز. من منصب القضاء، بالديار المصرية، لأمور، منها
ما كان في نفس الصاحب شمس الدين الوزير منه، ومنها أنه كان في الدولة المنصورية، يراعي
خاطر الملك الصالح، ويقدّمه على الملك الأشرف. فذكّر الوزير السلطان بذلك، فعزله
وانتدب لمرافعته جماعة، وشهد عليه آخرون بأمور برأه الله منها. وأوغلوا في الكلام عليه،
ورموه بالعظائم. وكان محاشا منها. فرسّم عليه، وصودر، ونكل به.
وكان قصد الوزير الإخراق به، بالضرب، فحماه الله تعالى منه، ثم تشفع فيه الأمير بدر
الدين بيدرا، نائب السلطنة، مع ما كان بينهما من الشحناء، فأفرج السلطان عنه. وكان
سبب هذه الشفاعة، أن الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، كان له اعتناء
بقاضي القضاة تقي الدين، فلما امتحن بهذه المحنة، ورسم بمصادرته، ضمّه إليه، وعزم على
سؤال السلطان في أمره، والشفاعة فيه. وكان السلطان قد قبض على الأمير سنجر

الحموي، المعروف بأبي خرص، وكان للأمير بدر الدين بيدرا به اعتناء، فتحدث مع الأمير
بدر الدين أمير سلاح، أن يشفع فيه، فاعتذر عن ذلك، أنه يقصد أن يشفع في قاضي القضاة
ولا يمكنه أن يشفع في اثنين في وقت واحد. فاتفقا أن الأمير يشفع في قاضي القضاة. وأمير
سلاح يشفع في أبي خرص. فشفعا فيهما. فأفرج عنهما.
تفويض القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي
لما عزل السلطان، قاضي القضاة تقي الدين عن القضاء، أشار الصاحب شمس الدين ابن
السلعوس الوزير، بتفويض القضاء، للقاضي بدر الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ برهان
الدين أبي إسحاق ابراهيم بن أبي الفضل سعد الله ابن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم
بن صخر بن عبد الله الكناني الشافعي الحموي. وكان يتولى قضاء القدس الشريف
والخطابة كما قدمنا. فاستدعاه الصاحب شمس الدين، في يوم الأربعاء، تاسع شهر
رمضان، فتوجه البريد إليه. وكان وصوله الى القاهرة في يوم الإثنين، رابع عشر شهر
رمضان، سنة تسعين وستمائة. وكانت ولايته من قبل السلطان الملك الأشرف، في يوم
الخميس، سابع عشر الشهر. وفوّض إليه مع القضاء، وتدريس المدرسة الصالحية، خطابة
جامع الأزهر، وغير ذلك. وهذه ولاية قاضي القضاة بدر الدين الأولى.
وفي هذه السنة، في شوال، أمر السلطان بإخراج الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد،
وأن يخطب للناس بجامع القلعة، ويذكر السلطان في خطبته. فخطب في رابع عشرين شوال،
وعليه شعار بني العباس، وهو متقلد سيفاً. فلما فرغ من الخطبة، لم يصلّ بالناس. وقدم
قاضي القضاة بدر الدين، فصلى بهم صلاة الجماعة. واستمر يخطب بالقلعة، واستناب
عنه بجامع الأزهر القاضي صدر الدين عبد البر ابن قاضي القضاة تقي الدين بن رزين.
وفيها، في ليلة الإثنين، رابع ذي القعدة أمر السلطان باجتماع القضاة والفقهاء والأعيان
والقراء، بتربة والده السلطان الملك المنصور، فاجتمعوا. وبات نائب السلطنة والوزير بالقبة

المنصورية في تلك الليلة. فلما كان وقت السحر، من يوم الجمعة، وحضر السلطان والخليفة
الى التربة، والخليفة لابس السواد، وخطب الخليفة خطبة بليغة. حرض فيها على أخذ
العراق، وكان يوماً مشهوداً. وتصدق السلطان بصدقات وافرة، وعاد هو والخليفة الى قلعة
الجبل.
وكتب السلطان الى دمشق أن يُعمل مهم، مثل ما عمل بالقبة المنصورية. فاهتم الأمير علم
الدين الشجاعي نائب السلطنة بدمشق بذلك. وجمع الناس له في ليلة الإثنين، حادي عشر
الشهر، بالميدان الأخضر، أمام القصر الأبلق. واجتمع الناس لتلاوة القرآن، من ظهر يوم
الأحد الى نصف الليل، من ليلة الإثنين، ثم تكلم الوعاظ، وانصرف الناس في بكرة النهار.
متجددات كانت بدمشق
في هذه السنة، في شوال شرع الأمير علم الدين الشجاعي، نائب السلطنة بدمشق، في
عمارة آدر بقلعتها اقترحها السلطان عليه. واهتم بذلك، وطلب الرخام من سائر الجهات.
وكملت عمارة ذلك، في آخر سنى إحدى وتسعين.
وفيها، في تاسع شوال، أمر السلطان الملك الأشرف بالقبض على الأمير سيف الدين
قرارسلان، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوريين، فقبض عليهما الأمير علم الدين الشجاعي
واعتقلهما بالقلعة. وأقطع السلطان إقطاعيهما للأميرين عز الدين أزدمر العلائي، وشمس
الدين سنقر المسّاح.
وفيها، في ثاني شوال، أمر الأمير علم الدين الشجاعي، بإخراب ما على جسر الزلابية
بدمشق، من الحوانيت، وبإخراب جميع ما هو مبني على نهر بانياس ونهر المجدول من تحت
القلعة، الى باب الميدان الأخضر، والى الخانقاه، فأخربت المسايح ودار الصناعة، وبيوت
ومساكن وخانات ودار الضيافة، وحمام كان بني للملك السعيد، والمسايح على نهر بردى،
والسقاية التي تعرف بالعجمي، وسقاية أرجواش، ولم يبق غير المساجد.
وفيها، في يوم الخميس، ثالث عشر ذي الحجة، زاد الأمير علم الدين الشجاعي في الميدان
الأخضر الصغير، الذي فيه القصر الأبلق، مقدار سدسه من جهة الشمال الى قريب النهر،

حتى صار بين حائط الميدان والنهر مقدار ذراع ونصف ذراع بالعمل. وقسم الحيطان على
الأمراء والأجناد وبعض عوام البلد. وعمل هو بنفسه ومماليكه، فلم يوفر أحد نفسه من
العمل، فكانت عمارة ذلك في يومين.
وفيها، في العشر الآخر من ذي الحجة، قبض على الشيخ سيف الدين الرجيحي وهو من
ذرية الشيخ يونس. وجهز من دمشق الى الباب السلطاني، على خيل البريد.
وفي هذه السنة، في أوائلها، كملت عمارة قلعة حلب. وكان الأمير شمس الدين قرا سنقر
المنصوري، نائب السلطنة بحلب، قد شرع في عمارتها في الأيام المنصورية، فكملت الآن،
وكتب عليها اسم السلطان الملك الأشرف. وكان هولاكو قد خرّبها كما تقدم ذكر ذلك.
وفيها، في يوم الخميس، ثالث عشر رجب، كانت وفاة الأمير بهاء الدين يمك الناصري،
مقدم الميسرة بدمشق، ودفن بسفح قاسيون، بمقبرة الرباط الناصري. وكان رجلاً عاقلاً
قليل الاجتماع بالناس.
وفيها، كانت وفاة الأمير سابق الدين لاجين العمادي، رحمه الله تعالى. كان يتولى الأعمال
القوصية قديماً، في الدولة المعزبة، الى أوائل الظاهرية، وعمّر بمدينة قوص مدرسة معروفة
به. ثم ولي في الدولة الظاهرية الأعمال الشرقية. وكانت وفاته بالقاهرة، في العشر الآخر من
شهر رمضان منها، وذلك بعد عزله من الأعمال الشرقية، وعمر نحو اثنتين وثمانين سنة.
وكان ديّناً خيراً، كثير الصدقة والإحسان، أميناً عفيفاً، ما سمع عنه، أنه ارتكب معصية
قط، ولا شرب خمراً، ولا ارتشى، ولا أتى مكروهاً. وكان محترماً عند الملوك. وأصله
مملوك الصاحب عماد الدين، وزير صاحب الجزيرة. ثم انتقل مع أستاذه في أواخر الدولة
الكاملية، وتقدم في الدولة الصالحية وما بعدها، وولي الولايات. وكانت الولايات يومذاك لا
يصل إليها إلا أكابر الأمراء وتقاتهم، رحمه الله تعالى.
وفيها، في العشرين الآخر من شهر رمضان، توفي الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي، نائب
السلطنة بصفد بها، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الأمير سيف الدين قطز المنصوري. وكان من أكابر المماليك المنصورية،

وأكابر الأمراء. وكانت وفاته بحمص. وكان مجرداً بها، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة إحدى وتسعين وستمائة
1291 - 1292
في هذه السنة، في يوم الجمعة، رابع عشر صفر، وقع بقلعة الجبل حريق عظيم في بعض
الخزائن، وأتلف شيئاً كثيراً من الذخائر والنفائس والكتب.
وفيها، في يوم الخميس، حادي عشر شهر ربيع الأول، أمر السلطان أن يجمع القراء والعلماء
والأكابر، بالقبة المنصورية، لقراءة ختمة شريفة، فاجتمع الناس لذلك. ونزل السلطان من
الغد، لزيارة قبر والده، وتصدق بأموال جزيلة.
وفيها، في تاسع عشرين شهر ربيع الأول، في يوم الجمعة، خطب الخليفة الحاكم بأمر الله أبو
العباس أحمد، بجامع قلعة الجبل، خطبة بليغة، حث فيها على الجهاد، وأمر بالنفير، وصلّى
بالناس الجمعة.
توجه السلطان الى الشام
وفي هذه السنة، في الساعة الثامنة من يوم السبت، ثامن شهر ربيع الآخر استقل ركاب
السلطان الى جهة الشام، بجميع العساكر. فوصل الى دمشق، في يوم السبت سادس جمادى
الأولى، وأمر بالنفقة على جميع العساكر في ثامن الشهر، ووصل صاحب حماه لتلقي
السلطان. ثم عرض السلطان الجيوش، وقدمهم أمام ركابه الى جهة حلب، وتوجه هو من
دمشق في الساعة الخامسة من يوم الإثنين، سادس عشر جمادى الأولى، ووصل الى حلب
في ثامن عشرين الشهر.
فتوح قلعة الروم وتسميتها قلعة المسلمين
كان فتوح هذه القلعة، في يوم السبت، حادي عشر رجب، سنة إحدى وتسعين وستمائة.
وذلك أن السلطان رحل من حلب بسائر العساكر المصرية والشامية، في رابع جمادى
الآخرة، ونزل على قلعة الروم، يوم الثلاثاء ثامن الشهر وحاصرها وضايقها، ونصب عليها
عشرين منجنيقاً، خمسة منها إفرنجية، وخمسة عشر قرابغا وشيطانية. ورمى بالمجانيق،
وعملت النقوب، فيسّر الله فتحها. وكانت مدة المقام عليها، الى أن فتحت، ثلاثة وثلاثين
يوماً. وكان للأمير علم الدين الشجاعي في فتحها النصيب الأوفى، فإنه تحيّل في عمل

سلسلة بالقرب من شراريف القلعة، وأوثق طرفها بالأرض، فتمسك الجند بها، وطلعوا الى
القلعة. وكان ممن طلع الى القلعة، سيف الدين أقبجا، أحد مماليك الأمير بدر الدين بكتاش
الفخري، أمير سلاح، ولم يكن من أعيان مماليكه، بل كان في خدمة ولده صلاح الدين
خليل. فتحيل وطلع الى سور القلعة، وقاتل قتالاً شديداً، وجرح ثم رجع، والسلطان ينظر
إليه. فسأل عنه، فعرف به، فأرسل إليه خلعة، وأنعم عليه بمال، ووعده بإقطاع، وأمر
أستاذه الأمير بدر الدين، أن يذكر السلطان، إذا عاد الى حلب، فلم يفعل. ثم صار بعد
ذلك، من جملة مقدمي الحلقة. وتأمّر بعد ذلك، في سنة عشرة وسبعمائة بطبلخاناة، وتولى
عمل الفيوم من الديار المصرية. وفتحت القلعة عنوة، وقتل من كان بها من المقاتلة، وسبيت
النساء والذرية، ووجد فيها بطرك الأرمن، فأخذ أسيراً. ومحا السلطان عن هذه القلعة،
تسميتها بالروم، وسماها قلعة المسلمين. ووصل الى الزردخاناة السلطانية، من الأسرى ألف
أسير ومائتا أسير. واستشهد عليها من الأمراء: الأمير شرف الدين بن الخطير، وشهاب
الدين بن ركن الدين أمير جاندار. ورتب السلطان الأمير علم الدين الشجاعي لعمارة
القلعة، وأمره بإخراب ربضها وإبعاده عنها. فتأخر لذلك، وصحبته عسكر الشام.
ولما تم هذا الفتح، أنشئت كتب البشائر الى الممالك. وكان مما كتب الى دمشق، كتاب من
السلطان الى قاضي القضاة شهاب الدين الخويي ونسخته:
بسم الله الرحمن الرحيم، أخوه خليل بن قلاوون.
صدرت هذه المكاتبة الى المجس السامي، القاضي الأجل، - وذكر ألقابه ونعوته - خصه
الله بأنواع التهاني، وأتحفه بالمسرات التي تُعوذ بالسبع المثاني. وأورد على سمعه، من بشائر
نصرنا وظفرنا، ما يستوعب في وصفه ومدحه الألفاظ والمعاني.
نبشره بفتح ما سطرح الأقلام الى الأقاليم أعظم من بشائره، ولا نشرت برد المسرات،
بأحسن من إشارته وأشائره. ولا تفوهت ألسنة خطباء هذا العصر على المنابر، بأفصح
من معانيه، في سالف الدهر وغابره، وهو البشرى بفتح قلعة الروم، والهنا لكل من رام

بالإسلام نصراً ببلوغ ما رام وما يروم. وتَقصّ أحسن قصص هذا الفتح المبين، والمنح الذي
تباشر به سائر المؤمنين، ونُساوي في الإعلان والإعلام به كل من قرّ عيناً من الأبعدين
والأقربين. ونخصّ بمسرى مبشراته الحكام ليعموا بنشرها عامة الناس. ونفرض لكل ذي
مرتبة عليه منه نصيباً يجمع من الابتهاج والأنواع والأجناس.
وذلك أنا ركبنا لغزوها، من
مصر، وقد كان مَن قبلنا من الملوك، يستبعد مداها، وينابيها فلا يجيب إلا بالصد
والإعراض صداها، ويسائل عن جبالها، فتحيل في الجواب على النسور المهومة، ويستشير
أولي الرأي في حصرها، فلا يسمع إلا الأقوال المثلوبة والآراء المتلومة. ومازلنا نصل السرى،
ونرسل الأعنة الى نحوها، فتمدّ الجياد أعناقها إليها مداً، ينقطع بين قوتها وقوته السير.
واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى، وعر المنتقى، شاهق لا يلقى به مسلك ولا
يلتقى. فمازالت العزائم الشريفة تسهل حزونه، والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارته
عيونه، والجياد المطهمة ترتقي، مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه. فلما أشرف عليها
منا أشرف سلطان، جعل جبلها دكاً، وحاصرناها حصاراً ألحقها بعكا وأخواتها، وإن
كانت أحصن من عكا. ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور،
وتقبض الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور، وتفترس أبراجها بصقور
صخور افتراس الأسد الهصور. هذا والنقوب تسري في بدناتها سريان الخيال، وإن كانت
جفونها المسهدة، وعمدها الممددة وحفظتها المجندة، ورواسيها على جبل الفرات موطدة.
وقد خندقوا عليها خندقاً جرت فيه الفرات من جانب ونهرز مرزبان من جانب، ووضعها
واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب، وسفح صرحها الممدد فكأنه عرش لها
على الماء وإذا رمقها طرف رائيها اشتبهت عليه بأنجم السماء. ومازالت المضايقة تقص
من حبلها أطرافه، وتستدر بحلبها أخلافه، وتقطع بمسائل جلاد معاولها وجدالها خلافه.
وتورد عليها من سهامها كل إيراد لا يجاوب إلا بالتسليم، وتقضي عليها بكل حكم لا نقابل

توبته إلا بالتحكيم.
ولما أذن الله بالفتح الذي أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب، والمنح الذي أضفى
على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب. فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره، في يوم
السبت حادي عشر شهر رجب الفرد. فسبحان من سهل صعبها، وعجل كسبها،
وأمكن منها ومن أهلها، وجمع شمل الممالك الإسلامية بشملها. فالمجلس السامي يأخذ
خطه من هذه البشرى، التي بشرت بها ملائكة السماء، ملك البسيطة وسلطان الأرض.
وتكاثر على شكرها كل من أرضى الله طاعة وأغضب من لم يرض، من ذوي الإلحاد،
وممن حاد الله وحاد، وممن ينتظر من هذا الإيعاز إنجاز الإيعاد، فلا ينجيه الإمضاء هرباً ولا
الإبعاد. فإنه بفتح هذه القلعة وتوقلها، وحيازة ثغرها ومعقلها، تحقق من بسيحون
وجيحون، أنهم بعد فتح باب الفرات، بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون أنهم ينجون.
وما يكون بعد هذا الفتح، إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق، وملك البلاد من
مغرب الشمس الى مطلع الإشراق. والله تعالى يمدنا من دعواته الصالحة، بما تعدو به عقود
الآمال حسنة الاتساق، إن شاء الله.
كتب يوم الفتح المبارك سنة إحدى وتسعين وستمائة، حسب المرسوم الشريف.
وكُتب عن الأمير علم الشجاعي، نائب السلطنة بدمشق، الى قاضي القضاة، شهاب الدين
الخويي أيضاً. وهو من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسي، ما مثاله بعد البسملة:
ضاعف الله مسار الجناب العالي المولوي القضائي الشهابي - وذكر ألقاه ونعوته - ولازالت
وفود البشائر إليه تترى، وعقود التهاني تُنص إليه نظماً ونيراً. وفواتح الفتح تتلى عليه لكل
آية نصر يسجد لها القلم في الطرس شكراً، وتشتمل على أسرار الظفر فيأتي الإسماع من
غرابتها بما لم يحط به خبراً. وتتحفه بظهور أثر المساهمة فتهدي إليه سروراً وأجراً.
المملوك يستفتح من حمد الله على ما منح من آلائه، وفتح على أوليائه، ووهب من الإعداء
على أعدائه، ويسّر من الظفر الذي أيد فيه بنصره وأمدّ بملائكه سمائه، ما يستديم الإنجاد

بحوله، ويستزيد به الأمداد من فضله وطوله. ويوالي من الصلاة على سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم ما يستدر به أخلاف الفتوح، ويسترهف بيمنه الصوارم التي هي على من كفر
بالله ورسوله دعوة نوح. ويهدي من البشائر ما تختال به أعطاف المنابر سروراً، ويتعطر
بذكره أفواه المحابر حبوراً، وترشف الأسماع موارد وارده، فيستحيل في قلوب الأعداء ناراً
وفي قلوب الأولياء نوراً. ويبادر مساهمة الحاضر في استماعه كل بادٍ فينقلب الى أهله
مسروراً.
وينهي أنه أصدرها والنصر قد خفقت بنوده، وصدقت وعوده، وسار بمختلفات البشائر
في كل قطر بريده. والأعلام الشريفة السلطانية، قد امتطت من قلعة الروم صهوة لم تذلّ
لراكب. وحلت من قنتها وقلتها بين الذروة والغارب. وأراقت أسنتها من دمائهم ما ترك
الفرات لا يحل لشارب. ومدّ الأيمان بها أطنابه، وأعجلت السيوف المنصورة الشرك أن
يضم للرحلة أثوابه. واستقرت بها قدم الإسلام ثابتة الى الأبد، وقتّلت بأرجائها، سيوف
أهل الجمعة، حتى رق أهل السبت لأهل الأحد. وأذهب الله عنها التثليث حتى كاد
حكم الثلاثة أن يسقط من العدد، وتبرّأ منهم من كان يغرهم بإمداده، حتى الفرات
لمجاورتهم، ودّت النقص خوفاً أن يطلق على زيادتها اسم المدد. ونطق بها الأذان فحرس
الجرس. وعلت بها كلمة الإيمان، فأضحت لها بعد الإبتذال آية الحرس. وأسمعت دعوة
الحق ما حولها من الجبال فسمعت وهي الصم، ولبّت الداعي بلسان الصدى الناطق عن
شوامخها الشم.
وكانت هذه القلعة المذكورة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلق، والغلة في الصدر،
والخسوف الطارئ على طلعة البدر. لا تخلو من غل تضمره، في لين تظهره، وغدر تستره،
في عذر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها الى مخادعة الجار، ومودعة التتار، وممالاتهم
على الإسلام بالنفس والمال، ومساواتهم لهم حتى في الزي والحال. يمدونهم بالهدايا
والألطاف، ويدلونهم على عورات الأطراف. وهم يتقون بمسالمة الأيام، ويدعون أن قلعتهم لم

تزل من الحوادث في زمام، ويغترون بها. ولولا السطوات الشريفة، لحق بمثلها أن يغتر.
ويسكنون الى حصانتها كلما أومض في حلك السحب برق ثغرها المفتر.
وهو حصن صاعد منحدر، بارزه مستدير، لا يطأ إليه السالك إلا على المحاجر، ولا
تنظره العيون حتى تبلغ القلوب الحناجر، كأنه في ضمائر الجبال حب يقتل وهو كامن،
ويجرف الظاهر وهو باطن. قد أرخت عليه الجبال الشواهق ذوائبها، ومدت عليه الغمائم
أطنابها ومضاربها. وقد تنافست فيه الرواسي الرواسخ فأخفاه بعضها عن بعض
وتقاسمته العناصر فهو للنكاية والرفعة والثبات ومجاورة الفرات مشترك بين النار والهواء
والماء والأرض. وقد امتدت الفرات من شرقيها كالسيف في كف طالب ثأر، واكتنفها من
جهة الغرب نهر آخر استدار نحوها كالسور وانعطف معها كالسوار. وفي قنة قلتها جبل
يرد الطرف وهو كليل، ويصل النظر الى تخيل هضابه فلا يهتدي الى تصورها بغير دليل،
وكذلك من شرقها وغربها، فلا تنظرها الشمس وقت الشروق، ولا يشاهدها القمر وقت
الأصيل. وحولها من الأودية خنادق لا يعرف فيها الهلال إلا بوصفه، ولا الشهر إلا
بنصفه.
وأما الطريق إليها فيزل الذرّ عن متنها. ويكل طرفُ الطرف عن سلوك سهلها فضلاً عن
حزنها. وبها من الأرمن عصب جمعهم التكفور، ومن التتار فرق زيادتهم للتغوير، قد بذلوا
دونها النفوس، وتدرعوا للذب عنها لبوس. وأقدموا على شرب كأس الحمام، خوفاً أن
يكفرهم التكفور؛ وبحرمهم خليفتهم الحاكم بها، كتبغا نميكوس. وإذ زيّن لهم الشيطان
أعمالهم، وفسح في ميدان الضلالة آمالهم، فلما تراءت الفئتان، نكص على عقبية، وترك كلاً
منهما يعض من الندم يديه. وحين أمر مولانا السلطان، خلّد الله سلطانه، الجيوش المنصورة
بالنزول عليها، والهجوم من خلفها ومن بين يديها، ذللت مواطئ جيادها صهوات تلك
الجبال. وأحاطت بها من كل جانب إحاطة الهلال بالهلال.
وسلكوا إليها تلك المخارم،

وقد تقدمهم الرعب هادياً وأقدموا على قطع تلك المسالك والمهالك، بالأموال والأنفس، ثقة
بأنهم لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً. فلم يكن بأسرع من أن طار إليهم
الحمام، في أجنحة السهام. وخضّبت الأحجار تلك الغادة العذراء للضرورة، وللضرورات
أحكام. وأزالت النقابة عنها نقاب احتشامها. ودبّت في مفاصلها دبيب السقم في
عظامها، مع أنها مستقرة على الصخر الذي لا مجال فيه للحديد، ولكن الله أعز بالنصر
سلطاننا فجاءت أسباب الفتح على ما يريد. وأقيمت المجانيق المنصورة أمامها فأيقنوا
بالعذاب الأليم، وشاموا بروق الموت من عواصف أحجارها التي ما تذر من شيء أتت
عليه إلا جعلته كالرميم. وساهموها صلاة الخوف، فلسهامهم الركوع، ولبروجهم السجود،
ولقلعتهم التسليم. ولم تزل تشن عليهم غارة بعد غارة، وتسقيهم على الظمأ صوب
أحجارها، وإن من الحجارة، وهي مع ذلك تظهر الجلد والجد، وتغضب غضب الأسير،
على القد. وتخفي ما تكابد من الألم، وتشكو بلسان الحال شكوى الجريح الى العقبان
والرخم، الى أن جاءت من الأنجاد ما كانوا يأملون. وسطت مجانيقهم فوقع الحق وبطل ما
كانوا يعملون. وكلما سقطت أسوارها، وتهتكت بيد النقوب أستارها، وتوهم الناظر أنها
هانت، رآها المباشر في تلك الحالة أشد ما كانت، وثبتت على الرمي والارتماء، وعزّت
على من اتخذ نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء، واستغنت بمكان السور، وانقضت
أحجارها على أسوار الحرب انقضاض النسور.
وكان الفتح المبارك في صباح يوم السبت، حادي عشر رجب الفرد، سنة إحدى وتسعين
وستمائة بالسيف عنوة. فشفت الصوارم من أرجاس الكفر العلل بقمع العدى وكبتها.
وسطا خميس الأمة يوم السبت، على أهل يوم الأحد، فبارك الله بخميس الأمة في سبتها.
فليأخذ القاضي من هذه البشرى، التي أصبح الدين بها عالي المنار، بادي الأنوار.
ضارب مضارب دعوته على الأقطار، ذاكراً بموالاة الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين

والأنصار. وليشعها على رؤوس الإشهاد ويجعلها في صحف الفتوح السالفة بمنزلة المعنى في
القرينة والمثل في الاستشهاد. ويمدّ الجيش بهمته التي ترهف الهمم، وأدعيته التي تساعد
الساعد وتؤيد اليد وتقدم القدم. ويشارك في الجهاد حتى يكون في نكاية الأعداء على البعد
كسهم أصاب ورامية بذي سلم. ويستقبل من البشائر بعدها ما تكون له هذه بمنزلة
العنوان في الكتاب، والأحاد في الحساب، وركعة النافلة بالنسبة الى الخمس، والفجر الأول
قبل طلوع طلعة الشمس.
والله تعالى يجعل شهاب فضله لامعاً، ونور علمه في الأفاق ساطعاً، ويتحفه من مفرقات
التهاني بكل ما يغدو لشمل المسرات جامعاً، إن شاء الله تعالى.
كتب في يوم الفتح المذكور.
وكتب غير ذلك من كتب البشائر، اقتصرنا منها ما أوردناه.
ثم رحل السلطان من قلعة الروم الى حلب، فأقام بها بقية شهر رجب، ونصف شعبان.
وعزل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري عن نيابتها.
ورتب بها الأمير سيف الدين
بلبان الطباخي المنصوري. وجعل الأمير عز الدين أيبك
الموصلي شاد الدواوين. وقيل إنه
ولاه قلعة الروم وما جمع إليها، فامتنع من قبول هذه الولاية.
فغضب السلطان وأمر بالقبض
عليه، وفوض ذلك الى الأمير جمال الدين أقش الفارسي فبقي بها أياماً وتوفي، فأعاد
السلطان الأمير عز الدين الموصلي. ورحل السلطان عن حلب الى دمشق، فكان وصوله
إليها، في يوم الثلاثاء العشرين من شعبان فأقام بها بقية شعبان وشهر رمضان وبعض
شوال.
وفيها، حصل لجمال العسكر مرض، سلّت منه حتى جافت الوطاقات منها. ولم يجد
الأمراء من الجمال ما يحملون عليه أثقالهم، فحملوها على البغال والأكاديش.
توجه الأمير بدر الدين بيدرا وبعض العساكر
الى جبال الكسروان واضطراب العسكر
وفي هذه السنة، في شعبان توجه الأمير بدر الدين بيدرا بمعظم العساكر المصرية، وصحبته
من الأمراء الأكابر، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير شمس الدين قراسنقر

المنصوري، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي وغيرهم،
وقصد جبال الكسروان. وأتاهم من جهة الساحل، الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا،
والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما. والتقوا بالجبل، وحضر الى الأمير بدر الدين بيدرا
من أثنى عزمه، وكسر حدته. فحصل الفتور في أمرهم، حتى تمكنوا من بعض العسكر، في
تلك الأوعار، ومضايق الجبال، فنالوا منهم. وعاد العسكر شبه المنهزم، وطمع أهل تلك
الجبال، فاضطر الأمير بدر الدين الى إطابة قلوبهم والإحسان اليهم. وخلع على جماعة من
أكابرهم، فاشتطوا في الطلب، فأجابهم الى ما التمسوه، من الإفراج عن جماعة منهم، كانوا
قد اعتقلوا بدمشق، لذنوب وجرائم صدرت منهم. وحصل للكسروان من القتل والنهب
والظفر، ما لم يكن في حسابهم. وحصل للأمراء والعسكر من الألم لذلك، ما أوجب تصريح
بعضهم بسوء تدبير الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، ونسبوه الى أنه إنما أهمل أمرهم،
وفتر عن قتالهم، حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه، وأنه تبرطل منهم وأخذ جملة كثيرة،
ولهج الناس بذلك. وتوجه الأمير بدر الدين بيدرا بالعساكر الى دمشق. فتلقاه الملك
الأشرف، وأقبل عليه وترجل لترجله عند السلام عليه. فلما خلا به، أنكر عليه سوء
اعتماده وتفريطه في العسكر، فمرض لذلك، حتى أشاع الناس أنه سقي. ثم عوفي في العشر
الأوسط من شهر رمضان، فتصدق السلطان بجملة كثيرة، شكراً لله تعالى على عافيته،
وأطلق جماعة كثيرة ممن كان في السجون. وتصدق هو أيضاً بجملة، ونزل عن كثير مما كان
قد اغتصبه من أملاك الناس، بالإيجار الذي هو على غير الوجه الشرعي. وجمع العلماء
والقضاة والقراء والمشايخ، في العاشر من شهر رمضان، بالجامع بدمشق لقراءة الختمة.
وأشعل الجامع في هذه الليلة، كما يشعل في نصف شعبان.
هرب الأمير حسام الدين لاجين والقبض عليه واعتقاله والقبض على طقصوا
وفي هذه السنة، في ليلة عيد الفطر، هرب الأمير حسام الدين لاجين من داره بدمشق.

فنودي عليه، من أحضره فله ألف دينار، ومن أخفاه شنق. وركب السلطان في
خاصكيته وجماعة من الأمراء. وترك سماط العيد، وساق في طلبه، وعاد بعد العصر،
ولم يظفر به.
واتفق أنه التجأ الى طائفة من العرب كان يثق بصحبتهم. فقبضوا عليه وجيء به الى
السلطان فاعتقله. وقبض أيضاً على الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا، وجهز الى قلعة
الجبل. وكان السبب في القبض على طقصوا، أنه كان قد تكلم على الأمير بدر الدين
بيدرا. وقال إنه ارتشى من الكسروان. فوجد بيدرا عليه، وأسرها في نفسه، وتربص به
الدوائر. فلما قبض على الأمير حسام الدين لاجين، خاطب بيدرا السلطان في القبض على
طقصوا، لأن لاجين كان قد تزوج ابنته، فقبض عليه.
تفويض نيابة السلطنة بالشام والفتوحات وعود السلطان الى الديار المصرية
وفي هذه السنة، فوض السلطان نيابة السلطنة بالشام الى الأمير عز الدين أيبك الحموي
الظاهري، عوضاً عن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي. وفوّض نيابة السلطنة بالفتوحات
للأمير سيف الدين طغربل الإيغاني، عوضاً عن الأمير سيف الدين بلباني الطبانجي، بحكم
انتقاله الى نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية كما تقدم. ثم عاد السلطان الى مقر ملكه بقلعة
الجبل. وكان رحيله من دمشق، في الثلث الأخير من ليلة الثلاثاء عاشر شوال. وكان قد
رُسم لأهل الأسواق بدمشق أن يخرج كل واحد منهم، وبيده شمعة يوقدها، عند ركوب
السلطان، فخرجوا بأجمعهم. ورتبوا من باب النصر أحد أبواب دمشق، الى مسجد
القدم. ولما ركب السلطان، اشتعلت تلك الشموع، وساق وهي كذلك الى نهاية ذلك
الجمع. وكان وصول السلطان الى قلعة الجبل، في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة.
عدة حوادث كانت في خلال فتح قلعة الروم وقبله وبعده
في هذه السنة، في أواخر شهر ربيع الآخر، ورد البريد من الرحبة الى دمشق، يخبر أن
طائفة من التتار، أغاروا على ظاهر الرحبة، واستاقوا مواشي كثيرة. فجرد نائب السلطنة
إليها جماعة من عسكر دمشق، في ثامن عشرين الشهر.

وفيها، في العشر الأوسط من جمادى الأولى، تزوج الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، بابنة
الصاحب شمس الدين بن السلعوس، على صداق مبلغه ألف دينار وخمسمائة دينار عيناً،
عجّل من ذلك خمسمائة دينار.
وفيها، بعد أن توجه السلطان الى قلعة الروم بأيام يسيرة، تسوّر عبد أسود الى أسطحة
أدر الحرم السلطانية بقلعة دمشق. فأُمسك وقُرّر، فذكر أن أحد المؤذنين بجامع القلعة نصب
له سلّماً، وأصعده الى هناك. فطولع السلطان بذلك، فورد المرسوم بقطع أطرافهما
وتسميرهما، ففعل ذلك بهما.
وفيها، في شعبان طلّق الملك المظفر، صاحب حماه، زوجته، وهي ابنة خاله الملك
الناصر صلاح الدين يوسف، ابن الملك العزيز محمد، ابن الملك الظاهر غازي، ابن الملك
الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فعاب الناس عليه ذلك، واستقبحوه منه. وتوجهت
هي من حماه الى الديار المصرية، فتوفيت بعد وصولها إليها بعشرين يوماً.
وفيها، بعد أن توجه السلطان من دمشق الى الديار المصرية، استعفي القاضي محيي الدين
بن النحاس، من مباشرة نظر الدواوين بالشام، فأعفي من ذلك. ورتب في نظر الخزانة
عوضاً عن أمين الدين بن هلال. ورتب في نظر الدواوين جمال الدين ابراهيم بن صصري.
وفيها، أفرج السلطان عن الأمير علم الدين سنجر الدواداري، بعد عوده من قلعة الروم،
وأمر بإحضاره من الديار المصرية الى دمشق، فأحضر، فخلع عليه السلطان، واستصحبه
معه الى الديار المصرية وأمّره.
وفيها، رتب السلطان الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصوري، في مقدمة
المماليك السلطانية.
القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر
وجرمك الناصري ووفاتهما، ووفاة طقصوا والإفراج عن الأمير حسام الدين لاجين
وفي هذه السنة، لما عاد السلطان الى الديار المصرية، قبض على الأمير شمس الدين سنقر
الأشقر، والأمير سيف الدين جرمك الناصري. وأمر بإعدامهما، وإعدام طقصوا ولاجين.

فكان الذي تولى خنق لاجين، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، فتلطف به، وانتظر
أن تقع به شفاعة. فشفع فيه الأمير بدر الدين بيدرا، فأمر السلطان بالإفراج عنه، وهو
يظن أنه قد مات. فسلّمه الله تعالى، لما كان له في طي الغيب ما نذكره بعد إن شاء الله
تعالى. وقيل إن السلطان قبض على سنقر الأشقر من دمشق.
وفيها، في منتصف شهر رمضان، توفي القاضي فتح الدين محمد ابن القاضي محيي الدين
عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء. وكانت وفاته
بدمشق، ودفن بسفح قاسيون. ومولده في أحد الربيعين، سنة ثمان وثلاثين وستمائة. وكان
قد تمكّن في الدولة المنصورية، والدولة الأشرفية تمكناً كثيراً، وتقدم على أبيه وغيره. ولما
اعتلّ، رحمه الله، كتب إلى أبيه:

إن شئت تنظرني وتنظر حالتي قابل إذا هب النسيم قبولا
لتراه مثلي رقة ولطافة ولأجل قلبك لا أقول عليلا
وهو الرسول إليك من ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ولما مات، أجرى السلطان الملك الأشرف جامكيته وجرياته وراتبه، على ولده القاضي،
علاء الدين علي، واستقر في جملة كتاب الإنشاء. وولى صحابة ديوان الإنشاء، بعد وفاة
القاضي فتح الدين، القاضي تاج الدين أبو الظاهر أحمد ابن القاضي شرف الدين أبي
البركات سعيد بن شمس الدين أبي جعفر محمد ابن الأثير الحلبي التنوخي، فلم يلبث إلا
شهراً أو قريباً من شهر، وتوفي الى رحمة الله تعالى. وكانت وفاته، يوم الخميس تاسع عشر
شوال من هذه السنة، بظاهر غزة. ودفن هناك رحمه الله تعالى. وولي بعده صحابة ديوان
الإنشاء، ولده القاضي عماد الدين إسماعيل، واستمر الى آخر سنة اثنتين وتسعين
وستمائة.
وفيها، في يوم السبت العشرين من شوال، توفي الأمير سابق الدين الميداني بدمشق، ودفن
بقاسيون رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة اثنتين وتسعين وستمائة

1292 - 1293

في هذه السنة، في أولها، فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والحصون، الى

الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصوري، عوضاً عن الأمير سيف الدين طغربل الإيغاني،
بحكم استعفائه من النيابة، وسؤاله. فوصل الى دمشق في سابع عشرين المحرم، وصحبته
خمسة أمراء بطبلخاة، وتوجه الى جهته.
وفيها، في صفر، حصل ببلاد غزة والرملة ولد والكرك، زلزلة عظيمة، كان معظمها
بالكرك، فإنها هدمت ثلاثة أبراج قلعتها. فندب الأمير علاء الدين أيدغدي الشجاعي من
دمشق، وصحبته الصناع لعمارة ما انهدم بالكرك.
وفيها، أمر السلطان بالقبض على الأمير عز الدين أزدمر العلائي، أحد الأمراء بدمشق:
فقُبض عليه، وجهز الى الأبواب السلطانية في غرة شهر ربيع الأول.
توجه السلطان الى الصعيد
وفي هذه السنة، توجه السلطان الى جهة الصعيد للصيد، واستصحب معه الصاحب
شمس الدين بن السلعوس، وترك الأمير بدر الدين بيدرا بقلعة الجبل. وانتهى السلطان الى
مدينة قوص، وتصيد بها. وأمر الحجاب والنقباء أن ينادوا في العسكر أن يتجهزا لغزو
اليمن. ثم عاد السلطان الى قلعة الجبل.
ولما كشف الصاحب شمس الدين بن السلعوس الوجه القبلي في هذه السفرة، وُجِدت
الجهات الجارية في ديوان الأمير بدر الدين بيدرا من الإقطاعات والمشتروات والحمايات، أكثر
مما هو جار في الخاص السلطاني. ووجد الشون السلطانية بنواحي الوجه القبلي، خالية
من الغلال والحواصل، وشون الأمير بدر الدين بيدرا مملوءة. فأنهى ذلك الى السلطان
وأطلعه عليه، فتغير السلطان على بيدرا. واتصل هذا الخبر به، فقصد تلافيه. وجهز
للسلطان تقدمة عظيمة، كان من جملتها، خيمة أطلس معدني أحمر، بأطناب ابريسم
بأعمدة صندل، محلاة ومفصلة بالفضة المذهبة، وبسطها ببسط الحرير، وما يناسب هذه
الخيمة من التقادم. وضرب هذه الخيمة بالعدوية، فنزل السلطان بها ساعة من نهار، وما
أظهر البشاشة للتقدمة، ولا استحسنها مع عظمها. ثم ركب وطلع الى قلعة الجبل، وارتجع
بعض جهات بيدرا للخاص السلطاني.
توجه السلطان الى الشام وأخذ بهسنا من الأرمن

وإضافتها الى الممالك الإسلامية
وفي هذه السنة، بعد عود السلطان من جهة الصعيد، تجهز بعساكره الى الشام. وأمر
الأمير بدر الدين بيدرا، أن يتوجه بالعساكر الى دمشق على الطريق الجادة. وتوجه
الصاحب بالخزانة إليها، وركب السلطان على الهجن، وفي خدمته جماعة من الأمراء
والخاصكية. وتوجه الى الكرك وشاهد حصنها ورتب أموالها، وتوجه منها الى دمشق.
فكان وصوله إليها، في تاسع جمادى الآخرة. ووصل نائب السلطنة والصاحب قبله بثلاثة
أيام.
ولما حلّ ركابه بدمشق، أمر بتجهيز العساكر الى بلاد سيس، فوصل رسل صاحب
سيس، يسألون مراحم السلطان وعواطفه، ويبذلون له الرغائب. فاتفق الحال على أن
يسلموا لنواب السلطان بهسنا ومرعش وتل حمدون. فأعاد السلطان رسله، وصحبتهم
الأمير سيف الدين طوغان والي بر دمشق، فتسلمها وبلادها. ووصل البريد بذلك في
العشر الأول من شهر رجب. ودقت البشائر لذلك. ورتب السلطان في نيابة السلطنة
ببهسنا، الأمير بدر الدين بكتاش المنصوري، وعين لها قاضياً خطيباً. واستخدم بها
رجالاً وحفظة. ثم وصل الأمير سيف الدين طوغان، وصحبته رسل سيس، بالحمل
والتقادم. وكان وصولهم الى دمشق، في ثامن عشرين شهر رجب بعد عود السلطان،
فتوجهوا الى الديار المصرية.
وهذه بهسنا من أعظم القلاع وأحصنها، ولها ضياع كثيرة. وهي في فم الدربند، وكانت
بيد ملوك الإسلام بحلب، الى أن ملك هولاكو حلب. وكان النائب بها من جهة الملك
الناصر، الأمير سيف الدين العقرب، فأباعها لصاحب سيس، بمائة ألف درهم، أعطاه منها
ستين ألف درهم، وتسلمها الأرمن أهل سيس، وبقيت في أيديهم الى الآن.
القبض على الأمير حسام الدين مهنا ابن عيسى وإخوته
وفي هذه السنة، في ثاني من شهر رجب، توجه السلطان من دمشق الى حمص، بجماعة
من العساكر، وأعاد ضعفة العساكر الى الديار المصرية. ثم توجه السلطان من حمص الى

سلمية، في ضيافة الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى. فلما قدّم للسلطان ضيافته، أمر
بالقبض عليه، وعلى إخوته فقبض عليهم، وهو على الطعام، وجهّزه تحت الاحتياط،
صحبة الأمير حسام الدين لاجين، فوصل به الى دمشق، في يوم الأحد سابع شهر رجب.
ووصل السلطان الى دمشق، في بقية النهار. وجعل السلطان إمرة العرب، بعد القبض على
مهنا، لابن عمه الأمير محمد بن أبي بكر علي بن حذيفة. ثم أمر السلطان الأمير بدر الدين
بيدرا نائب السلطنة، أن يتوجه بالعساكر الى الديار المصرية، هو والصاحب شمس الدين
والخزانة، كما حضرا من حمص. فتوجها من دمشق في يوم الخميس حادي عشرة شهر
رجب. وتوجه السلطان بعدهما، ببعض الأمراء والخاصكية. وركب من دمشق في
الساعة السابعة من يوم السبت ثالث عشر الشهر. وأراد بذلك الانفراد بنفسه وخواصه،
والانفراد بهم في الصيد، وأن لا يشتغل بالعساكر. ووصل الى غزة، في بكرة يوم الأربعاء
سابع عشر الشهر. ووصل الى القاهرة في الثامن والعشرين من شهر رجب.

هدم قلعة الشوبك

وفي هذه السنة، في شهر رجب، أمر السلطان الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار أن
يتوجه الى قلعة الشوبك ويهدمها، وذلك عند توجه السلطان من دمشق الى حمص.
فراجعه في ذلك، وبيّن له فساد هذا الرأي، فانتهره، فتوجه إليها وهدمها، وأبقى القلة.
وكان هدمها من الخطأ، وسوء التدبير، فإن القلاع والحصون معاقل الإسلام، وذخائر
المسلمين، وإليها يلجأون في أوقات الشدائد والحصارات، ومنازلة الأعداء، وهو أمر لا
يؤمن.
وبعد عود السلطان الى الديار المصرية، رسم السلطان للأمير سيف الدين طوغان، أن
يتوجه الى نيابة السلطنة، بقلعة المسلمين، عوضاً عن الأمير عز الدين أيبك الموصلي
المنصوري. وولى الأمير سيف الدين استدمر كرجي بر دمشق، عوضاً عن طوغان.

حادثة السيل ببعلبك

وفي هذه السنة، في رجب، وصل كتاب النائب ببعلبك، يخبر أنه وقع على مدينة بعلبك،
أمطار وثلوج كثيرة جداً، وأن المطر كان ينزل وكأنه قد جبل بطين، وأن السيل وصل الى
باب بعلبك، المسمى بباب دمشق، وعلا حتى وصل الى شرفات السور. ثم انحدر بعد
ذلك، واقتلع كروماً كثيرة، ونقل أحجاراً وصخوراً، وطم أكثر الطرقات، وأنه أحصى ما
أفسد ببعلبك، وكانت قيمته تزيد على مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار.
وفيها، أمر السلطان، بالقبض على الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار، فقبض عليه
في شوال، ووقعت الحوطة على موجوده وحواصله بالديار المصرية والشام.
ختام الملك الناصر، وما حصل من الاهتمام بذلك
وفي هذه السنة، أمر السلطان بالاهتمام لختان أخيه الملك الناصر، ناصر الدين محمد ابن
السلطان الملك المنصور، وأن ينصب القبق تحت قلعة الجبل مما يلي باب النصر. فنصب في
العشرين من ذي الحجة، ورماه الأمراء والأكابر ومن له ولمثله عادة بذلك. وفرّق السلطان
الأموال على من أصابه. وكان ممن أصابه الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي.
فرماه ما لم يرمه غيره قبله. وذلك أنه كان قد اقترح سرجاً وطئ الرادفة جداً. فلما رآه
السلطان، قال له قد كبرت يا أمير بدر الدين، فاقترحت هذا السرج، ليسهل عليك
الركوب. فقال: إن كان المملوك قد كبر، فقد رزقت ستة أولاد، وهم في خدمة السلطان ولم
أكن أقترح هذا السرج إلا لأجل القبق. ثم ساق الأمير بدر الدين نحو صاري القبق.
والعادة جارية أن الرامي لا يرميه إلا إذا صار بجانب الصاري. فساق الى أن تعدى
الصاري، فما شك الناس أنه فاته الرمي. ثم استلقى على ظهر فرسه، حتى صار رأسه
على كفل الفرس، فرماه وهو كذلك، بعد أن تعداه، فأصاب القرعة وكسرها. فصرخ الناس
لذلك واستعظموه. وظهرت للسلطان فائدة السرج، فأمر أن ينعم عليه بما بقي في ذلك
الوقت، من المال المرصد للإنعام فأعطيه، وكان خمسة وثلاثين ألف درهم. وخلع عليه،

وعظم في صدور الناس، زيادة عما عندهم من تعظيمه. وعلموا عجزهم عن الإتيان بما
أتى به، وفعل ما فعله.
ثم كان الختان المبارك، في يوم الإثنين، الثاني والعشرين من ذي الحجة. ونثر الأمراء الذهب
الكثير في الطشوت حتى امتلأت.
وفيها، في ليلة الثلاثاء حادي عشر صفر، توفي الأمير الصالح شمس الدين أبو البيان، نبا
ابن الأمير نور الدين أبي الحسن علي ابن الأمير شجاع الدين هاشم ابن حسن بن حسين،
أمير جاندار المعروف بابن المحفدار، بداره بالروضة، قبالة مصر، بعد أن صلى العشاء
الآخرة، بسورة "هل أتى على الإنسان حين من الدهر" فلما فرغ من الصلاة، سجد سجدة،
فمات في سجدته، وكانت عادته أن يسجد عقيب صلاته، ويدعو الله في سجوده. ودفن
من الغد في القرافة بتربته، بقرب تربة الإمام الشافعي. وكان رحمه الله تعالى، ديناً حسن
السيرة والوساطة، احتوى على أوساط جميلة، يثق الملوك به ويعلمون خيره وديانته، رحمه
الله تعالى.
وفيها، في ليلة الأربعاء، ثاني عشر جمادى الآخرة، توفي الملك الزاهر مجير الدين داود ابن
الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، ابن الملك القاهر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور
أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، ببستانه المعروف ببستان سامه، بالسهم، ظاهر
دمشق. وصلي عليه ظهر يوم الأربعاء بالجامع المظفري، ودفن بتربته بسفح قاسيون، رحمه
الله تعالى. ذكر وفاته الشيخ شمس الدين الجزري.
وفيها، توفي القاضي محيي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر. كانت
وفاته بالقاهرة في يوم الأربعاء ثالث رجب الفرد، ودفن بالقرافة، رحمه الله تعالى. وفضائله
وشهرته بالرئاسة والآداب، تغني عن شرح. وقد قدمنا من كلامه في كتابنا هذا، ما يقف
عليه في مواضعه، وله شعر رقيق.
فمن شعره قوله:

ما غبت عنك لجفوة وملالِ يوماً ولا خطر السلوّ ببالي
يا مانعي طيبَ المنام ومانحي ثوب السقام وتاركي كالال
عن من أخذت جواز منعي ريقك الم عسول يا ذا المعطف العسال

عن ثغرك النظام أم عن شعرك ال فحام أم عن جفنك الغزّالي
فأجابني أنا مالك شرع الهوى والحسنُ أضحى شافعي وجمالي
وشقائق النعمان أينع نبتها في وجنتي وحماه رشقُ نبالي
والصبر أحمد للمحبّ إذا ابتلا ه الحبُ في شرع الهوى بسؤال
وعلى أساري الحبّ في حكم الهوى بين الأنام عرفت بالقَفّال
وتفقّه العُشاق فيّ فكلَّ مَن نقل الصحيح أجزته بوصالي
وفيها، في يوم الخميس، سابع عشر شعبان، كانت وفاة قاضي القضاة معز الدين النعمان بن
الحسن بن يوسف، قاضي الحنفية بالديار المصرية، ودفن يوم الجمعة بالقرافة. وولي قضاء
الحنفية بعده، قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي.
وفيها، كانت وفاة الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر محمود، وهو عم الملك
المظفر ابن الملك المنصور صاحب حماه. وقد تقدم ذكر نسبه في مواضع من كتابنا هذا.
وتوفي بدمشق في يوم الإثنين، مستهل ذي الحجة. وصُلي عليه بجامعها، في الثالثة من النهار،
ونقل لوقته الى حماه، فدفن بها، رحمه الله. وهو والد الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل
صاحب حماه في وقتنا هذا.
وفيها، كانت وفاة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف مظفر الدين موسى
ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ابن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس، ابن الملك
الكامل ناصر الدين محمد، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، قبل
العصر من يوم الخميس، خامس شهر رجب من السنة.
ومولده بالكرك، بعد العشاء الآخرة، من ليلة الأربعاء سادس عشر شوال، سنة تسع
وخمسين وستمائة، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة
1293 - 1294
مقتل السلطان الملك الأشرف
صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور
سيف الدين قلاوون رحمهما الله تعالى
كان مقتله رحمه الله، في يوم السبت ثاني عشر المحرم، سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وذلك

أنه توجه الى الصيد بجهة البحيرة. وركب من قلعة الجبل في ثالث المحرم، وعزم على قصد
الحمامات الغربية. وتوجه الصاحب شمس الدين ابن السلعوس الى ثغر الاسكندرية،
لتحصيل الأموال، وتجهيز تعابي الأقمشة. فوجد نواب الأمير بدر الدين بيدرا بالثغر قد
استولوا على المتاجر والاستعمالات وغير ذلك. فكاتب السلطان بذلك، وعرفه أنه لم يجد
بالثغر ما يكفي الإطلاقات، على جاري العادة. فغضب السلطان لذلك غضباً شديداً،
واستدعى بيدرا بحضور الأمراء، وأغلظ له في القول، وشتمه وتوعده فتلطف بيدرا في
الجواب حتى خرج من بين يدي السلطان، وجمع أعيان الأمراء من خوشداشيته، وهم
الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريان وغيرهما، فاتفقوا على
الوثوب به. وكان السلطان قد أعطى الأمراء الأكابر دستوراً، أن يتوجهوا الى إقطاعاتهم،
وانفرد هو بخاصكيته. وفي أثناء ذلك، ركب السلطان في نفر يسير من مماليكه للصيد بقرب
الدهليز، بمنزلة تروجة. فانتهز بيدرا الفرصة، وركب وصحبته لاجين وقراسنقر وبهادر،
رأس نوبة، وأقسنقر الحسامي، ونوغيه، ومحمد خواجا، وطرنطاي الساقي، والطنذغا،
رأس نوبة، ومن انضم إليهم. وتوجهوا نحو السلطان، وكان بينهم وبينه مخاضة، فخاضوها
وقدموا عليه. فقيل إن بيدرا ضربه بالسيف، فالتقاه بيده، فلم يعمل عملاً طائلاً، فسبّه
لاجين، وضربه بالسيف ضربة هدلت كتفه، وأخذته السيوف حتى قتل، في التاريخ الذي
ذكرناه.
وحكي عن شهاب الدين أحمد بن الأشل، أمير شكار، في كيفية مقتل السلطان. قال: لما
رحل الدهليز والعسكر، جاء الخبر الى السلطان أن بنزوجة طيراً كثيراً، فساق، وأمرني أن
أسوق في خدمته، فسقت معه. وقال لي: عجّل بنا، حتى نسبق الخاصكية. فسقنا فرأينا
طيراً كثيراً، فصرع منه بالبندق. ثم التفت إليّ وقال لي: أنا جيعان، فهل معك ما آكل.
فقلت: والله ما معي غير رغيف واحد وفروج في صولقي، ادخرته لنفسي. فقال: ناولنيه،

فناولته له، فأكله جميعه. ثم قال لي: امسك فرسي، حتى أنزل أبول. وكنت كثير البسط
معه. فقلت: ما فيها حيلة، السلطان راكب حصان، وأنا راكب حِجْر، وما يتفقان. فقال
لي: انزل أنت، واركب خلفي حتى أنزل أنا.
قال: نزلت وناولته عنان فرسي، فأمسكه. وركبت خلفه. ثم نزل وقعد على عجزه وبال،
وبقي يعبث بذكره، ويمازحني. ثم قام، وركب حصانه، ومسك فرسي حتى ركبت.
فبينما أنا وهو نتحدث، وإذا بغبار عظيم قد ثار نحونا. فقال لي السلطان: اكشف لي خبر
هذا الغبار، ما هو. قال: فسقت وإذا أنا بالأمير بدر الدين بيدرا والأمراء معه. فسألتهم
عن سبب مجيئهم. فلم يكلموني ولا التفتو إليّ، وساقوا على حالهم، حتى قربوا من
السلطان، فابتدره الأمير بدر الدين بيدرا، وضربه بالسيف. فقطع يده. ثم ضربه لاجين
على كتفه فحله، وسقط على الأرض. وجاء بهادر، رأس نوبة، فوضع السيف في دبره،
وأنكأ عليه حتى أطلعه من حلقه، واشترك من ذكرنا من الأمراء في قتله.
وهذه الحكاية تدل على أن السلطان، كان قد انفرد عن مماليكه، ولم يكن معه غير شهاب
الدين أمير شكار، الحاكي وبقي الملك الأشرف ملقى في المكان، الذي قتل فيه يومين. ثم
جاء الأمير عز الدين ايدمر العجمي متولي تروجة وأهلها إليه، وحملوه إليها في تابوت.
وغسلوه في الحمام وكفنوه، وجعلوه في تابوت، ووضعوه في بيت المال، في دار الولاية بنزوجة،
الى أن حضر من القاهرة الأمير سيف الدين كوجبا الناصري. فنقله في تابوته الى تربته،
التي أنشأها بظاهر القاهرة، بجوار مشهد السيدة نفيسة، ودفن بها في سحر يوم الخميس
الثاني والعشرين من صفر، من هذه السنة. وكانت مدة سلطنته، ثلاث سنين وشهرين
وأربعة أيام.
وكان رحمه الله تعالى، ملكاً شجاعاً كريماً، خفيف الركاب، مظفراً في حروبه. ولم يخلف
ولداً ذكراً. وإنما مات عن بنتين، وزوجته أردكين أمهما ابنة الأمير سيف الدين نوكيه.
وورثه معهن أخواه السلطان الملك الناصر، ودار مختار الجوهري.

خبر الأمير بدر الدين بيدرا ومن معه من الأمراء الذين وافقوه وما كان منهم، ومقتل بيدرا

قال: ولما قتل السلطان الملك الأشرف، عاد الأمير بدر الدين بيدرا، ومن معه من الأمراء
الى الوطاق. فتقرر بينهم أن السلطنة تكون لبيدرا، ولقب الملك القاهر، وقيل الملك
الأوحد. ثم ركبوا وقبضوا على الأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين بكتمر
السلاح دار، أمير جاندار، وقصدوا قتلهما. فشفع فيهما بعض الأمراء. وكان بالدهليز
السلطاني من الأمراء: الأمير سيف الدين برلغي، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير،
والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي، وجماعة من
المماليك السلطانية. فركبوا في آثار بيدرا ومن معه. وكان الأمير زين الدين كتبغا
المنصوري في الصيد، فبلغه الخبر، فلحق بهم. وجدوا في طلب بيدرا ومن معه. فلحقوه
على الطرابة. فلما التقى الجمعان، أطلق بيدرا الأميرين اللذين كان قد قبض عليهما، ليكونا
عوناً له، فكانا عوناً عليه.

وتقدم الأمراء، وحملوا على بيدرا حملة منكرة، فانهزم هو ومن معه، فأدركوه فقتل.

وهرب لاجين وقراسنقر، فدخلا القاهرة واختفيا بها، ثم ظهرا بعد ذلك، على ما نذكره إن
شاء الله تعالى.

وحكى الأمير سيف الدين أبو بكر الجمقدار، نائب أمير جاندار.

قال: أرسلني السلطان
أول النهار، الى الأمير بدر الدين بيدرا، أن يتوجه في تلك الساعة بالعسكر، ويسوق تحت
الصناجق، فأتيته فأخبرته بما أمر به السلطان، فنفر في وجهي، وقال السمع والطاعة. ثم
قال: لم يستعجلني؟ ورأيت في وجهه أثر الغيظ والغضب، وما لم أعهده منه. ثم تركته،
وتوجهت الى الزردخاناة وحملتها، وحملت ثقلي. وتوجهت أنا ورفيقي الأمير صارم الدين
الفخري والأمير ركن الدين بيبرس أمير جاندار. فبينما نحن سائرون عند الماء، إذ نحن
بنجاب سائق، فأخبرنا بمقتل السلطان. فتحيرنا في أمرنا، وإذا بالصناجق السلطانية قد
لاحت وقربت. والأمير بدر الدين بيدرا تحتها، والأمراء محدقون به. فتقدمنا وسلمنا

عليه، فقال له الأمير ركن الدين بيبرس، أمير جاندار، ياخوند، هذا الذي فعلته كان بمشورة
الأمراء. فقال: نعم، أنا قتلته بمشورتهم وحضورهم، وها كلهم حاضرون. وكان من جملة
من معه، الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير بدر الدين
بيسري، وأكثر الأمراء سائقون معه. ثم شرع يعدد مساوئ السلطان الأشرف ومخازيه،
واستهتاره بالأمراء، ومماليك أبيه، وإهماله لأمور المسلمين، ووزارته ابن السلعوس. قال: ثم
سألنا، هل رأيتم الأمير زين الدين كتبغا؟ قلنا: لا. فقال له بعض الأمراء: ياخوند، هل كان
عنده علم من هذا الأمر الذي وقع؟ فقال: نعم، وهو أول من أشار به. فلما كان في اليوم
الثاني، إذا نحن بالأمير زين الدين كتبغا، قد جاء في طُلب كبير، فيه من المماليك السلطانية
نحو ألفي فارس، وجماعة من العسكر والحلقة، والأمير حسام الدين أستاذ الدار؛ فالتقوه
بالطرانة في يوم الأحد أول النهار، ففوّق الأمير زين الدين كتبغا نحو بيدرا سهماً، وقال له يا
بيدرا، أين السلطان. ثم رماه به، ورمى جميع من معه. فقتل بيدرا، وتفرق جمعه. وكانت
الإشارة أن أصحاب كتبغا، شدوا مناديلهم من رقابهم الى تحت أباطهم، ليعرفوا من
غيرهم. ثم حمل رأس بيدرا الى القاهرة، وطيف به. هذا ما كان من خبر مقتل بيدرا.
ولما قتل السلطان، كان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب السلطنة، بقلعة الجبل،
فاحترز على المعادي، وأمر أهلها أن لا يعدّوا بأحد من الجند من بر الجيزة الى ساحر
مصر. ثم حضر الأمراء الذين قتلوا بيدرا، وهم الأمير زين الدين كتبغا، والأمير حسام
الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير سيف الدين برلغي،
والأمراء الخاصكية، وهم الأمير سيف الدين طغجي، والأمير عز الدين طقطاي، والأمير
سيف الدين قطبية، وغيرهم من المماليك السلطانية. فراسلوا الأمير علم الدين سنجر
الشجاعي في طلب المعادي، فأرسلها إليهم، فعدوا بجملتهم، وطلعوا الى القلعة. واجتمعوا
واتفقوا كلهم مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، على أن تكون السلطنة، للسلطان

ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور. فنصبوه في السلطنة، وكان ما نذكره.
الملك الناصر ناصر الدين محمد
ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي
وهو التاسع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية. وأمه أشلون خانون ابنة سكناي بن
قراجين بن جنكاي نوين، ملك الديار المصرية والممالك الشامية والساحلية والحلبية
والفراتية، وغير ذلك مما هو مضاف الى هذه الممالك من القلاع والحصون والثغور
والأعمال.
وجلس على تخت السلطنة بالديار المصرية، بقلعة الجبل، بعد مقتل أخيه، السلطان الملك
الأشرف، صلاح الدين خليل، وذلك في رابع عشر المحرم، سنة ثلاث وتسعين وستمائة،
وعمره يومذاك تسع سنين سواء، فإن مولده في يوم السبت، خامس عشر المحرم، سنة أربع
وثمانين وستمائة كما تقدم، وذلك باتفاق الأمراء المنصورية، ومن بقي من الأمراء الصالحية
النجمية وغيرهم، وإجماعهم على سلطنته.
واستقر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، نائب السلطنة الشريفة، والأمير علم
الدين سنجر الشجاعي وزير الدولة ومدبّرها، والأمير ركن الدين بيبرس المنصوري
الدوادار، وأعطي إمرة مائة فارس وتقدمة ألف. وجعل إليه أمر ديوان الإنشاء في المكاتبات
والأجوبة والبريد. وحصلت النفقة في العساكر، واستُحلفوا للسلطان الملك الناصر، فحلفوا
بأجمعهم.
هذا ما كان بالديار المصرية ومقر السلطنة.
وأما الشام، فإنه كُتب عن السلطان الملك الأشرف كتاب الى نائب السلطنة بدمشق،
وجهز مع الأمير سيف الدين ساطلمش، وسيف الدين بهادر التتاري. فوصلا به الى
دمشق، في يوم الجمعة رابع عشرين المحرم من هذه السنة.
ومضمونه: إنا قد استنبنا أخانا،
الملك الناصر، ناصر الدين محمداً، وجعلناه ولي عهدنا، حتى إذا توجهنا الى لقاء عدو،
يكون لنا من يخلفنا. ورسم فيه، أن يحلف الناس له، ويقرن اسمه باسم السلطان في

الحطبة. فجمع نائب السلطنة الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري الأمراء والمقدمين
والقضاة والأعيان، وحلفوا على ذلك. وخطب له في يوم الجمعة هذا بولاية العهد، بعد
الملك الأشرف. وكان ذلك بتدبير الأمير علم الدين الشجاعي. واستمر الحال على ذلك،
والخطبة للملك الأشرف، ثم من بعده لأخيه الملك الناصر، بولاية العهد، الى حادي عشر
شهر ربيع الأول فورد المثال السلطاني الناصري بالخطبة له استقلالاً بالسلطنة. فخطب له
في دمشق، في يوم الجمعة الحادي عشر، من الشهر المذكور. وورد البريد الى الشام، بإيقاع
الحوطة على موجود الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير بدر
الدين بيدرا وغيرهم من الأمراء أصحاب بيدرا في اليوم الثامن من ورود المرسوم الأول
بالخطبة للسلطان بولاية العهد، فوقعت الحوطة على موجودهم وحواصلهم.
خبر الأمراء الذين وافقوا بيدرا على قتل السلطان الملك الأشرف
لما استقر الحال في سلطنة السلطان الملك الناصر، أمر بطلب الأمراء الذين وافقوا بيدرا
على قتل أخيه الملك الأشرف. فأول من وجد منهم، الأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة،
والأمير جمال الدين آقش الموصلي الحاجب، فضربت رقبتاهما وأحرقت جثتاهما بالمجاير،
ثم حصل الظفر بعدهما بسبعة من الأمراء وهم: طرنطاي الساقي، وسيف الدين الناق
الساقي الحسامي ويقال له عناق السلاح دار، وسيف الدين أروس الحسامي السلاح دار،
وشمس الدين أقسنقر الحسامي، وعلاء الدين الطنبغا الجمدار، وناصر الدين محمد خواجا،
فاعتقلوا بخزانة البنود. وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، يتوجه إليهم ويعاقبهم،
ويقررهم على من باطنهم. واستمر ذلك الى يوم الإثنين خامس صفر. ثم قطعت أيديهم
وأرجلهم، وسمروا على الجمال، وطيف بهم، وأيديهم في أعناقهم، وماتوا شر ميتة. ثم
وجدوا بعد قجقر الساقي، فشنق في سنق الخيل. وأما الأمير حسام الدين لاجين، والأمير
شمس الدين قراسنقر، فإنهما هربا واختفيا. وكان من أمرهما، ما نذكره إن شاء الله

تعالى. هذا ما كان من أمر هؤلاء.
أخبار الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس الوزير
وما كان من أمره، منذ فارق السلطان الأشرف الى أن مات
كان الصاحب شمس الدين المذكور، قد توجه الى ثغر
الاسكندرية كما ذكرنا، وطالع
السلطان في حق الأمير بدر الدين بيدرا، بما أوجب هذه الفتنة
العظيمة. ولما وصل
الصاحب الى الاسكندرية، ضيق على أهل الثغر، وشدد عليهم
الطلب. وعزم على
مصادرة أعيانهم، وذوي الأموال منهم. وأمر بإيجاد مقارع
لعقوبة أهل الثغر. فبقي الناس
من ذلك في شدة عظيمة، لا يرجون خلاصاً إلا ببذل الأموال
والأبشار؛ وأهان متولي الثغر.
فبينما الناس على مثل ذلك، إذ وقعت بطاقة لمتولي الثغر، في
عشية النهار، تتضمن خبر
مقتل السلطان. فكتمها المتولي عن الصاحب وغيره، وصبر
الى أن دخل الليل، وجاء الى
باب الصاحب، واستأذن عليه، فأذن له. فوقف بين يديه على
عادته. فقال له الصاحب:
ما الذي جاء بك في هذا الوقت، هل ظهرت لك مصلحة يعود
نفعها؟ فقال: يا مولانا، لم
يخف عن علمك أن أهل هذا الثغر غزاة مرابطون، وما قصد أحد
أذاهم، فتم له مقصوده،
والذين يراه المملوك، أن يحسن مولانا إليهم، ويطيب
خواطرهم، ويفرج عنهم - هذا اللفظ
أو معناه - فسبه الصاحب أقبح سب. وهم أن يوقع به، والوالي لا
يزيده أن يقول: مولانا
يروض نفسه، فلا فائدة في هذا الحرج. والصاحب يزيد في سبه،
والإغلاظ له، ويتعجب من
إقدامه على مخاطبته بمثل هذه الألفاظ. فلما أفرط الصاحب
في سبه، وزاد به الحرج،
تقدم إليه بالبطاقة. وقال يقف مولانا على هذه. فلما قرأها،
سقط في يده، وخاطبه
بياخوند. فقال له المتولي: ما الذي تختار. فقال: الخروج من
هذه الساعة. فلم يؤاخذه
المتولي، بما صدر منه في حقه وفتح له باب المدينة، وأخرجه
وعرض عليه أن يجهز معه من
يوصله القاهرة فامتنع. وخرج من الثغر في ليلته. ولو أصبح به
لقتله أهله. واستمر به
السير الى أن وصل القاهرة ليلاً. فبات بزاوية الشيخ جمال
الدين ابن الظاهري، ولم ينم في

معظم الليل. وركب بكرة النهار من الزاوية، وجاء الى داره، وهو على هاله وهيئته.
وحضر للسلام عليه القضاة وأعيان الدولة ونظارها. فعاملهم بما كان يعاملهم به من الكبر،
وعدم القيام لأكابرهم. ثم استشار بعض الناس فيما يفعل، فأشار بعضهم عليه بالاختفاء
الى أن تسكن هذه الفتنة، وتستقر القاعدة. فقال هذا لا نفعله ولا نرضاه لعامل من
عمالنا. فكيف نختاره لأنفسنا، واستمر على ذلك خمسة أيام.
وكانت رسالة دور السلطان الملك الأشرف قد خرجت الى الأمير زين الدين كتبغا،
مضمونها الشفاعة في أمره، وأنه لا يؤذى. وذكروه بمحبة السلطان له. وأنهم إنما قاموا في
طلب ثأر السلطان، وقتل أعدائه. وأما هذا فهو أخلص أولياء السلطان بخدمته، وأدومهم
على طاعته - هذا للفظ أو معناه؟"، فسكن أمره في هذه الأيام الخمسة الماضية.
فغضب الأمير علم الدين الشجاعي، واجتمع بالأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وغيره
من أكابر الأمراء. وقال: هذا الصاحب هو الذي أوقع بين السلطان ومماليكه وأمرائه
ونائبه. وإنما قُتل السلطان بسبب هذا، فاتبع رأيه فيه.
فلما كان في اليوم السادس، وهو اليوم الثاني والعشرين من المحرم، طلع الصاحب شمس
الدين بن السلعوس الى قلعة الجبل، فحضر الى الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة، فسلّمه
للأمير علم الدين الشجاعي، فسلمه الشجاعي للأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري، وكان
من أعدائه، ليطالبه بالأموال فضربه ضرباً شديدً. فأنكر عليه الأمير علم الدين. ثم سيّره
الى الأمير بدر الدين المسعودي، شاد الدواوين، وهو نشو ابن السلعوس. فإنه كان قد
طلب من دمشق للمصادرة، لما قتل مخدومه الأمير حسام الدين طرنطاي، وكان يتولى ديوانه
بالشام. فأحسن الصاحب إليه، وأفرج عنه، وولاه شد الدواوين بالديار المصرية. فلما
سلّم إليه، عاقبه واستصفى أمواله. وكان يجلس لمصادرته وعقوبته في المدرسة الصاحبية
التي بسويقة الصاحب بالقاهرة. ولم يزل يعاقبه الى أن مات تحت الضرب، وقيل إنه ضرب
بعد موته، ثلاثة عشر مقرعة، ولم يعلم أنه مات. وكانت وفاته في يوم السبت عاشر صفر

سنة ثلاث وتسعين وستمائة، ودفن بالقرافة.
الخلف الواقع بين الأميرين علم الدين سنجر الشجاعي
وزين الدين كتبغا، ومقتل الشجاعي
كان الأمير علم الدين الشجاعي قد استمر في الوزارة وتدبير
الدولة، وأحكم أمرها، وهابه
الناس. فلما كان في يوم الخميس، ثاني عشرين صفر، من هذه
السنة، اجتمع الأمراء
بمساطب باب القلعة على العادة، ينتظرون فتح باب القلعة،
ليركبوا في خدمة الأمير زين
الدين كتبغا، نائب السلطنة. فلم يشعروا إلا وقد خرجت رسالة
على لسان الأمير جاندار،
يطلب جماعة من الأمراء، وهم سيف الدين قبجاق، وبدر الدين
عبد الله السلاح دار،
وسيف الدين قبلاي، وركن الدين عمر السلاح دار أخو تمر،
وسيف الدين كرجي، وسيف
الدين طرقجي، فدخلوا الى الخدمة السلطانية. وقام الأمراء
للركوب، فبينما هم يسيرون
تحت القلعة، بالميدان الأسود، جاء إثنان من ألزام الأمير علم
الدين الشجاعي، وهما الأمير
سيف الدين قنغر، وولده حاروشي. فأخبرا الأمير زين الدين
كتبغا أن الأمراء الذين
استدعوا اعتقلوا، وأن الشجاعي قد دبّر الحيلة عليك وعلى
الأمراء، إذا طلعتم الى
القلعة، ودخلتم الى الخوان أن يقبض عليكم. فعرّف كتبغا
الأمراء الذين معه في المواكب
الصورة. فتوقفوا عن الطلوع الى القلعة، وتوهموا أن
الشجاعي اتفق مع الأمراء المنصورية
والأمراء البرجية، والمماليك السلطانية. وكان بالموكب الأمير
ركن الدين بيبرس الجاشنكير
أستاذ الدار، والأمير سيف الدين برلغي، أمي مجلس،
فأمسكوهما في الموكب، وأرسلوهما
الى ثغر الاسكندرية.
وأخبرني الأمير ركن الدين بيبرس، في ليلة الثامن من شوال
سنة سبع وسبعمائة، أنه ضرب
على رأسه بدبوس، وأراني أثر الضربة.
وكان قد ذكر لي ذلك، في أثناء ذكره لسالف خدمة السلطان،
وما لقيه وقاساه.
ولما مسكا، حصلت مفاوضة بين الأمير علم الدين سنجر
البندقداري، وبين الأمير زين
الدين كتبغا. فقال البندقداري له: ابن لاجين، أحضره. فقال: ما
هو عندي. فقال: بل هو

عندك. فجرد البندقداري سيفه ليضرب به كتبغا، فضربه بدر الدين بكتوت الأزرق،
مملوك كتبغا بسيفه، حل كتفه ثم ألقوه عن فرسه، وذبح بسوق الخيل.
وتوجه الأمير زين الدين كتبغا ومن معه من الأمراء، الى الباب المحروق وخرجوا منه ونزلوا
بظاهر السور، وأمروا مماليكهم وألزامهم وأجنادهم أن يلبسوا عددهم. وأرسل الأمير زين
الدين كتبغا نقباء الحلقة، وطلب المقدمين فحضروا إليه، وراسل السلطان الملك الناصر، في
طلب الأمير علم الدين الشجاعي. وقال إن هذا قد انفرد برأيه في القب ضعلى الأمراء.
وبلغنا عنه ما أنكرناه، ونختار حضوره ليحاقق عما نقل عنه. فامتنع عن الحضور. ثم طلع
السلطان على البرج الأحمر، وتراءى للأمراء، فنزلوا وقبلوا الأرض من مواقفهم. وقالوا نحن
مماليك السلطان، ولم نخلع يداً عن طاعة، وليس قصدنا إلا حفظ نظام الدولة، واتفاق
الكلمة، وإزالة أسباب المضار والفساد عن المملكة. واستمر الحصار سبعة أيام، وكان
الشجاعي ينزل إليهم، ويناوشهم القتال، ومعه طائفة من الأمراء وهم: الأمير سيف الدين
بكتمر، السلاح دار، وسيف الدين طفجي، وجماعة من المماليك السلطانية. ثم فارقه
الأمراء والمماليك، فكانوا يتسللون عشرة عشرة. فلما رأى حاله انتهت الى هذه الغاية، قال
إن كنت أنا الغريم، فأنا أتوجه الى الحبس طوعاً مني، وأبرأ الى الأمراء مما نقل إليهم عني.
وحضر الى باب الستارة السلطانية، وحلّ سيفه بيده، وذهب نحو البرج. وتوجه معه الأمير
سيف الدين الأقوش، والأمير سيف الدين صمغار، ليحبساه بالبرج الجواني. فوثب عليه
مملوك الأقوش، فقتله وحز رأسه. وأنزلوه الى الأمير زين الدين كتبغا، وقد لُفّ في بقجة.
فأمر بأن يطاف برأسه القاهرة ومصر، وظواهرهما. فطاف به المشاعلية على رمح،
وأشهروا قتله. ثم طلع الأمير زين الدين كتبغا والأمراء الى القلعة، في يوم الثلاثاء سابع
عشرين صفر، وأفرج عن الأمراء الذين اعتقلوا، وجددت الأيمان، وأنزل من كان بالأبراج
والطباق، من المماليك السلطانية، الذين اتهموا بهذه الفتنة. فأسكنت طائفة منهم في مناظر

الكبش، وطائفة في دار الوزارة، وطائفة في الميدان الصالحي والميدان الظهري. واعتقل منهم
جماعة. وكان من خبرهم، بعد ذلك، ما نذكره في سنة أربع وتسعين وستمائة.
عدة حوادث كانت في سنة ثلاث وتسعين وستمائة
خلاف ما قدمناه من ولاية وعزل وغير ذلك، والوفيات
في هذه السنة، في تاسع عشر صفر، عزل قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة
الشافعي عن القضاء بالديار المصرية. وأعيد قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن ابن
بنت الأعز الى القضاء. واستقر قاضي القضاة بدر الدين في تدريس مدرسة الشافعي
ومشهد الحسين. فلم يزل كذلك، الى أن توفي قاضي القضاة، شهاب الدين محمد بن أحمد
بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخويي قاضي القضاة الشافعي بدمشق. وكانت وفاته
بدمشق في يوم الخميس، خامس عشر شهر رمضان من هذه السنة. ومولده في رابع
عشرين شوال، سنة ست وعشرين وستمائة، وقيل في رجب من السنة. ففوض الملك
الناصر محمد بن قلاوون القضاء بعد وفاته لقاضي القضاة، بدر الدين بن جماعة، فتوجه
الى الشام. وكان وصوله الى دمشق في رابع عشر ذي الحجة من السنة.
وفيها، في تاسع عشرين صفر فوضت الوزارة للصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن
الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي، المعروف بابن حنا.
وفوضت وزارة الصحبة، لابن عمه الصاحب عز الدين ابن الصاحب محيي الدين ابن
الصاحب بهاء الدين، وكانا يجلسان جميعاً في شباك الوزارة، وبوقع الصاحب تاج الدين.
وفيها، في سلخ صفر. أفرج عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي. وكان الملك
الأشرف قد اعتقله، في يوم السبت ثاني شوال، سنة اثنتين وتسعين وستمائة.
وفيها، في يوم عيد الفطر، ظهر الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر
المنصوريان، من الاستتار، وكانا عند هربهما، أطلعا الأمير سيف الدين بتخاص الزيني،
مملوك كتبغا على حالهما. فأعلم أستاذه بهما، وتلطف في أمرهما. فتحدث الأمير زين

الدين كتبغا مع السلطان، فعفا عنهما، وأمّرهما كما كانا أول مرة. وتلطف كتبغا في إظهار
لاجين تلطفاً حسناً. وهو أنه تحدث مع الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح في
إحضاره. فركب معه، ووقف تحت قلعة الجبل، ولم يزل الى أن أذن له، وأصلح بينه وبين
الأمراء والمماليك السلطانية، وزال ما بينهم من الوحشة. وكان كتبغا في أمر لاجين،
كالباحث عن حتفه بظلفه. فإنه فعل معه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وفي هذه السنة، قصر النيل فلم يوف، وانتهت زيادته الى خمسة عشر ذراعاً، وثلث ذراع.
فارتفعت بسبب ذلك الأسعار. وكان من الغلاء ما نذكره بعد.
وفي هذه السنة، في رابع عشرين ربيع الأول، كانت وفاة الملك شهاب الدين غازي ابن
الملك المعز مجير الدين يعقوب ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن
أيوب، بداره بالخور بدمشق، ودفن بتربتهم بقاسيون، رحمهم الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان الأسعردي. وقد قدمنا ذكر
وزارته مرة بعد أخرى. وكان إذ عزل عن الوزارة، أخذ دواته وعاد الى ديوان الإنشاء،
وكتب من جملة الكتاب. وأصله من المعدن، من أعمال أسعرد.
فلما فتح الملك الكامل آمد، كان ابن لقمان يكتب على عرصة الغلة، وينوب عن ناظر
البيوت بها. وكان بهاء الدين زهير، صاحب ديوان الإنشاء للملك الكامل، وبعده للملك
الصالح، وهو يومئذ وزير الصحبة. فكانوا يستدعون من صاحب أسعرد أصنافاً، فتأتي
الرسائل بالأصناف بخط ابن لقمان، فتعرض على بهاء الدين زهير، فيعجبه خطه
وعبارته. فطلبه فحضر الى خدمته، وتحدث معه، فعرض عليه أن يسافر صحبته الى الديار
المصرية، فأجاب الى ذلك.
وسر به، فاستصحبه معه، وناب عنه بديوان الإنشاء الى الأيام الصالحية. ثم استقل بعد
ذلك بصحابة ديوان الإنشاء، ووزر كما تقدم. ولما انفصل من الوزارة قال: جاءت فما
كثّرت، وراحت فما أثّرت. وله نظم حسن، وقد قدمنا ذكر شيء من كلامه، رحمه الله
تعالى.

وفيها، في يوم الخميس، منتصف جمادى الآخرة، توفي الأمير بدر الدين بكتوت العلائي،
وكانت وفاته بالقاهرة. وقد عظم شأنه، وسمت همته، حتى تعرض لطلب بعض الأكابر
الأمراء الخاصكية الأشرفية، مقدمي الألوف. فيقال إنه سقي سماً فمات، سامحه الله
تعالى.
وفيها، في يوم الخميس، خامس شعبان، توفي الملك الحافظ غياث الدين أبو عبد الله محمد
ابن الملك السعيد معين الدين بن شاهانشاه ابن الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فروخ
شاه بن شاهانشاه بن أيوب، وصُلي عليه بعد صلاة الجمعة بجامع دمشق، ودفن بتربة ابن
المقدم، بمقبرة باب الفراديس، رحمه الله.
واستهلت سنة أربع وتسعين وستمائة
1294 - 1295
فتنة المماليك
لما كان في ليلة العاشر من المحرم، من هذه السنة، تجمعت المماليك السلطانية، الذين في
الكبش، ومناظر الموادين، وحرقوا باب السعادة، ودخلوا منه الى المدينة. وطلبوا
خوشداشيتهم المعتقلين بها، الذين بدار الوزارة، للركوب معهم، فما أجابوهم لذلك.
فكسروا خزانة البنود، وأخرجوا من كان بها من خوشداشيتهم، ونهبوا الاسطبلات التي
تحت القلعة. وركبوا الخيول، وداروا عليها تحت القلعة، من جهة سوق الخيل، طول الليل.
فلما كان من الغد، ركب الأمراء الذين في القلعة وقصدوهم، وتصافّوا واقتتلوا يسيراً. ثم
جاء الأمير سيف الدين الحاج بهادر، السلاح دار، الحلبي، وهو يومئذ أمير حاجب، فهزمهم
فتفرقوا في ضواحي القاهرة وشوارعها، فأُخذوا وجيء بهم. وجلس الأمير زين الدين
كتبغا بباب القلعة، وضربت رقاب بعضهم بين يديه، وفرق بعضهم على الأمراء، وغرّق
بعضهم سراً. وكانت هذه الحادثة سبباً لحركة الأمير زين الدين وركوبه في السلطنة.
سلطنة السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري وهو العاشر من ملوك دولة الترك بالديار المصرية
كان جلوسه على تخت السلطنة في يوم الأربعاء، حادي عشر المحرم سنة أربع وتسعين

وستمائة. وكان سبب ذلك، أنه لما ملك السلطان الملك الناصر، واستقر هو في نيابة
السلطنة كما تقدم، شرع يمهد القواعد لنفسه في مدة نيابته، ويقرر الأحوال، ويستميل
الأمراء. فلما كان في أول هذه السنة، انقطع في دار النيابة، بقلعة الجبل، وادّعى الضعف.
وإنما كان انقطاعه لتقرير أمر السلطنة له. وركب السلطان الملك الناصر، وجا الى دار
النيابة للسلام عليه وعيادته فلما اتفقت فتنة المماليك المتقدمة، جلس الأمير زين الدين
كتبغا في اليوم الثاني منها، بدار النيابة. وجمع الأمراء، وذكر لهم أن ناموس السلطنة،
وحرمة المملكة، لا يتم لصغر سن السلطان الملك الناصر. فاجتمعت آراء الأمراء على
إقامة الأمير زين الدين كتبغا في السلطنة. وحلفوا له، وقُدم له فرس النوبة بالرقبة الملوكية،
وعليها ألقابه. وركب من دار النيابة، قبل أذان العصر، من هذا اليوم. ودخل من باب
القلة الى الأدر السلطانية، والأمراء مشاة في خدمته. ودخل على تخت السلطنة، وتقلب
بالملك العادل. وحجب السلطان الملك الناصر، وجعله في بعض القاعات هو وأمه.
وعامله بما لا يليق أن يعامله به. فكانت مدة سلطنة الملك الناصر هذه - وهي السلطنة
الأولى - سنة واحدة إلا ثلاثة أيام. ولم يكن له في هذه المدة من الأمر شيء. وإنما جرى
عليه أمر السلطنة، وخطب باسمه على المنابر، وضربت السكة باسمه. وأما غير ذلك من
الأمر والنهي، والولاية والعزل، والإطلاق والمنع، والتأمير وإعطاء الإقطاعات، وغير ذلك من
الأوامر، فللأمير زين الدين كتبغا النائب، الملقب الآن بالملك العادل.
وفي يوم الخميس ثاني عشر المحرم، مد الملك العادل زين الدين كتبغا سماطاً عظيماً، وجلس
على عادة الملوك. ودخل الأمراء إليه، وقبلوا يده، وهنوه بالسلطنة وخلع على الأمير
حسام الدين لاجين المنصوري، وفوض إليه نيابة السلطنة، وجعل الأمير عز الدين أيبك
الأفرم الصالحي، أمير جاندار، والأمير يسف الدين الحاج بهادر الحلبي، أمير حاجب. وأمر
أن تُجهّز الخلع لسائر الأمراء والمقدمين، وللوزيرين الصاحب تاج الدين وابن عمه عز الدين،

وقضاة القضاة وأرباب المناصب، ومن جرت عادتهم بالخلع، والمماليك السلطانية الذين
كانوا بدار الوزارة، كونهم لم يوافقوا خوشداشيتهم، على إقامة الفتنة.
وركب الناس بالتشاريف، في يوم الخميس، تاسع عشر المحرم. ولما جلس على تخت
السلطنة، كتب الى نائب السلطنة بدمشق، وسائر النواب بالممالك الشامية والأعمال،
يخبرهم بخبر سلطنته، ويطلب منهم بذل اليمين. وكل أجاب بالسمع والطاعة، وبادر الى
الحلف، وما اختلف عليه إثنان.
ومن غريب ما حكي في أمر الملك العادل هذا، أن هولاكو لما استولى على حلب، وملك
الشام أجمع، كما تقدم، وعزم على تجريد العساكر الى الديار المصرية، أحضر نصير الدين
الطوسي، وقال له: تكتب أسماء مقدمي عساكري، وتنظر أيهم يملك مصر، ويجلس على
تخت السلطنة بها. فكتب أسماءهم، وحسب ودقق النظر، فما ظهر له، أنه يملك الديار
المصرية إلا كتبغا، فذكر ذلك لهولاكو. وكان كتبغا نوين صهر هولاكو، فقدّمه على العساكر
وسيره، فقتل في وقعة عين جالوت، كما تقدم. وكان كتبغا هذا، في عسكر كتبغا نوين،
فسبي وهو شاب. ولعله كان في سن بلوغ الحلم أو نحوه. وأخّر الله السلطنة بالديار
المصرية لهذا الاسم. وكان بين الحادثين ست وثلاثون سنة.
ولما ملك كتبغا، شرع في تأمير مماليكه وتقدمتهم. فكان أول من أمر منهم أربعة، وهم
سيف الدين بتخاص، وجعله أستاذ الدار، وسيف الدين أغرلو وبدر الدين بكتوت الأزرق،
وسيف الدين قطلوبك. وركب هؤلاء بالإمرة في يوم واحد. وركب هو بشعار السلطنة
على عادة الملوك في يوم الأربعاء، مستهل شهر ربيع الأول.
وأقر نواب السلطنة على حالهم
في الأيام الناصرية وفوض الوزارة بدمشق للصاحب تقي الدين توبة التكريتي على عادته، في
الأيام المنصورية. وكان وصوله الى دمشق، لمباشرة هذه الوظيفة، في سادس عشر صفر.
وكتب السلطان له توقيعاً، برد ما أخذ منه، في الدولة الأشرفية.
تفويض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر بن الخليل
وفي يوم الثلاثاء، خامس عشرين جمادى الأولى من هذه السنة، عزل السلطان الصاحب

تاج الدين، وفوض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن
الخليلي. وكان هذا الصاحب فخر الدين قد ولي نظر ديوان الملك الصالح علاء الدين علي
ابن السلطان الملك المنصور. فلما مرض واشتد به الوجع، دخل الصاحب فخر الدين عليه
وبكى، وأظهر الألم الشديد وقال أخشى إن قدر الله تعالى أمراً محتوماً، والعياذ بالله، أن
أوذي، ويتمكن مني الأمير علم الدين الشجاعي. وطلب الملك الصالح والده السلطان الملك
المنصور وأوصاه أن لا يتعرض إليه. ولا الى أحد من ديوانه بأذية، وأن لا يمكن الأمير علم
الدين الشجاعي منهم. فلما مات الملك الصالح، أحسن السلطان المنصور إليه، وولاه نظر
النظار بالديار المصرية، ونظر الصحبة، ثم عزل في الدولة الأشرفية. وباشر نظر ديوان الملك
العادل، في مدة نيابته عن السلطنة، وفوض إليه نظر الدواوين، ثم الوزارة.
وفي هذه السنة، قصر النيل ولم يوف، فحصل الغلاء واشتد البلاء بالديار المصرية. وتوقف
الغيث بالشام، فاستسقى الناس، مرة بعد أخرى، وأجدبت برقة وأعمالها، وبلاد المغرب
ونواحيها. وعمّ الغلاء أكثر البلاد والممالك، شرقاً وغرباً وحجازاً. واختصت مصر من
ذلك البلاء العظيم. وبلغ سعر القمح عن كل أردب مائة درهم وخمسين درهماً، والشعير
مائة درهم. واستمر الى سنة خمس وتسعين وستمائة.
وفيها، فوض السلطان قضاء العساكر بالشام، للقاضي نجم الدين محمد بن صصري وكان
بالديار المصرية. فعاد الى دمشق متولياً هذه الوظيفة، وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء
سادس عشرين شهر رمضان.
وفيها، فوض السلطان الملك العادل، الخطابة والإمامة، بالجامع الأموي بدمشق، لقاضي
القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، مضافاً الى ما بيده من القضاء والتدريس. فصلى
بالناس صلاة الظهر، من يوم الخميس الخامس من شوال، وخطب يوم الجمعة السادس من
الشهر، واجتمع له القضاء والخطابة، ولم يجتمع ذلك لقاضي قبله بدمشق، فيما عرفناه، ونقل
إلينا.

القبض على الأمير عز الدين أيبك الخازندار نائب السلطنة بالفتوحات
وولاية الأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري
وفي هذه السنة، رسم السلطان الملك العادل، بالقبض على خوشداشه، الأمير عز الدين
أيبك الخزندار المنصوري، نائب السلطنة، بالفتوحات الطرابلسية. وندب لذلك أميرين،
فتوجها الى دمشق على خيل البريد، فوصلا إليها، في تاسع عشرين شوال. وجرد من
دمشق الأمير عز الدين أيبك كرجي، والأمير سيف الدين استدمر كرجي بسبب ذلك.
فلما توجهوا إليه، لم يمتنع عليهم، وقال: قد كنت عزمت على مفارقة هذه المملكة.
والتوجه الى باب السلطان، فقبض عليه. وكان وصوله الى الأبواب السلطانية، في يوم
الخميس حادي عشرين ذي القعدة من السنة، فاعتقل. واستمر في الاعتقال، الى يوم
الخميس رابع عشرين صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ولما قبض عليه، فوضت نيابة
السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات، للأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري.
وفيها أيضاص، رسم بالحوطة على القاضي مجد الدين يوسف بن القباقبي ناظر المملكة
الطرابلسية. وندب الأمير شمس الدين الأعسر لذلك. فتوجه الى طرابلس، في العشر
الأوسط من شوال، وأوقع الحوطة على موجوده. فيقال إنه وجد في جشاره، ما ينيف
على سبعين رأس بغالاً وأكاديش جياد. وجهز الى الديار المصرية، فتكمل حمله، فيما
ادعاه ألف ألف درهم. ثم أعيد بعد ذلك الى نظر المملكة الطرابلسية، وكأنه لم يصادر.
فبلغني أنه جلس ليلة، وهو يضحك مع أصحابه بطرابلس. فقال له بعضهم: أخذ منك
ألف ألف درهم، وأنت تضحك. فقال: والله أقدر أنفق في جيش مصر - وأرى أن هذا
الكلام، إن كان قاله، فهو من التغالي في القول - والله أعلم.
وفاة الملك المظفر يوسف بن عمر صاحب اليمن
وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك المظفر شمس الدين أبي المظفر يوسف ابن الملك
المنصوري نور الدين عمر بن علي بن رسول، صاحب اليمن، في شهر رمضان، بقلعة تعز.

وكان جواداً شهماً، عفيفاً عن أموال الرعايا، قليل التطلع الى ما بأيديهم، حسن السيرة
فيهم، يمنع أصحابه من التطرق الى ظلم أحد. وكانت مدة ملكه، بالبلاد اليمانية، نحو
خمس وأربعين سنة.
وكان للملك المظفر من الأولاد خمسة، وهم الملك الأشرف ممهد الدين عمر، والملك المؤيد
هزبر الدين داود، والواثق ابراهيم، والملك المسعود تاج الدين حسن، والملك المنصور زين
الدين أيوب. وللملك المسعود هذا ولد اسمه أسد الإسلام محمد. وللملك المنصور ولد
اسمه مأمور الدين عيسى. ولما مات الملك المظفر هذا، ملك بعده ولده الملك الأشرف
ممهد الدين عمر، وهو ولي عهده. فلما ملك نازعه أخوه الملك المؤيد هزبر الدين داود في
الملك. وكان المؤيد يوم ذاك ببلاد الشحر، فجمع جمعاً من الجحافل، وتوجه الى ثغر عدن،
وحاصر الثغر ثلاثة عشر يوماً. وكان متوليه الأمير سيف الدين بن برطاس، فملك المؤيد
الثغر، واستولى على ما به. فاقترض أموال التجار وأموال الأيتام التي بمودع الحكم. وتوجه
من ثغر عدن نحو تعز. فجرد الملك الأشرف لقتاله الشريف علي بن عبد الله، بجماعة من
الجيش، وولده جلال الدين بن الأشرف. فتوجهوا والتقوا، فيما بين تعز وعدن، بمكان
يسمى الدعيس. واقتتلوا فخذل الجحافل المؤيد، وتفرقوا عنه، وبقي في نفر يسير. فتقدم
إليه جلال الدين ابن أخيه، وأشار عليه بالدخول في الطاعة، وحذر عاقبة المخالفة. وقال
له: الملك الأشرف أخوك، ولا يقتلك، وأنت بينك وبين الأشراف حرب قبل هذا الوقت،
فإن ظفروا بك قتلوك. وأشار عليه بعض أصحابه بمثل ذلك، فرجع الى قولهم، ورجع الى
الطاعة. فأراد جلال الدين أن يتوجه به الى والده الملك الأشرف على حاله. فامتنع عليه
الشريف علي بن عبد الله، وقال: إن أمر هذا الجيش إلي. وقيّد المؤيد، وحمله الى قلعة
تعز، فاعتقله بها الى أن مات الملك الأشرف. وكانت وفاته في سنة ست وتسعين
وستمائة. فأخرج من الاعتقال ليلاً، قبل دفن أخيه، فأمر بدفنه. وأصبح الحراس بالقلعة،

فدعوا للملك المؤيد، وترحّموا على الملك الأشرف. وكان مُلك المؤيد باتفاق عمته
الشمسية، وقيامها في أمره. واستمر في الملك الى أن مات، في سنة إحدى وعشرين
وسبعمائة، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى. في موضعه.
وفيها، في يوم السبت، رابع شهر ربيع الأول، توفي الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي
بدمشق، ودفن بمقابر باب الصغير.
وفيها، كانت وفاة الصاحب عز الدين ابن الصاحب محيي الدين أحمد ابن الصاحب الوزير
بهاء الدين علي بن محمد، رحمهم الله تعالى.
وفيها، في شهر رجب توفي بالقاهرة، الأمير بدر الدين بكتوت الفارسي الأتابكي، رحمه الله
تعالى.
وفيها، في وقت السحر، من يوم السبت عاشر شعبان، توفيت ملكة خاتون، ابنة الملك
الأشرف موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وهي زوجة الملك
المنصور ابن الملك الصالح اسماعيل وأم ولديه. وهي التي كان ناصر الدين بن المقدسي
أثبت سفهها في الدولة المنصورية، واستعاد أملاكها من سيف الدين المسامري وغيره، كما
تقدم ذكر ذلك، رحمهما الله تعالى.
واستهلت سنة خمس وتسعين وستمائة
1295 - 1296
في هذه السنة، اشتد الغلاء بالديار المصرية، وكثر الوباء وانتهى سعر القمح الى مائة درهم
وسبعة وستين درهماً، عن كل أردب، وقيل إنه بلغ مائة وثمانين. وأعقب ذلك وباء عظيم.
وغلت الأسعار في سائر الأصناف. وبلغ ثمن الفرج عشرين درهماً. وسمعت أن بعض
الناس اشترى فراريج لمريض عنده، فوزن لحمها، فكان بوزن الدراهم التي اشتراه بها. فتقوّم
عليه لحم الفراريج، الدرهم بدرهم فضة. وبيعت البطيخة، الرطل بأربعة دراهم نقرة.
وأبيعت السفرجلة، بثلاثين درهماً، هذا بالقاهرة ومصر. وأما الصعيد الأعلى، وهو عمل
قوص وما يجاوره، فإن القمح لم يزد ثمنه، على خمسة وتسعين درهماً الأردب. وأعقب هذا
الغلاء بالقاهرة فناء عظيم. كان يحصر من يخرج من باب المدينة من الأموات في اليوم

الواحد، فيزيد على سبعمائة أو نحوها، هذا من داخل المدينة، من أحد الأبواب. والقاهرة
بالنسبة الى ظواهرها، كالشارع الأعظم، والحسينية والأحكار، جزء لطيف. وعجز
الناس عن دفن الأموات أفراداً، فكانوا يحفرون الحفرة الكبيرة، ويرصّ فيها الأموات، من
الرجال والنساء، ويُجعل الأطفال بين أرجلهم، ويردم عليهم. وبعض الأموات لم يجدوا من
يواريهم في قبورهم، فأكلتهم الكلاب، وأكل الأحياءُ الكلاب. وكان الفناء أيضاً بالأعمال
البرانية عن القاهرة ومصر، حتى خلت بعض القرى وأطراف المدينة، لفناء أهلها بالموت.
ثم انحطت الأسعار بالديار المصرية في شهر رجب، ونزل سعر القمح الى خمسة وثلاثين
درهماً الأردب، والشعير بخمسة وعشرين درهماً الأردب وكان أكبر أسباب هذا الغلاء
وتزايده بالديار المصرية، خلو الأهراء السلطانية من الغلال، وذلك أن السلطان الملك
الأشرف، كان قد فرّق الغلال، وأخلى الأهراء منها بالإطلاقات للأمراء وغيرهم، حتى نفد
ما في الأهراء. وقصر النيل بعد ذلك، فاحتاج وزير الدولة الى مشتري الغلال للمؤونة
والعليق، فتزايدت الأسعار بسبب ذلك.
وفيها أيضاً، قل المطر بدمشق وبلاد حوران، وجفّ الماء حتى شق ذلك على المسافرين.
فكان المسرف يسقي دابته بدرهم، ويشرب بربع درهم. فلما اشتد ذلك على الناس،
أشار قاضي القضاة، بدر الدين محمد بن جماعة، بقراءة صحيح البخاري بدمشق. وتقرر
الاجتماع لسماعه بالجامع الأموي، تحت النسر في سابع صفر. وطُلِب الشيخ شرف الدين
الغزاري لقراءته. فأنزل الله تعالى الغيث في تلك الليلة قبل الشروع في القراءة. ثم قرئ
الصحيح، ووقع المطر في آخر يوم من كانون الأول، واستمر يومين وبعض ليلة، فاستبشر
الناس بذلك وترادف نحو جمعه. ثم جاء بعد ذلك ثلج كثير، في مستهل شهر ربيع الأول.
ثم ارتفع السعر، وبلغ سعر القمح، عن كل غرارة مائة درهم، وخمسة وستين درهماً.
واشتد الغلاء بالحجاز أيضاً فأبيعت غرارة الشعير بالمدينة، بسبعمائة درهم، وغرارة القمح

بألف درهم. وأبيعت بمكة، شرفها الله تعالى، بألف درهم ومائة درهم. ثم جاء المطر
بدمشق في ثاني جمادى الآخرة.
حادثة عجيبة بالشام
وفي هذه السنة، في العشر الأول من المحرم، استفاض بدمشق وشاع، وكثر الحديث عن
قاضي جبة أعسال، من قرى دمشق، أنه تكلم ثور بقرية من قرى جبة أعسال. وهو أن
الثور خرج ليشرب من ماء هناك، ومعه صبي فلما فرغ من شربه، حمد الله، فتعجب
الصبي. وحكى ذلك لمالك الثور، فشك في قوله. وخرج في اليوم الثاني بنفسه، فلما شرب
الثور، حمد الله. وحضر في اليوم الثالث جماعة، وسمعوه يحمد الله، بعد شربه. فكلمه
بعضهم، فقال الثور: إن الله كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدباء ولكن بشفاعة
النبي، صلى الله عليه وسلم، أبدلها الله بالخصب. وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم،
أمره بتبليغ ذلك، وأنه قال له يا رسول الله، ما علامة صدقي عندهم. قال: إنك تموت
عقيب الأخبار. - قال الحاكي لذلك - ثم تقدم الثور الى مكان مرتفع فسقط ميتاً. فأخذ
أهل القرية من شعره للتبرك، وكفن ودفن. حكى هذه الحادثة، شمس الدين محمد بن
ابراهيم الجزري في تاريخه حوادث الزمان، والله أعلم.
وفيها، في العشر الأوسط، من شهر ربيع الآخر، قتل بدمشق جماعة بالليل في الدروب.
ومعظم من قتل، من حراس الدروب، واستمر ذلك عدة ليال. وفي كل يوم يوجد قتيل
وإثنان. ولم يعدم لأحد شيء، مع ذلك، ولا سرق منزل. فاحترز متولي المدينة في ذلك.
وبقي يركب طول الليل، في جماعة كثيرة، ويطوف البلد، والأمر يتزايد. فلما كان في العشر
الأوسط، من جمادى الأولى، مُسك فقير مولّه، فاعترف أإنه هو الذي قتل الحراس، فسمر
وبقي يومين، ثم خنق في اليوم الثالث.
وفود الأويراتية من بلاد التتار
في هذه السنة، وردت طائفة من التتار، تسمى الأويراتية، ومقدمهم طرغاي، ووصلوا الى
الشام. وكانوا على ما قيل، ثمانية عشر ألف بيت. وكان السبب في هربهم من بلادهم، أن

طرغاي، هذا المذكور، كان متفقاً مع بيدو ابن طرغاي على قتل كيختو. فلما صار الملك
الى غازان، خافه طرغاي على نفسه، أن يقتله بعمه كيختو. وكان مقيماً بتمانه بين بغداد
والموصل. وكان اشتبغا مقيماً بتمانه بديار بكر. فأرسل غازان بولاي ومعه تمان الى ديار
بكر، عوضاً عن اشتبغا، وأوصاه بحفظ الطرقات على طرغاي، وأن يساعد من يندب
لقتله، ثم جهز غازان أميراً يسمى قطغوا في ثمانين فارساً للقبض على طرغاي ومن معه، من
أكابر قبيلة أويرات. فاتفق طرغاي، ومن معه من الأمراء، وهم ألوص وككباي، وقتلوا
قطغوا ومن معه. وعبروا الفرات الى جهة الشام، فتبعهم بولاي بتمانه، فقاتلوه وهزموه،
وقتلوا أكثر من معه.
ولما وردت مطالعات نواب الشام الى السلطان الملك العادل بوصولهم، اهتم بأمرهم.
وكتب الى نائب السلطنة بدمشق، أن يتوجه الأمير علم الدين سنجر الدواداري، بجماعة
الى الرحبة لتلقيهم. فتوجه من دمشق في غرة شهر ربيع الأول. ثم توجه بعده، الأمير
شمس الدين سنقر الأعسر، شاد الدواوين بالشام، ليلقاهم أيضاً. وجهّز السلطان أيضاً،
الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، من الديار المصرية الى دمشق، بسبب ذلك، فوصل
إليها في ثاني عشرين شهر ربيع الأول. ثم أردفه بالأمير سيف الدين بهادر الحاج الحلبي
الحاجب، فأقاما بدمشق، الى أن وصل أعيان الأويراتية الى دمشق، صحبة الأمير شمس
الدين الأعسر. وكان وصولهم في يوم الاثنين، ثالث عشرين شهر ربيع الأول، وعدتهم مائة
وثلاثة عشر نفراً، والمقدم عليهم طرغاي، ومن أكابرهم ألوص وككباي. فتلقاهم نائب
السلطنة والأمراء، واحتفل بقدومهم احتفالاً كبيراً. ثم توجه بهم الأمير شمس الدين
قراسنقر، الى الديار المصرية في يوم الإثنين سابع عشر ربيع الأول. وتوجه بعده الأمير سيف
الدين الحاج بهادر الحاجب، على خيل البريد الى الأبواب السلطانية، في حادي عشر
الشهر. ولما وصلوا الى باب السلطان بالغ في إكرامهم، وأحسن إليهم، وخلع عليهم،

وأمّرهم بالطبلخاناة. وهم على دين الكفرة، ويأكلون في شهر رمضان، ولا يذبحون الخيل
ذبيحة ولا نحراً، بل يربطون الفرس، ويضربونه على وجهه حتى يموت، فيأكلونه بعد ذلك.
وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلة، فأنفت نفوس الأمراء من ذلك وكرهوه، حتى أوجب
ذلك خلع السلطان، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وأما بقية الأويراتية، فإن السلطان كتب إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري أن يتوجه
بهم الى الساحل فينزلهم به، فتوجه بهم. ولما مروا بمدشق، أنزلهم بالمرج، ولم يمَكّن أحداً
منهم من دخول المدينة. ورسم بإخراج الأسواق إليهم للبيع والشراء بالمرج، الى الكسوة
والصنمين. وفعل ذلك في كل منزلة الى وصل بهم الى أراضي عثليت، وامتدوا في بلاد
الساحل. ورسم السلطان بإقامة الأمير علم الدين سنجر الدواداري معهم، الى أن يحضر
السلطان الى الشام، ومات منهم خلق كثير. وأخذ الأمراء أولادهم الشباب للخدمة،
وكانوا من أجمل الناس، وتزوج الجند وغيرهم من بناتهم. ثم انغمس من بقي منهم في
العساكر، وتفرقوا في الممالك الإسلامية، ودخلوا في دين الإسلام. وبقاياهم في الخدمة الى
وقتنا هذا.
وفاة قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز وتفويض القضاء للشيخ ابن دقيق العيد
وفي هذه السنة، في يوم الخميس، سادس عشر جمادى الأولى، توفي قاضي القضاة، تقي
الدين أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضي القضاة تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب بن بنت
الأعز، قاضي القضاة الشافعي، بالديار المصرية، ودفن بالقرافة، في تربة والده، رحمهما الله.
وفي يوم وفاته، توفي كاتبه نور الدين بن السوسي، وكان خصيصاً به. وحملت جنازتاهما
معاً.
وقد قدمنا من ذكر أخبار قاضي القضاة تقي الدين هذا وولاياته القضاء والوزارة ونظر
الخزائن، ما نستغني الآن عن إعادته، رحمه الله تعالى. ولما مات، فوض السلطان قضاء
القضاة بالديار المصرية، لشيخنا الإمام العلامة، تقي الدين بقية المجتهدين أبي الفتح محمد ابن

شيخ الإسلام مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد.
وكانت ولايته في يوم السبت ثامن عشر الشهر المذكور. ولما ولي القضاء كان كثير التطلع الى
أخبار نوابه بالأعمال البرانية. وكان يذكرهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات، من
عواقب الغفلة والإهمال. فكان مما كتب به، الى بعض نوابه، في سنة سبع وتسعين. وقيل
إنه كتب الى جميع النواب مثل ذلك. وكان مضمون كتابه الذي نقلت نسخته هذه:
بسم الله الرحمن الرحيم، الفقير الى الله تعالى، محمد بن علي.
"يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكة
غلاظٌ شدادٌ لا يَعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون". هذه المكاتبة الى، فلان، وفقه
الله لقبول النصيحة، وأتاه لما يقر به قصداً صالحاً، ونية صحيحة. أصدرناها إليه، بعد
حمد الله الذي "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال
على المغرور، تذكّره بأيام الله، "وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون". وتحذره صفقة
من باع الآخرة بالدنيا، فما أحد سواه مغبون. عسى أن يرشده بهذا التذكار وينفعه
وتأخذه هذه النصائح بحجزته عن النار، فإني أخاف أن يتردى، فيجز من ولاه، والعياذ
بالله، معه.
والمقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم عن
القيام بما يحبّ الرب على المربوب، ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها، ومن علمهم
بما بين أيديهم من عقبة كؤود، وهم لا يتحققون منها، ولاسيما القضاة الذين يحملون عبء
الأمانة، على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار، وهمم نحيفة. والله إن الأمر لعظيم، وإن
الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً، ولا راحة، اللهم إلا رجلاً نبذ الآخرة
وراءه، واتخذ إلهه هواه، وقصر همه وهمته على حظ نفسه من دنياه. فغاية مطلبه الحياة
والمنزلة في قلوب الناس وتحسين الزي والملبس، والركبة والمجلس، غير مستشعر خيبة حاله،

ولا ركاكة مقصده، فهذا لا كلام معه، فإنك لا تسمع الموتى، وما أنت بمسمع من في القبور.
فاتق الله الذي يراك حين تقوم؛ واقصر أملك عليه، فالمحروم من أمله غير مرحوم. وما أنا
وأنتم أيها النفر، إلا كما قال حبيب العجمي، وقد قال له قائل: ليتنا لم نخلق فقال قد وقعتم
فاحتالوا. وإن خفي عليك بعض هذا الخطر، وشغلتك الدنيا، أن تقضي من معرفته
الوطر. فتأمل من كلام المبوة القضاة ثلاثة، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقاً
عليه: لا تأمرن على إثنين، ولا تَلين مال اليتيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
وما أنا والسير في متلف يبرح بالذّكر الضابط
هيهات جف القلم، ونفذ أمر الله، ولا راد لما حكم. ومن هناك شمّ الناس في الصديق
رضي الله عنه، رائحة الكبد المشوي. وقال الفاروق: ليت أم عمر لم تلده. واستسلم
عثمان وقال من أغمد سيفه، فهو حر. وقال علي: - والخزائن بين يديه مملوءة - من يشتري
مني سيفي هذا، ولو وجدت ما ما أشتري به رداء ما بعته. وقطع الخوف نياط قلب عمر
بن عبد العزيز، فمات من خشية العرض. وعلق بعض السلف في بيته سوطاً، يؤدب به
نفسه إذا فتر. أفترى ذلك سدى؟ أو وضح إنا نحن المقربون وهم البعداء؟ وهذه أحوال
لا توجد في كتاب السلم ولا الإجارة ولا الجنايات. نعم إنما تنال بالخضوع والخشوع، وبأن
تظمأ وتجوع، وتحمي عينك الهجوع. ومما يعينك على الأمر الذي دعوت إليه، ويزودك في
سيرك الى الغرض عليه، أن تجعل لك وقتاً تعمره بالفكر والتدبير، وأناة تجعلها معدة لجلاء
قلبك. فإنه إن استحكم صدأه، صعب تلافيه. واعرض عنه من هو أعلم بما فيه،
واجعل أكثر همومك لاستعداد المعاد، والتأهب لجواب الملك الجواد. فإنه يقول: "فوربك
لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون".
ومهما وجدت من همتك قصوراً، واستشعرت من نفسك عما بدا إليها نفوراً، فاجأر إليه
وقف ببابه واطلب منه، فإنه لا يعرض عمق صدق، ولا تعزب عن علمه خفايا الضمائر، ألا
يعلم من خلق.

وهذه نصيحتي إليك، وحجتي بين يدي الله، إن فرطتَ، عليك، اسأل الله لي ولك، قلباً
واعياً، ولساناً ذاكراً، ونفساً مطمئنة، بمنّه وكرمه.
وفي هذه السنة، عزل القاضي جمال الدين بن الشربشي نفسه من نيابة الحكم بدمشق،
عن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وذلك في الجمعة، رابع عشرين شهر رجب. فوقع
اختيار قاضي القضاة، بدر الدين بن جماعة في النيابة عنه، على القاضي جمال الدين
سليمان بن عمر بن سالم الأذرعي، المعروف بالزرعي قاضي زرع. فأحضره منها واستنابه
بدمشق، وذلك في يوم الإثنين تاسع عشر شوال من السنة.
وفيها، قدمت والدة الملك العادل بدر الدين سلامش ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين
بيبرس من بلاد الأشكري، الى دمشق. وكان وصولها في حادي عشر رمضان. ونزلت
بدار الحديث الظاهرية بدمشق. وأرسل إليها نائب السلطنة الأمير عز الدين أيبك الحموي
الظاهري، التحف والهدايا والألطاف، وخدمها أتم خدمة. ثم توجهت من دمشق الى
القاهرة في عشية الجمعة، ثامن عشر رمضان.
توجه السلطان الملك العادل وعزدل نائب السلطنة بدمشق الأمير عز الدين الحموي، وتولية الأمير سيف الدين أغرلوا العادلي وغير ذلك
وفي هذه السنة، توجه السلطان الملك العادل الى الشام بجميع العساكر. وكان استقلال
ركابه من قلعة الجبل، في يوم السبت سابع عشر شوال، بعد الزوال. ووصل الى دمشق في
الساعة الخامسة من يوم السبت، خامس عشر ذي القعدة، والأمير بدر الدين بيسري
حامل الجتر على رأسه. وحضر في خدمته نائب السلطنة، الأمير حسام الدين لاجين،
والصاحب فخر الدين بن الخليلي ونزل الوزير بدار الملك الزاهر.
وفي يوم وصوله الى
دمشق، توجه الى زيارة قبر والده، الشيخ مجد الدين بجبل الصالحية. فلقيه القاضي تقي
الدين سليمان الحنبلي، وسلم عليه، فعرّف به. فأمر أن يركب بغلته الجنيب، فركبها،
وحضر معه الى تربة والده. فلما فرغ من القراءة، ولاّه الصاحب قضاء القضاة على
مذهبه، فقبل. وخلع عليه في بكرة النهار، وعلى بقية القضاة.
وكان قاضي الحنابلة قبله،

القاضي شرف الدين الحسن ابن الشيخ شرف الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي
قد توفي، وكانت وفاته في أول ليلة الخميس، الثاني والعشرين من شوال، ودفن ضحى يوم
الخميس، رحمه الله تعالى.
ولما استقر السلطان بدمشق، خلع على الأمراء والمقدمين، وعلى الصاحب تقي الدين
توبة، والشيخ نجم الدين بن أبي الطيب، وولاه وكالة بيت المال، وعلى شهاب الدين
الحنفي.
ثم شرع الصاحب فخر الدين في مصادرات الولاة والمباشرين.
ورسّم على الأمير شمس
الدين الأعسر شاد الدواوين بدمشق، وعلى الأمير سيف الدين استدمر كرجي والي البر،
وعزله عن ولاية البر. وولى الأمير علاء الدين ابن الجاكي عوضه، وطلب منهما الأمال،
ورسّم على سائر المباشرين، وطلب من كل منهم حامكية سنة.
واستخرج من شهاب
الدين بن السلعوس ثماين ألف درهم، وكان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر باقياً على
ولايته، وهو الذي تولى المستخرج من المصادرين، استدمر وغيره. وهو مع ذلك يحمل ما
تقرر عليه من الأموال.
وفي يوم الإثنين رابع عشر ذي القعدة، وصل الملك المظفر صاحب حماه الى خدمة
السلطان بدمشق، فتلقاه السلطان وأكرمه. ثم جرد السلطان جماعة من العسكر المصري،
وعسكر دمشق الى جهة حلب.
وفي يوم الجمعة، ثامن عشرين ذي القعدة، حضر السلطان الى جامع بني أمية وصلى به
الجمعة. وخلع على الخطيب قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وزار مصحف عثمان.
وفي يوم الإثنين مستهل ذي الحجة، حضر الأمير عز الدين الحموي الظاهري، نائب السلطنة
بدمشق، الى خدمة السلطان. فأنكر عليه سوء اعتماده، وطمع نفسه، وما بلغه عنه من
بسط يده في أخذ المصانعات. وأخذ السلطان خيوله المسوّمة وأمواله وأقمشته، ثم عزله
عن النيابة، وفوضها لمملوكه الأمير سيف الدين أغرلوا العادلي، وباشر النيابة من يومه. ثم
خلع بعد ذلك على الأمير عز الدين الحموي، وأنعم عليه بإقطاع أغرلوا بالديار المصرية.

وانتقل الحموي عند عزله من دار السعادة، ونزل بداره المعروفة بالجيشي التي بالقصاعين.
وفيها، في ثامن ذي الحجة، فوض السلطان وزارة الشام، لوكيله شهاب الدين الحنفي،
عوضاً عن تقي الدين توبة، وكان قبل ذلك يلي الحسبة بدمشق. وخلع عليه خلعة الوزارة
في يوم عيد الأضحى. ثم توجه السلطان في ثامن عشر ذي الحجة، الى جهة حمص،
وتصيّد في تلك الجهة. ودخل حمص في تاسع عشر ذي الحجة، وحضر إليه نائب السلطنة
بحلب، وبقية النواب. وانسلخت السنة والسلطان بمخيمه على جوْسِيه، وهي قرية من
قرى حمص، كان قد اشتراها.
وفي هذه السنة، توفي الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي، أمير جاندار. وكانت وفاته
بمصر، في يوم الأربعاء، السادس والعشرين من صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ودفن
بتربته بالرصد. وكان رحمه الله تعالى، كثير الخير والإحسان الى خلق الله تعالى. وعمّر
المدارس والمساجد والجوامع، وله بإسنا من عمقل قوص، مدرسة موقوفة على طائفة
الشافعية. وبقوص مدرسة على ساحل البحر كذلك، وبجوار المدرسة مسجد له، يجتمع
فيه الفقراء الأعجام القرندلية في شهر رمضان من كل سنة، ويذبح في كل يوم رأس غنم، وما
يحتاجون إليه من التوابل والخبز. وله بمصر مدرسة، وبكرسي الجسر جامع، وبالرصد
جامع، وغير ذلك من الأماكن الشريفة المبرورة. ووقف عليها الأوقاف المبرورة الوافرة،
رحمه الله تعالى.
وتوفي أيضاً بالديار المصرية جماعة من الأمراء، منهم الأمير بدر الدين بيليك الحسني أبو
شامة، وهو الذي كان يندب الى الكشف بالوجه القبلي بالديار المصرية، في الدولة
المنصورية، وما بعدها، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ست وتسعين وستمائة
1296 - 1297
والسلطان الملك العادل بمخيمه على جوسيَه. ثم رحل منها وعاد الى دمشق، فدخلها في
يوم الأربعاء ثاني المحرم. وفي يوم الجمعة، حضر السلطان الى الجامع، وصلى بالمقصورة،

وأخذ من الناس قصصهم. ورأى شخصاً بيده قصة، فتقدم إليه بنفسه خطوات، وأخذ
القصة منه.
وفيها، أقر السلطان الملك العادل، الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك السعيد ابن
الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين بن أبي بكر محمد بن
أيوب، وجعله من أمراء الطبلخاناة بدمشق، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم.
وفيها، في يوم الإثنين، حادي عشرين المحرم، قبض على الأمير سيف الدين استدمر كرجي،
واعتقل بالقلعة، وعزل الأمير سيف الدين سنقر الأعسر، عن وظيفة الشد، وولي عوضه
الأمير فتح الدين بن صبره.
عود السلطان الملك العادل الى الديار المصرية وخلعه من السلطنة ورجوعه الى دمشق
وفي بكرة نهار الثلاثاء، الثاني والعشرين من المحرم، توجه السلطان بعساكره نحو الديار
المصرية، وقد أجمع أكابر الأمراء على خلعه. فلما انتهوا الى منزلة العوجا، جلس السلطان
في الدهليز، وحضر الأمراء الى الخدمة، وطلب الأمير بدر الدين بيسري الشمسي طلباً
مزعجاً. وكان قد توجه الى الزيارة، فلما حضر، لم يقم له على عادته. ويقال إنه كلّمه بكلام
غليظ، ونسبه الى أنه كاتب التتار، وحصل بينهما مفاوضة، ثم نهض السلطان من المجلس.
وقام الأمراء، واجتمعوا في خيمة الأمير حسام الدين لاجين، نائب السلطنة، وتكلموا فيما
وقع. فسأل الأمير بدر الدين بيسري، الأمير حسام الدين عن موجب إغلاظ السلطان له.
فقال: إن مماليكه قد كتبوا عنك كتباً الى التتار، وأحضروها إليه، ونسبوك الى أنك كتبتها،
ونبته إذا وصل الى قلعة الجبل، أن يقبض عليّ وعليك، وعلى أكابر الأمراء، ويقدم مماليكه.
فأجمعوا عند ذلك على خلعه. وركب الأمير حسام الدين لاجين، والأمير بدر الدين
بيسري، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف الدين
الحاج بهادر الحلبي الحاجب ومن انضم إليهم. واستصحبوا معهم حمْل نقّارات، وساقوا الى
باب الدهليز. وحركت النقارات حربياً، وذلك في يوم الإثنين الثامن والعشرين من المحرم،

سنة ست وتسعين وستمائة. فلما مروا بخيمة بكتوت الأزرق العادلي قتلوه. وركب
بتخاص العادلي، وتوجه الى باب الدهليز فقتلوه أيضاً. ولما شاهد الملك العادل ذلك، خرج
من ظهر الدهليز، وركب فرس النوبة، وعبر على القنطرة التي على ماء العوجا، وساق
ركضاً، وأدركه خمسة أو ستة من مماليكه. واستقر به السير الى دمشق. ودخل قلعتها،
فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.
سلطنة السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري
وهو السلطان الحادي عشر من ملوك الترك، بالديار المصرية.
وهو من مماليك السلطان
الملك المنصور سيف الدين قلاوون. اشتراه في زمن إمرته مرتين. وكان من مماليك الملك
المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز أيبك، فلما سُفِّر الى بلاد الأشكري، تأخر بالقاهرة،
فاشتراه السلطان الملك المنصور، في أيام إمرته بسبعمائة وخمسين درهماً. ثم تبين بعد ذلك
أنه من مماليك الملك المنصور ابن الملك المعز، وقيل له إنه غائب ولا يصح بيعه إلا من حاكم
شرعي، فاشتراه ثانياً من قاضي القضاة، تاج الدين بن بنت الأعز، بما يزيد عن ألف
درهم. وباعه على الغائب، بالغبطة له. وقد شاهدت أنا عهديته في جملة عُهَد المماليك
المنصورية السيفية، وشدّ عن تحقيق الثمن الثاني، إلا أنه يزيد على ألف درهم. ولعل ذلك
ألف وخمسون درهماً. وكان يوم ذاك يدعى شقير. كذا رأيت عهديته لاجين المدعو شقير،
وكان في البيت المنصوري يعرف بلاجين الصغير. وتأمر وناب عن السلطنة بدمشق، وهو
لا يعرف بين الناس إلا بلاجين الصغير. وسألت بعض أكابر الأمراء من المماليك المنصورية،
الذين كانوا في خدمة السلطان، في زمن إمرته، عن لاجين الكبير، الذي مُيّز هذا بالصغير
بسببه، فما عرفوه. ولعل هذه الشهرة وقعت عليه وقوع اللقب، والله أعلم.
وتنقل لاجين هذا في خدمة السلطان الملك المنصور، من وظيفة الأوشاقية الى السلاح
دارية. ولما قبض عليه السلطان الملك الأشرف، بعد عزله من نيابة الشام، ثم أفرج عنه
وجعله سلاح داراً كما كان، في خدمة أبيه السلطان الملك المنصور، قبل أن يستنيبه

بدمشق. وقد تقدم من أخباره وتنقلاته، ما نستغني الآن عن إعادته.
مُلّك بمنزلة العوجاء من بلاد الساحل. وذلك أنه لما هرب الملك العادل كتبغا من الدهليز،
وتوجه نحو دمشق، في الثامن والعشرين من المحرم، سنة ست وتسعين وستمائة، اجتمع
الأمراء وتشاوروا فيمن ينصب في السلطنة. فاتفقوا على إقامته في السلطنة، وتقلب بالملك
المنصور. وشرط الأمراء عليه شروطاً فقبلها والتزمها. منها أن يكون معهم كأحدهم،
وأن لا ينفرد برأي دونهم، وأن لا يبسط أيدي مماليكه فيهم، ولا يقدمهم عليهم، وحلّفوه
على ذلك، فحلف عليه. فقال له الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري: - وكان من جملة
الأمراء المشار إليهم - نخشى أنك إذا جلست في المنصب، تنسى هذا الذين تقرر بيننا
وبينك، وتقدم مماليكك، وتخوّل منكوتمر. فكرر الحلف أنه لا يفعل ذلك، ولا يخرج عما
التزمه. فعند ذلك، حلفوا له وركب بشعار السلطنة، وتوجه بالعساكر نحو الديار المصرية.
ولما وصل الى غزة، حمل الأمير بدر الدين بيسري الجتر على رأسه. ثم رحل منها، وكان
وصوله الى قلعة الجبل، وجلوس على تخت السلطنة، في يوم الجمعة عاشر صفر، سنة ست
وتسعين وستمائة. ثم ركب بشعار السلطنة، وشقّ المدينة في يوم الخميس سادس عشر
صفر.
ورتب في نيابة السلطنة بالديار المصرية مقر ملكه، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري،
وجعل الأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار أمير
جاندار، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي حاجباً. واستمر الصاحب فخر الدين بن
الخليل في الوزارة برهة، ثم عزله على ما نذكره إن شاء الله. وفوض نيابة السلطنة بالشام
الى الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري.
هذا ما كان بالديار المصرية، فلنذكر أخبار الملك العادل كتبغا.
أخبار الملك العادل
وما اعتمده بدمشق
وما كان من أمره الى أن انتقل الى صرخد
لما فارق الملك العادل الدهليز والأمراء، توجه الى دمشق. وقدم قبله أحد مماليكه ليعلم

مملوكه الأمير سيف الدين أغرلوا نائب السلطنة بدمشق ما تجدد، ويخبره بوصول السلطان.
فوصل أمير شكار في بكرة نهار الأربعاء، سلخ المحرم. فجمع نائب السلطنة بدمشق
الأمراء، وركب جماعة من العسكر، وأمرهم بالوقوف خارج باب النصر.
ثم وصل الملك العادل الى دمشق، في وقت العصر من اليوم المذكور، ومعه أربعة أو خمسة
من مماليكه. ودخل الى القلعة، واستقر بها، وحضر الى خدمته الأمراء، وخلع على
جماعة. وأمر بإيقاع الحوطة على حواصل الأمير حسام الدين لاجين ونوابه. ثم وصل
الأمير زين الدين غلبك العدلي في يوم الخميس، مستهل صفر، بجماعة يسيرة من المماليك
العادلية. وجلس شهاب الدين الحنفي وزير الملك العادل في الوزارة بالقلعة. ورتب أحوال
السلطنة. وأمّر العادل جماعة من دمشق، ووضع بعض المكوس، وقرئ بذلك توقيع في يوم
الجمعة سادس عشر صفر.
وفي يوم السبت رابع عشرين الشهر، وصل الأمير سيف الدين كجكن وجماعة من الأمراء،
كانوا معه بالرحبة مجردين، فلم يدخلوا دمشق، وتوجهوا الى جهة ميدان الحصا. وأعلن
باسم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، وخرج إليه الأمراء بدمشق، طائفة بعد
طائفة. فلما علم الملك العادل بذلك، وتحقق انحلال أمره، وتخاذل الناس عنه، وثبات قدم
الملك المنصور في السلطنة، وانضمام الناس إليه، أذعن الى الطاعة، والدخول فيما دخل
الناس فيه. وقال للأمراء: السلطان الملك المنصور، هو خوشداشي، وأنا في خدمته
وطاعته، وأنا أكون في بعض القاعات بالقلعة الى أن يكاتب السلطان، ويرد جوابه بما
يقتضيه رأيه في أمري. فعند ذلك اجتمع الأمراء بباب الميدان، وحلفوا بأجمعهم للسلطان
الملك المنصور، وكتبوا إليه بذلك.
وتوجه البريد إليه بالخبر، ودخل الأمير سيف الدين جاغان الى القلعة ورتب من يحفظ
الملك العادل بها، الى أن يرد جواب السلطان المنصور في أمره، وغلق أبواب دمشق، في يوم
السبت خلا باب النصر. وركب عسكر دمشق بالسلاح، وأحاطوا بالقلعة حفظاً لها،

وخوفاً أن يخرج الملك العادل منها، ويقصد جهة أخرى قبل ورود جواب السلطان في أمره.
ثم دقت البشائر في وقت العصر من يوم السبت المذكور، وأعلن باسم السلطان الملك
المنصور. وقرأ المؤذنون في ليلة الأحد الخامس والعشرين من الشهر بالمآذن "قل اللهم مالك
الملك تؤتي الملك من تشاء" الى آخر الآية. ودعوا للملك المنصور، ودعا له قارئ
المصحف، بعد صلاة الصبح وضربت البشائر على أبواب الأمراء، وأظهروا الفرح والسرور
بسلطنته، وفتحت أبواب البلد وزينت، وفتح الناس حوانيتهم.
وفي يوم الأحد المذكور، اجتمع القضاة بدار السعادة، وحضر الأمراء والعساكر، وحلفوا
للملك المنصور. وتولى التحليف القاضي شمس الدين بن غانم، بحضور الأمير سيف الدين
أغرلوا، نائب السلطنة، وحلف هو أيضاً، وأظهر السرور بسلطنة الملك المنصور. وقال:
السلطان، أعز الله تعالى نصره، هو الذي عينني لنيابة السلطنة، وأستاذي كان قد
استصغرني، فأشاد هو بي، فأنا نائب السلطان الملك المنصور.
ثم توجه هو والأمير سيف
الدين جاغان الى الأبواب السلطانية.
وخطب للملك المنصور حسام الدين لاجين، بجوامع دمشق، في يوم الجمعة، مستهل شهر
ربيع الأول، سنة ست وتسعين وستمائة. وكان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، قد
حضر من جهة السلطان الملك المنصور الى ظاهر دمشق، في ليلة الأحد رابع صفر.
وأرسل الى الأمراء كتباً كانت معه، وحلف جماعة منهم. وتوجه الى قارا في ليلته، وكان
بها جماعة من الأمراء المجردين، فاجتمع بهم، وقرر الأمر معهم، وكتب الى السلطان بذلك.
ثم رجع وأقام بلد بجماعته، حفظاً للبلاد بتلك الجهة. فلما بلغه استقرار الأمور بدمشق،
توجه إليها، ودخلها في يوم الخميس، سابع عشرين صفر.
فتلقاه الناس، واشتعلت الشموع
لمقدمه نهاراً، وحضر الأكابر والأعيان الى خدمته. ونودي بدمشق، من له مظلمة،
فليحضر الى دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر.
ثم وصل الأمير حسام الدين أستاذ الدار الى دمشق، بجماعة من العسكر. وجمع الأمراء

بدار السعادة، بحضور القضاة. وقرئ فيهم عليهم كتاب السلطان، يتضمن استقراره في
الملك، وجلوسه على تخت السلطنة، بقلعة الجبل، واجتماع الكلمة عليه، وركوبه بالخلع
الخليفية، والتقليد من أمير المؤمنين، الحاكم بأمر الله، أبي العباس أحمد.
ثم وصل الأمير سيف الدين جاغان الحسامي، من الأبواب السلطانية، في عشية يوم
الإثنين، حادي عشر شهر ربيع الأول. ودخل في كبرة نهار الثلاثاء، الى قلعة دمشق، هو
والأمير حسام الدين أستاذ الدار، والأمير سيف الدين كجكن، وقاضي القضاة بدر الدين
بن جماعة، واجتمعوا بالملك العادل. فحلف للسلطان الملك المنصور يميناً مستوفاة مغلظة،
أنه في طاعة السلطان الملك المنصور وموافقته، وإخلاص النية له، وأنه رضي بالمكان الذي
عينه له، وهو قلعة صرخد، وأنه لا يكاتب ولا يستفسد أحداً، الى غير ذلك، مما اشترط
عليه. ثم وصل الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، نائب السلطنة بالشام، الى دمشق في
يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأول، ونزل بدار السعادة، على عادة النواب.
وخرج الملك العادل من قلعة دمشق، وتوجه الى صرخد، في ليلة الثلاثاء تاسع عشر شهر
ربيع الأول. وتوجه معه مماليكه، وجرد معه جماعة من العسكر الشامي، الى أن وصل الى
قلعة صرخد.
فكانت مدة سلطنة الملك العادل، منذ جلس على تخت السلطنة، بقلعة الجبل، في يوم
الأربعاء حادي عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، والى أن فارق الدهليز بمنزلة
العوجا، وتوجه الى دمشق، في يوم الإثنين الثامن والعشرين من المحرم، سنة ست وتسعين
وستمائة، سنتين وسبعة عشر يوماً، والى أن خلع نفسه من السلطنة بدمشق، في يوم السبت
رابع عشرين صفر، شهراً واحداً، وأحد عشر يوماً.
ولما وصل الأمير سيف الدين جاغان الى دمشق، أحضر على يديه توقيعاً للصاحب تقي
الدين توبة، بوزارة دمشق على عادته، وتوقيعاً للقاضي أمين الدين بن هلال، بنظر الخزانة،
عوضاً عن تقي الدين توبة، وتوقيعاً للشيخ أمين الدين العجمي بنظر الحسبة بدمشق.

فباشر كل منهم ما فوض إليه. ثم خلع على الأمراء والمقدمين، والقضاة، وأعيان الدولة
بدمشق، في يوم الإثنين ثاني شهر ربيع الآخر. فيقال إن عدة التشاريف التي فرقت ستمائة
تشريف.
الإفراج عن جماعة من الأمراء
وفي هذه السنة، أفرج السلطان الملك المنصور عن جماعة من الأمراء المعتقلين، وهم الأمير
ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير سيف الدين برلغي الأشرفي، والأمير شمس الدين
الركن السلاح دار، وغيرهم من المماليك السلطانية. وأعطى الأمير ركن الدين بيبرس
الجاشنكير إمرة بالديار المصرية، والأمير سيف الدين برلغي إقطاعاً بدمشق، فتوجه إليها.
وفيها، أمّر السلطان الملك المنصور جماعة من مماليكه، وهم الأمير سيف الدين منكوتمر،
والأمير علاء الدين ايدغدي شقير، والأمير سيف الدين بيدوا، والأمير سيف الدين
جاغان، والأمير سيف الدين بهادر المعزي.
تجديد عمارة الجامع الطولوني وترتيب الدروس به، والوقف على ذلك
وفي هذه السنة، أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بتجديد عمارة الجامع
الطولوني. وندب لذلك الأمير علم الدين سنجر الدواداري. وأقر لعمارته من خالص ماله،
عشرين ألف دينار عيناً. فاهتم الأمير علم الدين، المشار إليه، بعمارته وعمارة أوقافه.
وابتاع السلطان من بيت المال منية أندونه، من الأعمال الجيزية، ووقفها على المدرسين
والمشتغلين وأرباب الوظائف بالجامع. ورتب فيه درساً لتفسير كتاب الله العزيز، ودرساً
لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ودروساً للفقه على المذاهب الأربعة. وجعل
لهذه الدروس مدرساً لكل طائفة، ومعيدين وطلبة. ورتب دروساً للطب، وميعاداً للرقائق،
وشيخاً للسبحة، ومكتب سبيل، وغير ذلك من أنواع البر. ورتب لهم الجامكيات المتوفرة،
واستمر ذلك الى الآن.
وفي هذه السنة، نقل السلطان، الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد العباس أمير
المؤمنين، من البرج الذي كان يسكنه بقلعة الجبل الى مناظر الكبش. وأجرى عليه وعلى

أولاده الأرزاق الواسعة، ووصله بالصلات الجزيلة، وصار يركب معه في الموكب. والتمس
الخليفة من السلطان الإذن في الحج، فأذن له في سنة سبع وتسعين وستمائة، وجهزه بما
يحتاج إليه.
تفويض القضاء بالديار المصرية والشام لمن يذكر
وفي هذه السنة، حضر الى الأبواب السلطانية جماعة من قضاة الضاة والأعيان بدمشق،
منهم قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الرومي، وقاضي القضاة جمال الدين المالكي،
والقاضي إمام الدين القزويني، والرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي وغيرهم. فلما وصلوا،
أكرمهم السلطان، وأحسن إليهم، وخلع عليهم. وفوض الى قاضي القضاة حسام الدين
الحنفي قضاء القضاة بالديار المصرية، وعامله بما لم يعامل به أحداً من الإكرام والتقريب والبر
والتشاريف. وأقر ولده القاضي جلال الدين على قضاء الشام. وفوض الى القاضي إمام
الدين القزويني الشافعي، قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام الشافعي. وكتب تقليده
في رابع جمادى الأولى، عوضاً عن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة. واستقر بيد
القاضي بدر الدين الخطابة بالجامع الأموي بدمشق، وتدريس المدرسة القيمرية، وأعيد
القاضي جمال الدين الزواوي المالكي الى دمشق على عادته، وخلع عليهما، فكان
وصولهما الى دمشق في ثامن شهر رجب. وجلس القاضي إمام الدين للحكم بالمدرسة
العادلية، وامتدحه الشعراء. فكان ممن امتدحه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بقصيدته
التي أولها:

تبدّلت الأيام من عسرها يسرا فأضحت ثغور الشام تفتر بالبشرى

وأما الرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي، فإنه تأخر بالديار المصرية مدة، ثم عاد الى
دمشق، فوصلها في الخامس والعشرين من شهر رمضان. وقد خلع عليه خلع الوزراء،
تشريفاً كاملاً بطرحة ومنديل هنكري مزركش، وخلع على ولديه. واستعاد له من ورثة
السلطان الملك المنصور، ما كان قد صودر به، وأُخذ منه في الأيام المنصورية. وأثبت ذلك

في وجه وكيل الورثة المنصورية، وتعوض عنها أملاكاً، من الأملاك المنصورية. فذكر أن
قيمتها أضعاف ما أخذ منه، منها حصة بقرية الرمثا وغير ذلك.
وفيها، ولي الأمير سيف الدين جاغان الحسامي شد الشام، وباشر ذلك في يوم الإثنين
العشرين من شهر رجب، عوضاً عن الأمير فتح الدين بن صبره.
تفويض الوزارة بالديار المصرية للأمير شمس الدين سنقر الأعسر
وفي هذه السنة، تقدم أمر السلطان بطلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر المنصوري،
من دمشق، على خيل البريد. فركب منها في سابع عشر جمادى الآخرة. ووصل الى
الأبواب السلطانية في الشهر المذكور، فأكرمه السلطان وأحسن إليه، وشرّفه وأمّره بالديار
المصرية. ثم فوض إليه الوزارة، وتدبير الدولة، بالديار المصرية والممالك الشامية.
وكان جلوسه في دست الوزارة، في السادس والعشرين من شهر رجب. وعزل الصاحب
فخر الدين بن الخليلي، وسلّم إليه، ليستخرج منه مالاً. واستمر في الوزارة الى يوم السبت
ثالث عشرين ذي الحجة، فقبض عليه لأمور أنكرها السلطان، وظهرت له منه.
القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة
وتفويض نيابة السلطنة للأمير سيف الدين منكوتمر
وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء منتصف ذي القعدة، قبض السلطان على نائبه
وخوشداشه، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري واعتقله. وأمر بإيقاع الحوطة على
موجوده وحواصله، بالديار المصرية والبلاد الشامية. وفوّض السلطان، بعد القبض عليه،
نيابة السلطنة بمقر ملكه، لمملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي.
وفي هذه السنة، بعد القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، ركب السلطان
الملك المنصور الى الميدان، للعب بالكرة، فتقنطر به فرسه، فسقط الى الأرض، وانكسر
أحد جانبي يديه وبعض أضلاعه. ووجد شدة عظيمة لذلك. واحتاج المجبرون الى كسر
عظم الجانب الآخر من يده، لأجل صحة الجبر، فإنه لا يجبر أحد الجانبين، وإن انجبر قصر

عن الجانب الآخر، فتعذر الانتفاع باليد، واضطر الى ذلك، وتوقف عن الإجابة إليه.
فدخل عليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر - وكان ذلك قبل القبض عليه - وقال له: أنا
حصل لي مثل هذا، فلما احتجت الى كسر النصف الآخر، ضربته بدقماق حديد،
فانكسر ثم جبر. وكلمه في ذلك بكلام فيه غلظ واستخفاف. ولم يسلك ما جرت العادة
به من الآداب الملوكية. فكان هذا من أسباب القبض عليه كما تقدم.
واستمر السلطان على الانقطاع لهذه الحادثة، الى أن كملت صحته، وصح ما جبر من يده
وجسده. ثم ركب في حادي عشر صفر، سنة سبع وتسعين وستمائة فاستبشر الناس
بذلك، ودقّت له البشائر بمصر والشام.
وفي سنة ست وتسعين وستمائة، في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول كانت وفاة
الشيخ الإمام، السيد الشريف ضياء الدين مفتي المسلمين، أبي الفضل جعفر ابن الشيخ
العارف القطب اتفاقاً، عبد الرحيم بن أحمد بن مجنون الحسيني الشافعي، رحمه الله.
وكان قد ولي وكالة بيت المال، في أول الدولة المنصورية، مدة لطيفة، ثم عزل نفسه.
وفيها، في ليلة الثلاثاء، سادس عشرين ربيع الأول، توفي الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين
أبو العباس أحمد ابن الشيخ محمد بن عبد الله الظاهري، وولده محمد، عتيق السلطان
الملك الظاهر غازي. ودفن بتربته بمقبرة باب النصر، ظاهر القاهرة، رحمه الله تعالى.
وفيها، في يوم الإثنين ثامن عشر شعبان، توفي الصدر سيف الدين أحمد ابن محمد بن
جعفر الساوي بدمشق، ودفن بداره، جوار المدرسة الكروسية، داخل دمشق. وكان كبير
المحل في النفوس، مشهور المكانة عند الخليفة المستعصم بالله وغيره. وقد تقدم ذكره في
الدولة المنصورية. وكان حسن الشعر إلا أنه كان كثير الهجاء. وأهاجيه مشهورة، منها
الأرجوزة التي عملها في مباشري الدولة المنصورية الناصرية بدمشق، وهي مشهورة.
وفيها، في ليلة الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة، كانت وفاة الأمير عز الدين أزدمر

العلائي، أحد الأمراء بدمشق. وهو أخو الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري، رحمهما الله
تعالى.
وفيها، كانت وفاة الصاحب محيي الدين أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن ابراهيم بن
النحاس الأسدي. وكانت وفاته ببستانه بالمزة، في سلخ ذي الحجة ودفن في مستهل المحرم.
ولي الوزارة بالشام مراراً. ولما توفي، كان مدرساً بالمدرسة الريحانية والظاهرية وناظر
الخزانة، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة سبع وتسعين وستمائة
1297 - 1298
وصول الملك المسعود نجم الدين خضر
ومن معه من القسطنطينية الى الديار المصرية
كان السلطان قد كتب الى الأشكري، صاحب القسطنطينية، في سنة ست وتسعين
وستمائة، إذ تُجهّزوا أولاد الملك الظاهر الى الديار المصرية مكرمين، هم ومن معهم. فجهز
إليه الملك المسعود نجم الدين خضر ووالدته. وأحضر الملك العادل سلامش في تابوت
مصبراً. وكان قد مات بالقسطنطينية. وكان وصولهم في هذه السنة، فأكرمهم السلطان،
وأحسن إليهم. وكان قد تزوج إحدى بنات الملك الظاهر، فلذلك كتب بإحضارهم، ودفن
الملك العادل بدر الدين سلامش. ثم استأذن الملك المسعود السلطان في الحج، فأذن له،
فحج في هذه السنة. وجهزه السلطان بما يحتاج إليه. ولما عاد، سكن القاهرة المعزية.
وفي هذه السنة، كتب تقليد الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، بنيابة السلطنة الشريفة
بالشام المحروس، وجهز إليه إلى دمشق، فوصل إليه في يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول،
يزينه التشريف السلطان والسيف والحياصة والفرس. ويقال إنه تولى نيابة دمشق في هذه
المدة الماضية بغير تقليد، فوصل إليه الآن، فجدد الحلف للسلطان بحضور القضاة
والأمراء. وركب بكرة نهار الخميس، وعليه التشريف، وقبّل عتبة باب السر بقلعة دمشق
على العادة.
توجه الملك السلطان الناصر الى الكرك وإقامته بها
وفي هذه السنة، جهز السلطان الملك المنصور حسام الدين الملكَ السلطان الناصر الى

الكرك، فتوجه إليها، وتوجه في خدمته الأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار، فوصل إليها
في رابع شهر ربيع الأول. فأخبرني قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي، عن
خبر إرساله الى الكرك. قال: طلبني الملك المنصور حسام الدين، وقال لي: إعلم أن
السلطان الملك الناصر ابن أستاذي، وأنا والله في السلطنة مقام النائب عنه. ولو علمت أنه
الآن يستقل بأعباء السلطنة ولا تنخرم هذه القاعدة، ويضطرب الأمر، أقمته وقمت بين
يديه. وقد خشيت عليه في هذا الوقت، وترجح عندي إرساله الى قلعة الكرك. فيكون
بها الى أن يشتد عضده، ويكون من الله الخير. والله ما أقصد بإرساله إليها إبعاده ولكن
حفظه، وأما السلطنة فهي لي. وأمثال هذا الكلام. قال: فشكرته على ذلك، ودعوت له.
ولعل السلطان الملك المنصور، إنما قال هذا القول تطبيباً لقلب قاضي القضاة، لا حقيقة،
وكان في طي الغيب كذلك.
ولما توجه السلطان الملك الناصر الى الكرك، توجه في خدمته جماعة من مماليكه ومماليك
أبيه السلطان الملك المنصور، منهم الأمير سيف الدين بهادر الحموي المنصوري وهو
أكبرهم سناً، وهو القائم في خدمته مقام اللالا، والأمير سيف الدين أرغون المنصوري
الناصري الدوادار، وكان قد تربى في خدمة السلطان من صغره، وسيف الدين طيدمر
جوباش، رأس نوبة الجمدارية وغيرهم.
وكان النائب بالكرك يوم ذاك، الأمير جمال الدين أقش الأشرفي المنصوري وكان في خدمة
السلطان الملك الناصر بالكرك، وهو باق على نيابته بها.
القبض على الأمير بدر الدين بيسري الشمسي وغيره
وفي هذه السنة، في سادس شهر ربيع الآخر، قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسري
الشمسي الصالحي. واعتقله بالقاعة الصالحية، بقلعة الجبل. وكان مكرماً في اعتقاله،
وأحضر إليه زوجته المنصورية، والدة أحمد ابن السلطان الملك المنصور. وكان سبب ذلك
أن السلطان ندبه في هذه السنة لكشف جسور الجيزية وإتقانها. وهذه الوظيفة بالنسبة له
إطراح كثير له ولعظامته، وإن كانت كثيرة في حق غيره. فتوجه الى الجيزية بسائر مماليكه

وألزامه. فاجتمع معه جمع كثير، يقال إنهم كانوا نحو سبعمائة. وكان يحضر الى الخدمة في
يومي الإثنين والخميس. ويعود الى مخيمه. فلما تكامل إتقان الجسور، استأذن في عمل
ضيافة للسلطان هناك. فأذن له واهتم لها اهتماماً كثيراً. وحصل بسببها جملة من
الأغنام والأصناف وغير ذلك. وقرر مع السلطان أنه يحضر هذه الضيافة. فأوهم نائبه
الأمير سيف الدين منكوتمر، السلطان من خروجه وحذره منه. وأحضر بهاء الدين
أرسلان، أستاذ دار الأمير بدر الدين بيسري، وهو ابن مملوكه بدر الدين بيليك، أمير
مجلس. وكان قد ربى أرسلان هذا كالولد. فلما كبر قدّمه على جماعة من أكابر مماليكه
الذين كانوا في منزلة أبيه، وجعله أستاذ داره، وأحسن إليه إحساناً كثيراً، فخدعه الأمير
سيف الدين منكوتمر ولاطفه ووعده بإمرة طبلخاناة، إن هو أنهى الى السلطان، أن مخدومه
الأمير بدر الدين بيسري يقصد اغتياله. فأطمعت أرسلان نفسه، بما وعده منكوتمر،
ووافقه على ما قصده. وحضر الى السلطان وأوهمه من أستاذه أنه إن حضر ضيافته
قبض عليه وقتله. ثم عضّد ذلك أن الأمير بدر الدين بيسري، أرسل الى منكوتمر يطلب
منه الدهليز السلطاني، ليُنصب في مكان المهم، ولم يشعر بما وقع. فرُسم بتسليم الدهليز
لمماليك الأمير بدر الدين بيسري، وأن يتوجه مقدم الفراشين السلطانية ومن معه لنصبه، ولم
يطلع السلطان على ذلك. فلما حُمل الدهليز السلطاني على الجمال، ومرّ به المماليك
والغلمان، تحت القلعة ليتوجهوا به الى الجيزية، رآه السلطان من القلعة. فأرسل الى الأمير
سيف الدين منكوتمر، وسأله عن أمره، فأنكر أن يكون اطلع على شيء من حاله. وقال
إن مماليك بيسري أخذوه من الفراش خاناة السلطانية من غير استئذان. ثم قال للسلطان،
هذا مما يحقق صدق ما نقل عنه، وأغراه به. فأمر السلطان بإعادة الدهليز الى الفراش
خاناة.
وكان الحامل للأمير سيف الدين منكوتمر على ذلك أن أستاذه الملك المنصور حسام الدين،

كان قد عزم على أن يجعله ولي عهده بعده، كما فعل السلطان الملك المنصور، والملك
الظاهر بأولادهما، ويقرن اسمه مع اسمه في الخطبة، لأن لاجين لم يكن له ولد ذكر. فتحدث
في ذلك مع الأمير بدر الدين بيسري، فأنكره غاية الإنكار وأجاب عنه بأقبح جواب، وردّه
بأشنع ردّ. فكان مما حكى أنه قال للسلطان: اعلم أن مملوكك هذا الذي أشرت إليه، لا
يصلح للجندية، وقد أمّرته وقدمته، فصبر الناس لك على هذا. وجعلته نائب السلطنة،
ومشّيت الأمراء والجيوش في خدمته، فأجابوا الى ذلك، طاعة لك، وطلباً لرضاك، مع ما
تقدم من أيمانك عند السلطنة، أنك لا تقدم مماليكك على الأمراء، ولا تمكنهم منهم. ثم لم
تقنع له بما خوّلته فيه، ومكنته منه، ورفعته من قدره، حتى تقصد أن تجعله سلطاناً مثلك،
هذا لا يوافقك الناس عليه أبداً. وحذره من ذلك غاية التحذير، ونهاه عنه، وعن الحديث
فيه مع غيره. ولعمري لقد بالغ في النصيحة له. فأعلم السلطان منكوتمر، بما دار بينه وبين
الأمير بدر الدين بيسري في أمره، وبما أجاب به في معناه. فرأى منكوتمر أنه منعه مُلكاً
عظيماً، وسلبه أمراً جسيماً. وعلم أنه لا يتم له هذا الأمر، الذي أشار به السلطان، ولا
يتمكن منه، مع بقاء بيسري وأمثاله من الأمراء. فشرع في التدبير عليهم، وأغرى مخدومه
بهم. وابتدأ بالتدبير على بيسري. وعلم أنه إن ينقل عنه أمراً، ربما أن السلطان لا يتلقاه
بقبول، فأخذه من مأمنه. وتحيّل على أستاذ داره أرسلان، حتى أنهى عنه ما أنهاه. ثم
عضد ذلك بواقعة الدهليز، فتحقق ما نقل عنه. ولما وقع ذلك، أطلع عليه بعض الأمراء
الأكابر، فراسلوا الأمير بدر الدين بيسري، وأعلموه، بما اطلعوا عليه وكان ممن راسله في
ذلك، الأمير سيف الدين طقجي الأشرفي وغيره من الأمراء، وحذروه من السلطان، وحلفوا
له على الموافقة والمعاضدة. فلم يرجع الى قولهم، ولا أصغى إليهم. ثم أرسل إليه سيف
الدين أرغون، أحد مماليك الملك المنصور، وخاصكيته وأقربهم عنده، يخبره أن السلطان
قد عزم على القبض عليه، ويحذره من الحضور الى الخدمة، وإنه إن حضر يكون في أهبة

واستعداد. وكان الحامل لأرغون على ذلك، أن أستاذه أمّر غيره من مماليكه، ولم يؤمره
بطبلخاناة مع اختصاصه به، وإنما أعطاه إمرة عشرة، فوجد في نفسه. ومن العجب أن كل
واحد، من السلطان وبيسري، أُتي في هذا الأمر من مأمنه، وأذاع سره أخص الناس به.
فإن أرسلان كان من بيسري بالمكان الذي ذكرناه، كأعز أولاده عنده، وأرغون هذا كان
من أخص المماليك المنصورية الحسامية، حتى لقد بلغني أنه أعطاه في يوم واحد، سبعين
فرساً، وغير ذلك. فحمل أرسلان الطمع بالإمرة، وحمل أرغون الغيرة من تقديم أمثاله
عليه. ففعلا ما فعلا، ونقلا ما نقلا.
وحضر الأمير بدر الدين بيسري الى الخدمة، في يوم الإثنين السادس من شهر ربيع الآخر.
فأخبرني ركن الدين بيبرس الجمدار، أحد المماليك البدرية، الذين كانوا معه، يوم القبض
عليه، أنه لما عبر الى الخدمة، تلقاه السلطان قائماً على عادته. وجلس إلى جانبه، وبالغ
السلطان في إكرامه. ولما قدم السماط، امتنع الأمير بدر الدين من الأكل، واعتذر بالصوم.
فأمر السلطان برفع مجمع من الطعام لفطوره، فرفع له. وبقي السلطان يحادثه سراً، ويؤانسه
ويشغله عن القيام، الى أن رفع السماط. وخرج الأمراء، وقام الأمير بدر الدين معهم على
عادته. فلما انتهى الى بعض الإيوان، استدعاه السلطان، فعاد إليه. فقام له أيضاً وجلس
معه، وحدّثه طويلاً. والحجاب والنقباء يستحثون الأمراء على الخروج. ثم قام بيسري،
فاستدعاه السلطان أيضاً، فعاد إليه. وقام السلطان له، وجلس معه وتحدثا.
قال الحاكي لي: ورأيت السلطان قد ناوله شيئاً من جيبه، ما أعلم ما هو، فتناوله الأمير
بدر الدين، ووضعه في جيبه، وقبّل يد السلطان وفارقه. وقد خلى المجلس والدهاليز إلا
من المماليك السلطانية. فلما خرج، أتاه الأمير سيف الدين طقجي، والأمير علاء الدين
ايدغدي شقير الحسامي، وعدلا به الى جهة أخرى. وقبض ايدغدي شقير على سيفه،
وأخذه من وسطه، ونظر إليه طقجي وبكى عند القبض عليه. وتوجها به الى المكان الذي

جهز لاعتقاله به. ولم يزل الأمير بدر الدين معتقلاً الى أن مات، في الدولة الناصرية على ما
نذكره إن شاء الله تعالى.
وقبض السلطان أيضاً على الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي الحاجب، ونُقل الأمير
سيف الدين كرد أمير آخور الى الحجبة. وقُبض على الأمير شمس الدين سنقر شاه
الظاهري. وقبض أيضاً في أواخر السنة على الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري.
وفي جمادى الأولى، أمر السلطان بمصادرة القاضي بهاء الدين بن الحلي ناظر الجيوش
المنصورة، وأخذ خطه بألف ألف درهم، وعزله عن الوظيفة. وأحضر عماد الدين بن
المنذر، ناظر جيش الشام، فولاه النظر. وكان قد جلس في نظر الجيش، فيما بين عزل بهاء
الدين وحضور ابن المنذر، القاضي أمين الدين المعروف بابن الرفاقي. فلما وصل ابن
المنذر، فوض إليه النظر. ومرض أمين الدولة، وانقطع في داره لما حصل له من الألم.
وفي هذه السنة، أقيمت الخطبة وصلاة الجمعة بالمدرسة المعظمية بسفح قاسيون، ولم تكن
قبل ذلك، وخطب بها مدرسها شمس الدين بن الشرف بن العز الحنفي، في يوم الجمعة
عاشر ربيع الآخر، باتفاق الملك الأوحد ناظر المدرسة.
إعادة الصاحب فخر الدين عمر بن الخليلي الى الوزارة
وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، رسم السلطان بإعادة الصاحب الوزير فخر الدين عمر
ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز الخليلي الى الوزارة فعاد، وصادر ألزام الأمير شمس الدين
سنقر الأعسر.
تجريد العساكر الى سيس وما فتح من قلاعها
وفي هذه السنة، جرّد السلطان الأمير بدر الدين بكتاش الفخري الصالحي أمير سلاح،
والأمير حسام الدين لاجين الرومي، أستاذ الدار، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاي، ومن
معهم من مضافيهم. وأمرهم أن يتوجهوا الى بلاس سيس. فتوجهوا من القاهرة، في جمادى
الأولى، والمقدم على الجيش أجمع الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح.
وكان وصولهم الى دمشق في يوم الخميس، خامس جمادى الآخرة، وتوجهوا منها في ثامن

الشهر. وجرّد معهم من عسكر دمشق، الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق، والأمير
سيف الدين كجكن، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصوري ومضافيهم. وجرد العسكر
الصفدي، ومقدمه الأمير علم الدين أيدغدي الإلْدِكزي. وجرد جماعة من العسكر
الطرابلسي، والملك المظفر صاحب حماه بعسكرها.
ولما اتصل خبر تجريد العسكر بصاحب سيس، جهز رسله الى الأبواب السلطانية،
يستعطف السلطان، ويسأله مراحمه، فلم تجدِ رسالته نفعاً. ووصلت هذه العساكر الى
حلب. وأردف السلطان هذه العساكر بالأمير علم الدين سنجر الدواداري، أحد مقدمي
العساكر بالديار المصرية، ومضى فيه، فخرج مسرعاً، وأدرك الجيش بحلب. وجرد من
العسكر الحلبي الأمير علم الدين المعروف بالزغلي والأمير علم الدين سنجر الحلبي،
ومضافيهما. وتوجهت هذه الجيوش بجملتها الى بلاد سيس. فلما نزلوا بالعمق، افترقت
العساكر فرقتين. فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش، أمير سلاح، والأمير حسام الدين أستاذ
الدار، والأمير ركن الدين الجالق، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان، والعسكر الصفدي من
عقبة بغراس الى باب اسكندرونة، ونازلوا تل حمدون. وتوجه الملك المظفر صاحب حماه،
والأمير علم الدين سنجر الدواداري، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاي، وبقية الجيش من
عقبة المريت. وصار نهر جهان بين الفريقين وكان دخولهم الى دربند سيس، في يوم
الخميس، رابع شهر رجب.
ولما صاروا ببلاد سيس، اختلف الأمير بدر الدين أمير سلاح، والأمير علم الدين
الدواداري بالإغارة والاقتصار عليها. وقال أنا المقدم على هذه الجيوش كلها، وأنا آخركم
عهداً بالسلطان، وإنما رسم السلطان بالإغارة. فاضطر أمير سلاح ومن معه، لموافقة
الدواداري، وقطعوا جهات من مخاضة العمودين، وتوجهوا للإغارة. فتوجه صاحب حماه
والدواداري، ومن معهما الى سيس نفسها. وتوجه أمير سلاح ومن معه الى ناورزه، وأقاموا
عليها يوماً وليلة. ورحلوا الى أذنة، واجتمعت الطائفعتان بها، بعد أن قتلوا من ظفروا به

من الأرمن، واستاقوا ما مروا به من الأبقار والجواميس. وعادوا من أذنة الى المصيصة
بعد الإغارة، وأقاموا بها ثلاثة أيام، حتى نصبوا جسراً مرت العساكر عليه، ورجعوا الى
بغراس، ثم الى مرج أنطاكية. وأقاموا ثلاثة أيام، ورحلوا الى جسر الحديد بأرض الروج،
عازمين على العود الى الديار المصرية، بالعساكر المصرية الى مستقرها.
وكان الأمير بدر الدين أمير سلاح، لما نازعه الدواداري في التقدمة، ومنعه من الحصار،
وصمم على الاقتصار على الإغارة، قد كتب الى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، نائب
السلطنة بالمملكة الحلبية، يعلمه بما وقع والتمس منه مطالعة السلطان بذلك. فطالع بصورة
الحال، فورد الجواب من السلطان، والعساكر بالروج، يتضمن الإنكار على الأمير علم الدين
الدواداري، كونه ادعى التقدمة على الأمير بدر الدين أمير سلاح، واقتصر على الإغارة،
وأن الدواداري إنما خرج مقدماً على مضافيه خاصة، وأن التقدمة على سائر الجيوش
للأمير بدر الدين أمير سلاح. ورسم السلطان أن العساكر لا تعود، إلا بعد فتح تل
حمدون. وإن عادت قبل فتحها، فلا إقطاع لهم بالديار المصرية؛ الى غير ذلك من الحث
على فتحها. فعند ذلك، عطفت العساكر من الروج الى جهة حلب، ووصلوا إليها، وأقاموا
بها ثمانية أيام، وتجهزوا منها بما يحتاجون إليه. ودخلوا الى بلاد سيس بأثقالهم، وعبروا
بجملتهم من عقبة بغراس. وجرد الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح، الأميرين سيف الدين
كجكن، وبهاء الدين قرا أرسلان، الى إياس، فأكمن لهم الأمن في البساتين، فلم تتمكن
العسكر من قتالهم، ورحلوا شبه المنهزمين، فأنكر أمير سلاح وسبهم، فاعتذروا بضيق
المسلك والتفاف الأشجار، وعدم التمكن من العدو. ثم رحل بجميع الجيش، ونزل على تل
حمدون، فوجدها خالية، وقد انتقل من بها من الأرمن الى قلعة نُجيمة، فتسلمها، في سابع
شهر رمضان، وسلمها للأمير علم الدين الشيباني، النائب ببغراس.
ولما دخل الجيش الى بلاد سيس، جرّد الأمير سيف الدين الطباخي، نائب السلطنة

بحلب، طائفة من عسكرها، ومن انضم إليهم من التركمان وغيرهم، ففتحوا قلعة مرعش،
في عاشر شهر رمضان أيضاً. ثم جاء الخبر الى العسكر أن وادياً تحت قلعة نجيمة
وحموص قد امتلأ بالأرمن، وأن المقاتلة من قلعة نجيمة يحمونهم. فندب إليه طائفة من
العسكر، فرجعوا ولم يبلغوا غرضاً. ثم سيّر طائفة ثانية، فرجعوا كذلك. فرحل الأمراء
بجملتهم في نفر من أعيان الجيش وأقويائه، وقاتلوا أهل نجيمة، حتى ردوهم الى القلعة.
ثم تقدم الجيش الى الوادي، وقتلوا من به من الأرمن، وأسروا ونهبوا، ونازلوا قلعة نجيمة،
ليلة واحدة. ثم خرج العسكر الى الوطاة، وبقي صاحب حماه وأمير سلاح، في مقابلة من
بالقلعة، حتى خرج العسكر، خشية أن يخرج أهل نجيمة، فينالوا من أطراف العسكر. ثم
خرجوا بجملتهم واجتمعوا بالوطاة. فوصل البريد بكتب السلطان، يتضمن أنه بلغه أن تل
حمدون أخليت، وأنها أخذت بغير قتال ولا حصار، وانتقل من بها الى قلعة نجيمة. وأمر
بمنازلة قلعة نجيمة وحصارها، الى أن تفتح، فعادت العساكر إليها وحاصروها. واختلف
أمير سلاح والدواداري أيضاً، فقال الدواداري: إن هذا الجيش بجملته إذا نازل هذه القلعة،
لا يظهر من اجتهد وقاتل، ممن تخاذل وعجز. والقتال عليها إنما هو من وجه واحد. والرأي
أن يتقدم في كل يوم مقدم ألف، ويزحف بجماعته ليظهر فعله، واستقل القلعة واستصغرها
وحقّر أمرها. وكان في جملة كلامه أن قال: أنا آخذ هذه القلعة في حجري. فاتفق الأمر
على أن يتقدم الدواداري بألفه، للزحف في أول يوم. فزحف بمن معه حتى لاحف السور.
فأصابه حجر منجنيق في مشط رجله، فقطعه وسقط الى الأرض. فتبادر الأرمن بالنزول
إليه، وكادوا يأسرونه. فحمل أمير سلاح بجماعته، حتى حجزهم عنه. وأخرج الدواداري
على جنوية، وحمل الى وطاقه. وعادوا الى حلب، ثم توجه منها الى الديار المصرية. وقد
سكنت نفسه، ونقصت حرمته عما كانت عليه، وكان قبل ذلك له حرمة وافرة. وقتل
الأمير علم الدين سنجر طقصها الناصري، على هذه القلعة.
وزحف الأمير شمس الدين

آقسنقر كرتاي في اليوم الثاني، وانتهى الى سور القلعة ونقبه، وخلّص منه ثلاثة أحجار.
واستشهد من مماليكه وأجناده أحد عشر رجلاً، ونفران من الحجارين.
ثم زحف أمير سلاح، وصاحب حماه، وبقية الجيش. ورتّبهم أمير سلاح طوائف، طائفة
تتلو أخرى. وقرر معهم، أن يردف بعضهم بعضاً. وتقدموا بالجنويات، حتى وصلوا الى
السور، وأخذوا مواضع النقوب، وأقاموا الستائر. ولازموا الحصار عليها واحداً وأربعين
يوماً. وقد اجتمع بها جمع كثير من الفلاحين والنساء والصبيان من أهل القرى المجاورة لها،
فقلّت المياه بالقلعة. فاضطر الأرمن الى إخراجهم منها، فأخرجوهم في ثلاث دفعات.
فأخرجوا في المرة الأولى مائتي رجل، وثلاثمائة امرأة ومائة وخمسين صبياً. فقتل العسكر
الرجال، وتفرقوا النساء والصبيان. ثم أخرجوا في المرة الثانية مائة وخمسين رجلاً، ومائتي
امرأة، وخمسة وسبعين صبياً، ففعلوا بهم كذلك. ثم أخرجوا جماعة أخرى في المرة
الثالثة. ولم يتأخر بالقلعة إلا المقاتلة، وقلّت عندهم المياه، حتى اقتتلوا بالسيف على الماء،
فسألوا الأمان فأعطوه، وسلموا القلعة في ذي القعدة من السنة. وخرجوا منها، وتوجهوا
الى مأمنهم.
وفي أثناء هذا الحصار، وصلت الى العسكر مفاتيح النقير وحجر شغلان وسرقند كار
وزنجفره وحموص، وتتمة أحد عشر حصناً من حصون الأرمن. وسلم الأمير بدر الدين
أمير سلاح هذه الفتوح الى الأمير سيف الدين استدمر كرجي أحد الأمراء بدمشق،
وجعله نائباً بها. فلم يزل استدمر بهذه الحصون، الى أن بلغه حركة التتار وقربهم، فأباع ما
بها من الحواصل وتركها خالية، فاستولى الأرمن عليها.
ولما تكامل هذا الفتح، عادت العساكر الى حلب، ونزلوا بها، ليريحوا خيولهم. وترادف
عليهم الأمطار وتزايدت، حتى سكنوا الخانات والدور. ثم أردفهم السلطان بتجريدة
أخرى، من الديار المصرية، صحبة الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير سيف
الدين طقطاي، والأمير مبارز الدين أوليا ابن قرمان، والأمير علاء الدين ايدغدي شقير

الحسامي. فوصلوا الى دمشق، في ذي القعدة، وتوجهوا الى حلب، وأقاموا بها مع
العسكر. وجهز صاحب سيس رُسلاً الى الأبواب السلطانية يسأل عواطف السلطان
ومراحمه. واستمر العسكر بحلب ينتظرون ما يرد عليهم، من أبواب السلطان. فأقاموا
عليها شهوراً، إلا الأمير حسام الدين أستاذ الدار، فإنه توجه الى الأبواب السلطانية، على
خيل البريد. وكان عود هذا العسكر الى الديار المصرية، ووصوله الى القاهرة، في منتصف
شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وتسعين وستمائة، بعد مقتل السلطان بثلاثة أيام على ما نذكره
إن شاء الله تعالى.
حادثة غريبة ظهر فيها آية من آيات الله عز وجل
وفي سنة سبع وتسعين وستمائة، في العشر الأول، من جمادى الأولى، ورد على السلطان
الملك المنصور حسام الدين لاجين، مطالعة مضمونها: أن شخصاً بقرية جينين، من الساحل
الشامي، كانت له زوجة، فتوفيت الى رحمة الله تعالى. فحملت بعد تغسيلها وتكفينها
ودفنت. فلما عاد زوجها من المقبرة، تذكر أن منديله وقع في القبر، وفيه جملة من
الدراهم. فأتى الى فقيه القرية، فاستفتاه في نفش القبر. فقال له في ذلك يجوز نبشه وأخذ
المال منه. ثم تداخل الفقيه المفتي في ذلك شيء في نفسه. فقام وحضر معه الى القبر،
فنبش الزوج القبر ليأخذ المال، والفقيه على جانب القبر. فوجد الزوج زوجته مقعدة
مكتوفة بشعرها، ورجليها متكوفتين بشعرها، فحاول حل كتافها، فلم ينحل له ذلك، فأمعن
في ذلك، فخسف به وبزوجته. ولم يوجد أو لم يعلم للخسف منتهى. وأما الفقيه فإنه أقام
مغشياً عليه يوماً وليلة أو ليلتين. - نسأل الله أن يسترنا ولا يفضحنا، وأن لا يؤاخذنا بسوء
أفعالنا - ولما وردت المطالعة على السلطان بهذه الحادثة، عرضها على شيخنا قاضي
القضاة تقي الدين ابن دقيق العبد وغيره. وكتب يستعلم عن سيرة هذه المرأة والزوج
المخسوف بهما، فما علمت ما وردت عليه من الجواب في ذلك.
روك الإقطاعات بالديار المصرية وتحويل السنة
وفي سنة سبع وتسعين وستمائة أيضاً، رسم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين،

بروك الإقطاعات والمعاملات والنواحي والجهات بالديار
المصرية. وندب لذلك من الأمراء،
الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب، والأمير بهاء الدين
قراقوش الظاهري، المعروف
بالبريدي.
وتوجه الكشاف الى الأقاليم البرانية، بالوجهين القبلي
والبحري، ومسحوا البلاد مساحة
روك، وحرروا الجهات وعادوا. وانتصب لهذا جماعة من الكتاب،
كان المشار إليه فيهم،
تاج الدين عبد الرحمن المعروف بالطويل، وهو أحد مستوفيي
الدولة، من مسالمة القبط،
وممن يشار إليه في معرفة صناعة الكتابة، ويعتمد على قوله،
ويرجع إليه فيها، فرتب ذلك
على حسب ما اقتضاه رأي السلطان في تقريره.
واستقر في الخاص السلطاني الأعمال الجيزية والأطفيحية
وثغر الاسكندرية وثغر دمياط
ومنفلوط وكفورها، وهو، والكوم الأحمر من الأعمال القوصية،
وفي كل إقليم بلاد.
وتقرر إقطاع نيابة السلطنة من أعظم الإقطاعات وأكثرها
متحصلاً. فكان من جملته
بالأعمال القوصية، مرج بني هميم وكفورها، وسمهود
وكفورها، ودواليبها ومعاصرها،
وحَرَجَة مدينة قوص وأدفو. وهذه النواحي يزيد متحصلها من
الغلال خاصة، على مائة
ألف وعشرة آلاف أردب، خارجاً عن الأموال والقنود والأعسال
والتمر والأحطاب وغير
ذلك. وفي كل إقليم من الديار المصرية نواحي ومعاصر، فكان
في خاصه سبع وعشرون
معصرة، لاعتصار قصب السكر.
وكان نجاز الروك في ذي الحجة سنة سبع وتسعين وستمائة.
واستقبل به سنة ثمان
وتسعين الهلالية. وحوّلت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين
الى سنة سبع وتسعين.
وهذا التحويل جرت به العادة، بعد انقضاء ثلاث وثلاثين سنة،
تحول سنة، وهو التفاوت
فيما بين السنة الشمسية والقمرية. فيجمع من ذلك في طول
السنة، ما ينغمس به سنة.
وهو حجة ديوان الجيش في اقتطاع التفاوت الجيشي. وقيل إن
قوله تعالى: "ولبثوا في كهفهم
ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً"، إن التسعة هي هذا التفاوت، ما
بين السنتين، والله تعالى

أعلم. وهذا التحويل لا ينقص بسببه شيء من الأموال البتة، وإنما هو تحويل بالأقلام
خاصة.
ولما نجز هذا الروك، أقطعت البلاد للأمراء والأجناد دربسته، لم يستثن منها غير الجوالي
والمواريث الحشرية، فإن ذلك جعل في جملة الخاص السلطاني. واستثنيت الرزق
الأحباسية المرصدة لمصالح الجوامع والمساجد، والربط والزوايا، والخطباء والفقراء.
واستقرت في سائر البلاد على ما يشهد به ديوان الأحباس. وما عدا ذلك من سائر الأموال
وغيرها، دخل في الإقطاع.
وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير عز الدين الجناجي، نائب السلطنة ومقدم العسكر بغزة.
وكان قبل وفاته قد أودع عند بخر الدين الأعزازي التاجر بقيسارية الشرب بدمشق
صندوقاً، ولم يطلع على ذلك إلا خزنداره. وكان الصندوق المودع عنده قبل ذلك وديعه،
عند بعض أصحاب الأمير المذكور، فأخذ منه، ثم أودع عند فخر الدين. واتفقت وفاة
خزندار الأمير، وهو الذي اطلع على الوديعة قبل وفاة مخدومه بأيام. ثم مات الأمير، فلما
اتصلت وفاته بفخر الدين الاعزازي، اجتمع بقاضي القضاة إمام الدين الشافعي بدمشق،
وعرفه خبر الوديعة. فأمره بالتأني في أمرها؛ حتى تثبت وفاة المذكور، ويتحقق أمر ورثته،
ففعل ذلك. وفي أثناء ذلك، طلب الأمير سيف الدين جاغان؛ شاد الدواوين بالشام، الوديع
الأول وطالبه بما عنده من الوديعة. فادعى أن الجناجي استعاد ذلك منه، فلم يصدقه،
وقصد ضربه وعقوبته، بسبب ذلك. فأتاه فخر الدين المذكور واعترف أن الوديعة عنده،
وأحضر الصندوق الى الديوان السلطاني. وفُتح واعتبر ما فيه، فكان فيه من الذهب اثنان
وثلاثون ألف دينار، ومائتا دينار، وأربعة وثلاثون ديناراً، وحوائص ذهب، وطرز زركش
بتتمة خمسين ألف دينار، هكذا نقل إليّ ثقة.
وفيها، توفي الأمير سيف الدين بلبان الفاخري، أمير نقباء العساكر المنصورة بالأبواب
السلطانية، وكانت وفاته في رابع عشر ربيع الآخر. وأعطي إقطاعه سيف الدين بكتمر

الحسامي الطرنطاي أمير آخور. وكان السلطان، قبل ذلك أمّره بعشرة طواشية، فنقله الآن
الى إمرة الطبلخاناة. ثم تنقّل بعد ذلك في المناصب والنيابات عن السلطنة والوزارة وغير
ذلك، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في مواضعه.
وفيها، في يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى، كانت وفاة الأمير سعد الدين كوجا
الناصري. وكان يتولى نيابة دار العدل، وتولى ثغر الاسكندرية وكان بيده إمرة عشرة
طواشية.
وفيها، توفيت الخاتون الجليلة الكبرى، نسب خاتون، ابنة الملك الجواد مظفر الدين يونس
بن شمس الدين مودود ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر أيوب، في العشر
الأوسط في شهر ربيع الأول. ودفنت عند والدها بقاسيون، رحمهما الله تعالى.
واستهلت ثمان وتسعين وستمائة
في هذه السنة، في أولها جهز السلطان الأمير جمال الدين أقش الأفرم، والأمير سيف الدين
حمدان بن صلغاي الى الشام، وأمرهما أن يتوجها الى دمشق، ويخرجا نائب السلطنة الأمير
سيف الدين قبجاق وبقية العسكر الى البلاد الحلبية. فوصلا الى دمشق على خيل البريد،
في يوم الأربعاء سابع المحرم. فتجهز الأمير سيف الدين قبجاق نائب السلطنة، وخرج بسائر
عساكر دمشق حتى بحرية القلعة، وجماعة الأمير علم الدين سنجر أرجواش نائب القلعة،
وتأخر بدمشق الأمير سيف الدين جاغان. وكان خروج نائب السلطنة من دمشق، في
عشية الأربعاء، رابع عشر المحرم، وبات بالميدان الأخضر.
وركب في بكرة النهار؛ وتوجه
بالعساكر الى جهة حمص. وكان سبب هذه الحركة ظاهراً، أن السلطان بلغه أن التتار قد
عزموا على الدخول الى البلاد الإسلامية بالشام. وعلم الأمير سيف الدين قبجاق، أن
الأمر ليس كذلك. فإن القصاد قبل ذلك بيسير، حضروا إليه من بلاد الشرق، وأعلموه أن
التتار كانوا قد تجهزوا وعزموا على الحضور الى الشام. فلما كانوا بأثناء الطريق، وقعت
عليهم صواعق كثيرة، وأهلكت منهم خلقاً كثيراً، فتفرقوا في مشاتيهم، ولم يرد خلاف

ذلك. والقصاد لا تصل الى الباب السلطاني بالديار المصرية، إلا بعد الاجتماع بنائب
السلطنة بدمشق، فاستشعر الأمير سيف الدين قبجاق السوء، وعلم أن هذه الحركة إنما
هي تدبير عليه، وعلى غيره من الأمراء. فأوجب ذلك توجههم الى التتار.
مفارقة من نذكر من نواب السلطنة والأمراء
الخدمة السلطانية، ولحاقهم بقازان ملك التتار
وفي هذه السنة، في شهر ربيع الآخر، توجه الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، نائب
السلطنة بالشام، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، أحد مقدمي الجيوش المنصورية
المصرية، والأمير فارس البكي الساقي، نائب السلطنة بالمملكة الصفدية، والأمير سيف
الدين بزلار، والأمير سيف الدين عزار الصالحي، الى بلاد التتار، والتحقوا بملكها قازان
محمود.
وسبب ذلك أن الأمير سيف الدين منكوتمر، نائب السلطنة، ثقلت عليه وطأة الأمراء
الأكابر. وقصد القبض عليهم أولاً، وإقامة خوشداشيته ليصفو له الوقت، ويخلص له الأمر،
ويتمكن السلطان بما قصده من تفويض ولاية العهد بعده له. فحسّ للسلطان القبض على
من تقدم ذكرهم، فقبض عليهم. ثم شرع في التدبير على من بالشام من الأمراء والنواب،
الذين يعلم منهم الممالاة والمناوأة. فجهز الأمير علاء الدين ايدغدي شقير الى حلب، كما
تقدم، وأردفه بالأمير سيف الدين حمدان بن صلغاي، وعلى يده كتاب الى نائب السلطنة
بالمملكة الحلبية، بالقبض على الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، وعلى الأمير فارس
الدين البكي، والأمير سيف الدين طقطاي، والأمير سيف الدين بزلار، والأمير سيف الدين
عزار. ومن يعذر عليه القبض عليه، يتحيّل في سقيه. فسقي الأمير سيف الدين طقطاي
فمات بحلب، في أول شهر ربيع الأول. واتصل الخبر ببقية الأمراء، فاحتاطوا لأنفسهم،
واحترزوا في مأكلهم ومشربهم وملبسهم. وأعمل الأمير سيف الدين الطباخي الحيلة في
القبض عليهم، وذلك بعد خروجهم من سيس. فجهز سماطاً، واحتفل به، وتحدث مع

الأمراء أن يتوجهوا معه، ويحضروا السماط، فامتنعوا من ذلك، واعتذروا له، وتوجهوا الى
خيامهم. فلم تجمع هذه المكيدة. وكان السلطان قد كتب الى الأمير سيف الدين بكتمر
السلاح دار، أن يجهز طُلبه وأثقاله الى المملكة الطرابلسية، ويكون نائباً عن السلطنة بها،
وذلك بعد وفاة الأمير عز الدين أيبك الموصلي. وأن يحضر هو بنفسه الى الأبواب
السلطانية، على خيل البريد، ليوصيه السلطان مشافهة. فأظهر البشر لذلك، وعلم أنه
خديعة.
ولما كان في مساء النهار، الذي عمل الطباخي فيه السماط، اجتمع الأمير سيف الدين
الطباخي النائب بحلب، والأمير سيف الدين كجكن، والأمير علاء الدين ايدغدي شقير،
وأرسلوا الى الأمير بكتمر السلاح دار والبكي ومن معهما، يطلبونهم للحضور لمشورة. وأن
سبب هذا الاجتماع، أن بطاقة وردت في البيرة في أواخر النهار، تتضمن أن التتار أغاروا
على ما حول البيرة، فأجابوا بالامتثال، وأنهم يحضرون الى الخدمة في إثره. فعاد، وركبوا في
الوقت على حميّه.
فأما بزلار فإنه ساق هو وخمسة نفر، وعبر الفرات الى رأس العين وانتهى الى سنجار فتوفي
بها. وأما الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير فارس الدين البكي، والأمير
سيف الدين عزار، فإنهم توجهوا الى حمص، واجتمعوا بالأمير سيف الدين قبجاق،
وأطلعوه على جلية الحال، وحلفوه لأنفسهم، وحلفوا له. وكتب الى السلطان يعلمه بما وقع
من الاختلاف، وبوصول الأمراء إليه، ويسأل لهم الأمان وأن يطيب السلطان خواطرهم.
وسيّر بذلك الأمير سيف الدين بلغاق ابن الأمير سيف الدين كونجك الخوارزمي على خيل
البريد. فوصل الى دمشق، في يوم السبت خامس شهر ربيع الآخر، وتوجه منها الى باب
السلطان.
وكتب الأمير سيف الدين قبجاق الى الأمير سيف الدين جاغان، وهو بدمشق، يطلب
منه أن يرسل إليهم مالاً وخلعاً من الخزانة، لينفق المال على الأمراء، ويخلع عليهم، ويطيب

خواطرهم. فلم يجب الى ذلك. وكتب إليه يلومه على إغفاله أمر الأمراء، الذين وصلوا
إليه، وهم طلبة السلطان، وكونه تمكن من القبض عليهم، ولم يفعل. وكتب إليه الأميران
سيف الدين كجكن، وعلاء الدين ايدغدي شقير، وهما يلومانه وينكران عليه كونه أقر
هؤلاء الأمراء عنده، مع تمكنه من القبض عليهم، وقد علم خروجهم على الطاعة وأغلظا
له في القول، وتوعداه، أنه متى لم يقبض عليهم، حضروا إليه، وقبضوا عليه وعليهم.
وكاشفاه في القول مكاشفة ظاهرة. فتسلل عن الأمير سيف الدين قبجاق من معه من
العسكر الشامي، وعادوا الى دمشق، أولاً فأولاً. فكتب الى جاغان في ذلك، وأن يردهم
إليه، فلم يفعل. وشكر جاغان من حضر.
فرأى الأمير سيف الدين قبجاق أن أمره قد انتقص، وبلغه أن العسكر المجرد بحلب قد
توجه نحوه. فركب في ليلة الثلاثاء، ثامن شهر ربيع الآخر من حمص، هو والأمير سيف
الدين بكتمر السلاح دار، والأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف الدين عزار، وقبضوا
على الأمير علاء الدين أقطوان النائب بحمص، واستصحبوه معهم الى القريتين، ثم أخذوا
فرسه وأطلقوه. وتوجهوا في جماعة، يقال إن عدة من صحبهم من ألزامهم ومماليكهم
خمسمائة فارس. وتوجهوا لا يلوون على شيء، وتعقبهم الأمير سيف الدين كجكن والأمير
علاء الدين ايدغدي شقير، في طائفة من العسكر الى الفرات، فما أدركوهم، ووجدوا بعض
أثقالهم فأخذوها.
ثم ورد عليهم الخبر بقتل السلطان، فانحلت عزائمهم، وتفللت آراؤهم. وساق سيف
الدين بلبان القصاص البريدي الى رأس عين، ولحق الأمير سيف الدين قبجاق بها. وأعلمه
بمقتل السلطان، وسأله الرجوع بمن معه. وحلف له على صحة ما أخبره به، فظن أن ذلك
مكيدة. ثم تحقق الحال بعد ذلك وقد تورط، وصار في بلاد العدو، فلم يمكنه الرجوع.
ولما وصل الأمراء الى رأس عين، بلغ مقدم التتار بتلك الجهة خبر وصولهم، فخافهم. ثم
تحقق أنهم حضروا الى خدمة الملك قازان، فحضر إليهم وأكرمهم، وخدمهم صاحب

ماردين، وقدم لهم أشياء كثيرة. وقصد بولاي مقدم التتار، بتلك الناحية، أن الأمراء
يتوجهون الى جهة قازان على خيل البريد. ويتأخر من معهم من أتباعهم وألزامهم عن
الوصول الى البلاد، حتى يرد المرسوم. فامتنع قبجاق من ذلك، وأبى إلا الدخول بالطُلب
والجماعة الذين معه، فامتنع التتار عليه. فيقال إنه أخرج إليهم كتاب الملك قازان إليه، وهو
في بالشت ذهب. فعند ذلك خضعوا له، ومكنوه مما أراد، من الدخول بالطُلب. وتوجهوا
كذلك، ودخلوا الى الموصل بطُلبين، والتقاهم أهل البلد. وتوجهوا من الموصل، وانتهوا الى
بغداد. فخرج إليهم عسكر المغل والخواتين والتقوهم. ثم توجهوا الى قازان، وهو يومئذ
بأرض السيب من أعمال واسط. فأكرمهم وأحسن إليهم، وأوجب ذلك وصول قازان
بجيوشه الى الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

مقتل الملك المنصور حسام الدين
لاجين المنصوري ونائبه منكوتمر

كان مقتلهما في ليلة يسفر صباحها عن يوم الجمعة، الحادي عشر من شهر ربيع الآخر،
سنة ثمان وتسعين وستمائة. وسبب ذلك، أن السلطان كان قد فوض الأمور الى مملوكه نائبه
الأمير سيف الدين منكوتمر، وقصد التخلي والراحة والدعة، وعزم على أنه إذا خلي وجهه
من الأمراء، وقبض على من يخشى غائلته منهم، فوّض إليه أمر السلطنة، واحتجب هو،
على قاعدة الخلفاء. وإنما كان يمنعه من ذلك، وجود أكابر الأمراء، الذين لا يوافقونه على
الرأي هذا. فلما قبض على من ذكرنا من أكابر الأمراء، وأبعد من بقي منهم بالتجريد الى
جهة الشام، استخف حينئذ منكوتمر، بمن بقي منهم، واستبد بالأمر. وآخر ذلك، أن
السلطان رسم له أنه إذا كُتب مرسوم سلطاني بإنعام أو غيره، بغير إشارته، يقطعه بعد
العلامة السلطانية. فثقلت وطأته على الناس، وأنفت نفوس الأمراء من ذلك، وكرهوا بقاء
الدولة، وأحبوا زوالها بسببه، مع إحسان السلطان إلى كثير منهم. وكان الأمير سيف
الدين كرجي، أحد الأمراء المماليك السلطانية، قد اختص بخدمة السلطان، وتقدم عنده،

وجعله مقدماً على المماليك السلطانية، على ما كان عليه الأمير شمس الدين قراسنقر
المنصوري، في الدولة الأشرفية. فبقي كرجي هو الساعي في مصالح المماليك السلطانية
والمتلقي لمصالحهم، فانضموا إليه ودخلوا تحت طاعته، وقويته شوكته بهم، وشوكتهم به.
فثقل ذلك على منكوتمر، وعمل على إبعاده. وحسّن الى السلطان أن يبعثه الى نيابة
السلطنة بالفتوحات ببلاد سيس.
وكان قد تقدم من الأمراء، قبل كرجي، الأمير سيف الدين تمربغا، فعمل عليه منكوتمر
وأبعده وأخرجه الى الكرك. ثم نقله من الكرك الى طرابلس، في جملة الأمراء، فمات بها.
فلما اتصل الخبر بكرجي، حضر الى بين يدي السلطان، وتضرر واستعفي من هذه الولاية
فأعفاه السلطان، وشرع في العمل على منكوتمر. واتفق أن الأمير سيف الدين طقطاي،
أحد الأمراء الخاصكية، وهو نسي الأمير سيف الدين طقجي، خاطب منكوتمر في أمر
فأغلظه في القول، وسبّه، فشكا ذلك الى الأمير سيف الدين طقجي، فأسرّها في نفسه.
واجتمع هؤلاء الأمراء، وتشاكوا فيما بينهم، وذكروا سوء سيرة منكوتمر فيهم، وقبح فعله
واستخفافه بهم. وعلموا أنهم لا يتمكنون منه، مع بقاء السلطان مخدومه، فاجتمع رأيهم
على اغتيال السلطان.
فلما كان في هذه الليلة المذكورة، جلس السلطان يلعب الشطرنج مع إمامه نجم الدين بن
العسال، وكان قد تقدم عنده، وعنده قاضي القضاة حسام الدين الحنفي، وكانت له عادة
بالمبيت عند السلطان في بعض الليالي. فدخل عليه كرجي على عادته، فسأله السلطان
عما فعل. فقال: قد أغلقت على الصبيان في أماكن مبيتهم، وكان قد رتب بعضهم في
أماكن من الدهليز. فشكره السلطان وأثنى عليه. وذكر للقاضي حسام الدين خدمته
للسلطان، وملازمته الخدمة. فقبّل كرجي الأرض، ثم تقدم لإصلاح الشمعة التي بين يدي
السلطان، فأصلحها وألقى فوطة خدمة كانت بيده على نمجاة السلطان. وكان سلاح دار
النوبة قد وافقه وباطنه على قتل السلطان. ثم قال كرجي للسلطان: ما يصلي مولانا

السلطان العشاء، فقال نعم، وقام للصلاة. فأخذ السلاح دار النمجاه من تحت الفوطة.
فعند ذلك، جرد كرجي سيفه، وضرب السلطان به على كتفه، فأراد السلطان أخذ
النمجاه فلم يجدها. فقبض على كرجي، ورماه تحته، فضربه السلاح دار بالنمجاه على
رجله، فقطعها. فانقلب السلطان على ظهره، وأخذته السيوف، حتى قتل. وهرب ابن
العسال الإمام الى خزانة، وصرخ قاضي القضاة حسام الدين عند ضرب السلطان، لا يحل
هذا لكم، فهم كرجي بقتله. ثم تركه، وأغلق كرجي الباب عليه، وعلى السلطان.
ثم خرج كرجي الى الأمير سيف الدين طقجي، وقد استعد هو أيضاً، وهو ينتظر ما يفعله
كرجي، فأعلمه بقتل السلطان. ثم توجهوا الى دار النيابة، وقد أغلقت. فطرق كرجي
الباب، واستدعى الأمير سيف الدين منكوتمر برسالة السلطان، فأنكر حاله، واستشعر
السوء، وامتنع من الإجابة. ثم قال له: كأنكم قتلتم السلطان، فقال: نعم قتلناه، وسبّه.
فعند ذلك ذلّ منكوتمر، وضعفت نفسه، واستجار بالأمير سيف الدين طقجي، فأجاره
وحلف له أنه لا يؤذيه، ولا يمكن من أذاه، فاطمأن ليمينه وخرج إليهم. فأرسلوه الى الجب،
وأنزلوه إليه، فلما رآه الأمراء، قاموا إليه، وظنوا أن السلطان نقم عليه، وسألوه عن الخبر.
فأخبرهم بقتل السلطان، فسبوه، وذكّروه بسوء فعله، وقصدوا قتله، ثم تركوه.
ثم رجع كرجي بعد اعتقال منكوتمر الى مجلسه. وقال لطقجي: نحن ما قتلنا السلطان
لإساءة صدرت منه إلينا، وإنما قتلناه بسبب منكوتمر، ولا يمكن إبقاءه. ثم قام، وتوجه
الى الجب، وأخرجه وذبحه من قفاه على باب الجب.
فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين، منذ فارق الملك العادل الدهليز،
وحلف الأمراء له بمنزلة العوجا، في يوم الإثنين الثامن والعشرين من المحرم سنة ست وتسعين
وستمائة، والى أن قتل في هذه الليلة، سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوماً، ومنذ خلع الملك
العادل نفسه بدمشق، وحلف له، واجتمعت الكلمة عليه بمصر والشام، في يوم السبت رابع

عشرين صفر من السنة المذكورة الى هذا التاريخ الذي قتل فيه، سنتين وشهرين إلا ثلاثة
عشر يوماً. ودفن بتربته بالقرافة، ودفن نائبه منكوتمر بالتربة أيضاً.
وكان رحمه الله تعالى ملكاً عادلاً، يحب العدل ويعتمده، ويرجع الى الخير ويميل إليه،
ويقرب أهله. وكان حسن العشرة، يجتمع بجماعة من المتعممين والعوام، ويأكل طعامهم.
وكان أكولاً، ولم يكن في دولته وأيامه ما يعاب وينكر، إلا انقياده الى مملوكه نائبه منكوتمر،
والرجوع الى رأيه، وموافقته على مقاصده حتى كان عاقبة ذلك قتلهما. وأثرت موافقته له،
من الفساد على العباد والبلاد وسفك دماء المسلمين، ما لم يستدرك. وذلك أن الأمراء
الذين فارقوا الشام، وتوجهوا الى التتار خوفاً منه، أوجب توجههم الى قازان، وصوله الى
الشام وخراب البلاد، وسفك الدماء، على ما نذكره بعد في موضعه إن شاء الله تعالى.
وبلغني أن الملك المنصور هذا مازال يستشعر القتل، منذ قتل السلطان الملك الأشرف،
وأنه في يوم الخميس بعد العصر، العاشر من شهر ربيع الآخر، وهو اليوم الذي قتل فيه
عشيته، أحضر إليه ندب نشاب ميداني، من السلاح خاناة السلطانية. فجعل يقلبه فردة
فردة، ويقتل كل فردة منها، ويقول عند قتلها، من قتل قتل، وكرر هذا القول مراراً. فقتل بعد
أربع ساعات من كلامه أو نحوها. وأجرى الله هذا الكلام على لسانه، والنفوس حساسة
في بعض الأحيان.
وحكي لي بعض من أثق به، عن الأمير بدر الدين بكتوت العلائي حكاية عجيبة تتعلق
به، وبالسلطان الملك الأشرف، أحببت ذكرها في هذا الموضع، فالشيء بالشيء يذكر.
قال بكتوت العلائي: كنت في خدمة السلطان الملك الأشرف في الصيد، وأنا يومئذ والأمير
حسام الدين لاجين سلاح دارية، نحمل السلاح خلف السلطان. فاجتمعنا بحلقة صيد،
وكانت النوبة في حمل السلاح خلف السلطان للأمير حسام الدين. وقد تقدمت إليه أنا، في
مكان من الحلقة، وإذ أنا بلاجين قد أدركني، وأعطاني سلاح السلطان. وقال: خذ

السلاح، وتوجه الى السلطان، فإنه قد رسم بذلك. فأخذت السلاح، وتوجهت الى خدمة
السلطان. وساق لاجين في مكاني الذي كنت به من الحلقة. فلما انتهيت الى السلطان،
وجدته وهو على فرسه، وقد جعل طرف عصا المقرعة على رأس النمازين، والطرف
بجهته، وكأنه في غيبة من حسه. فلما جئت قال لي: يا بكتوت والله، التفتّ الى ورائي،
فرأيت لاجين خلفي، وهو حامل سلاحي، والسيف في يده، فخيّل إليّ أنه يريد أن يضربني
به، فنظرت إليه، وقلت له يا أشقر، أعط السلاح لبكتوت يحمله، وتوجه أنت مكانه. قال
بكتوت العلائي: فقلت للسلطان، أعيذ مولانا السلطان بالله، أن يخطر هذا بباله، ولاجين
أقل من هذا، وأضعف نفساً أن يخطر هذا بباله، فضلاً عن أن يقدِم عليه، وهو مملوك
السلطان، ومملوك السلطان شهيد، وتربية بيته الشريف. هذا معنى كلامه.
قال: وشرعت أصرفه عن هذا. فقال لي: والله ما عرفتك إلا ما خطر لي وتصورته. قال
بكتوت العلائي: فخشيت على لاجين، كون هذا السلطان يتخيل هذا الأمر فيه، وينكفه
عنه. وأردت أن أنصحه، فاجتمعت به في تلك الليلة في خلوة. وقلت له: بالله عليك،
تجنب هذا السلطان، ولا تكثر من حمل السلاح، ولا تنفرد معه. فسألني عن موجب هذا
الكلام. فأخبرته بما ذكره السلطان لي، وبما أجبته. فشرع يضحك ضحكاً كثيراً
ويتعجب. فقال، ما ضحكي إلا من إحساسه، والله لما نظر إلي، وقال لي يا أشقر كنت قد
عزمت على تجريد سيفه وقتله به. قال بكتوت العلائي: فعجبت من ذلك غاية العجب.
ولنرجع الى سياقة الأخبار بعد مقتلهما، إن شاء الله تعالى.
ما اتفق بعد مقتل الملك المنصور ونائبه منكوتمر،
من الحوادث والوقائع المتعلقة بأحوال السلطنة
بمصر والشام، الى أن عاد السلطان الملك الناصر
لما قتل الملك المنصور حسام الدين لاجين، ونائبه الأمير سيف الدين منكوتمر، كان بالقلعة
من الأمراء، غير طقجي وكرجي، الأمير عز الدين أيبك الخزندار، والأمير ركن الدين بيبرس
الجاشنكير وسيف الدين سلار الأستادار، والأمير حسام الدين لاجين الرومي أستاذ الدار،

وكان قد وصل على خير البريد من حلب، بعد خروجه من بلاد سيس، والأمير جمال
الدين آقش الأفرم، وكان قد عاد من دمشق، بعد إخراج نائبها والعسكر منها الى حمص،
كما تقدم، والأمير بدر الدين عبد الله السلاح دار، والأمير سيف الدين كرد الحاجب،
هؤلاء الأمراء المشار إليهم. فاجتمعوا، واتفقت آراؤهم على مكاتبة السلطان الملك
الناصر وإحضاره من الكرك، وإعادة السلطنة إليه، وأن يكون الأمير سيف الدين طقجي
الأشرفي نائب السلطنة، وانفصل الحال على ذلك.
ثم سمت بالأمير سيف الدين طقجي نفسه، الى طلب السلطنة لنفسه، وتقرير النيابة
لكرجي. وتأخر الإرسال الى السلطان الملك الناصر. وركب الأمير سيف الدين طقجي
في يوم السبت حادي عشر، شهر ربيع الآخر، في موكب النيابة، والأمراء في خدمته. وعاد
الى القلعة، وجلس. ومدّ السلطان السماط، وقد تفوه الناس له بالسلطنة، ولكرجي
بالنيابة.
حكى تاج الدين عبد الرحمن الطويل، مستوفي الدولة، قال: طلبني الأمير سيف الدين
طقجي، وسألني عن إقطاع نيابة السلطنة، فذكرت له بلاده وعبرها ومتحصلاتها، وما
انعقدت عليه جملة ذلك، فاستكثره، وقال هذا كثير، وأنا لا أعطيه لنائب. ورسم أن يوفّر
منه جملة، تستقر في الخاص. ولم يبرز المرسوم بذلك. ثم خرجت من عنده، فطلبني
كرجي، وسألني عن إقطاع النيابة، كما سألني طقجي، فأخبرته بذلك. فاستقلّه، وقال أنا ما
يكفيني هذا، ولا أرضى به. وشرع يسأل عن بلاد يطلبها زيادة على إقطاع منكوتمر.
قال: فعجبت من ذلك، كونهما جعلا فكرتهما وحديثهما في هذا الأمر، قبل وقوع سلطنة
هذا، ونيابة هذا.
مقتل سيف الدين طقجي وسيف الدين كرجي
كان مقتلهما في يوم الإثنين، رابع عشر شهر ربيع الآخر، من السنة المذكورة. وذلك أن
الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، وصل من غزاة سيس، في هذا اليوم، هو
ومن معه. وقد اتصل به خبر مقتل السلطان فاتفق الأمراء الأكابر على الخروج لتلقيه.

وعرضوا ذلك على الأمير سيف الدين طقجي، وأشاروا أن يركب معهم. فامتنع من ذلك،
وأظهر عظمة وكِبراً. فقالوا له إن عادة الملوك تتلقى أكابر الأمراء، إذا قدموا من الغزاة،
سيما مثل هذا الأمير الكبير، الذي هو بقية الأمراء الصالحية. وقد طالت غيبته، وفتح
هذه الفتوح. ولاطفوه، الى أن ركب معهم، وخرج للقائه. فلما التقوا، سلموا عليه، وسلّم
عليهم. ثم قال الأمير بدر الدين بكتاش، أمير سلاح، للأمراء: أنا عادتي إذا قدمت من
الغزاة، يلتقاني السلطان. وكيف ما أجراني على عادتي. وكان قد علم بمقتل السلطان.
وإنما أراد بذلك فتح باب للحديث. فقال له طقجي: - وهو الى جانبه - السلطان قتل.
فقال: ومن قتله. قال بعض الأمراء: قتله كرجي، وهذا. - وأشار الى طقجي فقال: لابد
من قتل قاتله، ونفر في طقجي، وقال له: لا تسوق الى جانبي. فرفس طقجي فرسه، وبرز
عنه. فحمل عليه أحد المماليك السلطانية، فضربه بسيفه، فقتل. واتصل خبر مقتله
بكرجي، وكان قد تأخر في طائفة من المماليك السلطانية، تحت القلعة. فهرب وقصد جهة
القرافة فأدركوه عند قبور أهل الذمة، ببساتين الوزير، فقتل هناك، ولقي عاقبة بغيه.
قضى الله أن البغي يصرع أهله وأن على الباغي تدور الدوائر
ولما قُتل الأمير سيف الدين طقجي، توجه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح الى
داره بالقاهرة، واستقر بها. وكانت غيبته في غزوة سيس هذه، أحد عشر شهراً وأياماً.
وحضر إليه بعض الأمراء الأكابر، واستشاره في أمر السلطنة. فأشار بإعادة السلطان
الناصر، ووافق رأيه رأيهم واتفقت الآراء على أن ترجع الحقوق الى نصابها، وتقرّ السلطنة
الشريفة بيد من هو أحق وأولى بها، وتعود السلطنة الى من نشأ في حجرها وليداً، وتخول
من منصبها الشريف طارفاً وتليداً. وندبوا الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار، والأمير
علم الدين سنجر الجاولي، فتوجها الى خدمة السلطان الملك الناصر بالكرك، على خيل
البريد، لإحضاره. وطالعه الأمراء بما وقع، وما اجتمعت الآراء عليه.

ويقي الأمر بالديار المصرية مشتركاً، بعد مقتل طقجي، بين الأمراء، الى أن وصل السلطان
الملك الناصر من الكرك. وكانت الكتب تصدر، وعليها خط ستة من الأمراء وهم: الأمير
سيف الدين سلار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير عز الدين أيبك الخزندار،
والأمير جمال الدين آقش الأفرم، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، والأمير سيف
الدين كرد الحاجب. وصدرت الكتب في بعض الأوقات، وعليها خط ثمانية، خط هؤلاء
الستة والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير بدر الدين عبد الله السلاح دار.
وجلس الأمير عز الدين أيبك الخزندار، في ابتداء الأمر في مرتبة النيابة. فإن الأمراء دعوا
له حق التقدمة في خدمة البيت المنصوري. وكان له رأي فاسد في مملوك، كان عند الأمير
سيف الدين طقجي، اسمه تستاي، فطلبه وهو في المجلس بالدركاه، بباب القلعة، وألح في
طلبه فأحضر إليه. فلما رآه، لم يتمالك رؤيته، أن لفّ شعره على يده، وقام من الدركاه،
وخدم الأمراء، وتوجه بالصبي الى داره. وكان غرضه من المناصب والتقدم في الدولة،
تحصيل هذا المملوك، فاشتغل به عما سواه، وفارق المجلس، وقد ظفر بما تمناه. فعلم
الأمراء عند ذلك، سوء تدبيره، وقلة دينه، وأنه لا يعتمد عليه في شيء، ولا يصلح للتقدم،
وأنه لم يكن فيه من الصبر، عن غرضه الفاسد، التأني بعض ساعة، حتى ينقضي ذلك
المجلس، ويتفرق ذلك الجمع الكثير، وشاهدوا فعله بحضرتهم، وعدم تحاشيه منهم. فتقدم
الأمير سيف الدين سلار عند ذلك وصار يجلس في مرتبة النيابة، الى أن حضر السلطان
الناصر من الكرك.
هذا ملخص ما كان بالديار المصرية.
وأما دمشق وما اتفق بها، بعد توجه الأمير سيف قبجاق، نائب السلطنة بها، منها:
فإن الأمير سيف الدين بلغاق الخوارزمي، لما توجه الى الديار المصرية، من جهة الأمير
سيف الدين قبجاق - كما قدمنا ذكر ذلك - وصل الى القاهرة، في يوم السبت ثاني عشر،
شهر ربيع الآخر، بعد مقتل الملك المنصور لاجين، فاجتمع بالأمير سيف الدين طقجي،

وهو صاحب الأمر يومئذ، وأوصله ما كان على يده من المطالعات من جهة الأمير سيف
الدين قبجاق، فقرئت عليه. وقال نكتب بإطابة قلبه، وقلوب الأمراء. ثم كان من قتل
طقجي ما قدمناه. فكتب الأمراء الثمانية على يده الى الأمراء بدمشق، بما وقع من قتل
السلطان ونائبه منكوتمر، وطقجي وكرجي. وأن الحال قد استقر على عود الدولة
الناصرية، وإطابة قلوب الأمراء. فوصل الى دمشق في يوم السبت، تاسع عشر الشهر،
وكان المتحدث بها يومئذ الأمير سيف الدين جاغان الحسامي. فقبض الأمير بهاء الدين
قرا أرسلان المنصوري السيفي على جاغان وحسام الدين لاجين الحسامي، وكان قد ولي
بر دمشق، في أوائل سنة ثمان وتسعين وستمائة، واعتقلهما بقلعة دمشق. وأوقع الحوطة
على نواب الأمراء الأربعة المقتولين، وحواصلهم بدمشق. وجمع الأمراء بدمشق، وحلّفهم
للسلطان الملك الناصر، وتحدث بدمشق حديث نواب السلطنة. ولم تطل مدته، فإنه مات
في ثاني جمادى الأولى، فيقال إنه سقي.
ثم وردت كتب الأمراء، مدبري الدولة بالديار المصرية الى دمشق، في يوم السبت، رابع
جمادى الأولى، وهي مؤرخة بالسادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، أن يستقر الأمير
سيف الدين قطلبك المنصوري السيفي، في وظيفة الشد بالشام، عوضاً عن جاغان.
فباشر في يوم الإثنين بعد العصر، وكان الملك المنصور لاجين قد جهزه الى حلب، يتحدث في
الأموال والحصون، ويشارك الأمير سيف الدين الطباخي في الأمر، فوصل الى دمشق، ونزل
بالقصر الأبلق. واتفق قتل السلطان وهو بدمشق، فلم يمكنه التوجه الى حلب وأقام
بالميدان. فلما ورد هذا الكتاب، انتقل من القصر، وسكن دار الأمير شمس الدين سنقر
الأعسر، وتحدث في الأموال وغيرها. وبقي هو المشار إليه، الى أن وصل الى نائب السلطنة
بدمشق.
عود السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الى السلطنة ثانياً
قد ذكرنا أن الأمراء أرسلوا الى خدمة السلطان الأميرين سيف الدين آل ملك الجوكندار،

وعلم الدين سنجر الجاولي، فتوجها الى السلطان، فوجداه يتصيد بجهة بحور الكرك. فلما
شاهداه ترجلا، وقبّلا الأرض بين يديه، وقدّما إليه مطالعات الأمراء، وأعلماه بهذه
الحوادث. فركب من وقته وعاد الى الكرك، وتجهز منها، وركب الى الديار المصرية.
وكان وصوله الى قلعة الجبل، في يوم السبت الرابع من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين
وستمائة. وجلس على تخت السلطنة، في يوم الإثنين سادس الشهر المذكور، فكأنه المعنيّ
بقول القائل:

قد رجع الحق الى نصابه وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلا السيف سلته يد ثم أعادته الى قرابه

وركب في ثاني عشر الشهر بشعار السلطنة. ولما جلس، استشار الأمراء الأكابر، فيمن
يرتبه في النيابة والوظائف. فوقع الاتفاق على أن يكون الأمير سيف الدين سلار المنصوري
الصالحي نائب السلطنة بالأبواب الشريفة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار
العالية، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار المنصوري أمير جاندار، والأمير جمال الدين
أقش الدواداري الأفرم الحاجب، نائب السلطنة بالشام، والأمير سيف الدين كرد الحاجب،
نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية وما معها، عوضاً عن الأمير عز الدين أيبك الموصلي
المنصوري، وكان قد توفي الى رحمة الله تعالى، في صفر من هذه السنة. وأحضر الأمير
سيف الدين قطلبك المنصوري من الشام، ورتب أمير حاجب بالأبواب السلطانية. وأقر
السلطان الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلي على وزارته. وخلع السلطان على
الأمراء والأعيان، على جاري العادة.
وتوجه الأمير جمال الدين آقش الأفرم الى دمشق، على خيل البريد، فكان وصوله إليها، في
يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى. وأفرج عن الأمير سيف الدين جاغان الحسامي،
في يوم الأربعاء، تاسع عشرين الشهر، حسبما رسم به من الأبواب السلطانية. فتوجه الى
الديار المصرية، فوجد البريد وهو في أثناء الطريق، بإعادته الى الإمرة بدمشق، فعاد
واستقر.

وفي يوم الخميس حادي عشر جمادى الآخرة، خلع على الأمراء والأعيان بدمشق، ولبسوا
تشاريف السلطان، ووصل طلب نائب السلطنة، الأمير جمال الدين في هذا اليوم، فتلقاه
والأمراء في خدمته، وعليه التشاريف، ودخل دخولاً حسناً.
وفيها، في شهر رجب، توجه الأمير سيف الدين كرد الحاجب، لنيابة السلطنة الشريفة
بالمملكة الطرابلسية.
وفيها، رسم السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين كجكن، أحد الأمراء الأكابر
المقدمين بدمشق. فقبض عليه في يوم الجمعة، ثاني عشرين شهر رجب، واعتقل بقلعة
دمشق. ثم جُهّز الى الأبواب السلطانية مقيداً، ثاني شهر رمضان، هو وحمدان وأخوه،
ولدا صلغاي. وجرد معهم مائة فارس من عسكر الشام. فوصلوا بهم الى الأبواب
السلطانية.
الإفراج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر
وتفويض الوزارة إليه
وفي هذه السنة، في شهر رمضان، أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر العزي
المنصوري، وفوض إليه وزارة المملكة الشريفة، وتدبير الدولة بالديار المصرية، وعزل
الصاحب فخر الدين الخليلي.
وفود سلامش بن أقال بن بيجو وأخيه قطقطوا
ومن معهما، وعود سلامش وقتله
كان سلامش هذا، قد جهزه قازان ملك التتار الى بلاد الروم، مقدماً على تمان، وقيل بل
كان معه خمسة وعشرون ألف فارس. وأمره قازان أن يأخذ عساكر الروم، ويتوجه الى
الشام من جهة سيس، وأن قازان يحضر بنفسه، ببقية جيوشه من جهة الفرات، وأن يكون
اجتماعهم على حلب، ثم يعبرون بجملتهم الى الشام. فلما وصل سلامش الى بلاد الروم،
خلع طاعة قازان، وحدثته نفسه بالملك، وكاتب ابن قرمان أمير التركمان، فأطاعه وانضم
إليه في عشرة آلاف فارس. وكتب الى السلطان المنصور لاجين، يستنجده على قازان.
ووصل برسالته وكتبه الى الأبواب السلطانية، مخلص الدين الرومي. فكتب السلطان الى
دمشق بتجهيز العساكر لنصرته وإنجاده.

ولما اتصل بقازان خبر خروجه عن الطاعة، انثنى عزمه عن قصد الشام، في هذه السنة.
وجرد العساكر الى سلامش في أوائل جمادى الآخرة، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً، مع ثلاثة
مقدمين، ومرجعهم الى بولاي. فتوجهوا الى سلامش، وكان قد جمع نحو ستين ألف فارس.
وهو يحاصر سيواس، فإنها كانت قد عصت عليه. فأتته العساكر شهر رجب، والتقوا،
ففارقه من كان معه من عسكر التتار، والتحقوا ببولاي، وكذلك عسكر الروم، ولحق
التركمان بالجبال. وبقي سلامش في دون خمسمائة فارس، ففر من سيواس الى بلاد سيس،
ووصل الى بهسنا في أواخر شهر رجب، ثم وصل الى دمشق يوم الخميس، ثاني عشر
شعبان، وصحبته الأمير بدر الدين الذردكاش نائب بهسنا، فتلقته عساكر دمشق بأحسن
زي صحبة نائب السلطنة بدمشق.
ثم توجه سلامش الى الأبواب السلطانية، في يوم الأحد خامس عشر شعبان، على خيل
البريد، فوصل الى الأبواب السلطانية، وهو وأخوه قطقطوا، فأكرمهما السلطان والأمراء،
وأحسنوا إليهما. وخيّر سلامش بين المقام بالديار المصرية أو العود. فسأل أن يجرد
السلطان معه جيشاً، ليتوجه الى بلاد التتار، ويأخذ عياله؛ ويرجع الى خدمة السلطان.
فجهزه السلطان الى حلب. ورسم أن يجرد معه الأمير سيف الدين بكتمر الجلمي،
وأعانه. فوصل الى دمشق في الحادي والعشرين من شهر رمضان. وتوجه في الثالث
والعشرين من الشهر، صحبة الأمير بدر الدين الذردكاش. ولما وصل الى حلب، جرد معه
الأمير سيف الدين بكتمر الجلمي حسب المرسوم. فساروا الى بلاد سيس، فشعر بهم
صاحبها والتتار الذين بتلك الأعمال. فأخذوا عليهم الطرق والمضايق، والتقوا واقتتلوا،
فقتل الجلمي، ولجأ سلامش الى بعض القلاع. فأرسل قازان في طلبه، واستنزله فحمل إليه
فقتله.
واستقر قطقطو ومخلص الدين الرومي في الخدمة الشريفة السلطانية بالديار المصرية. فأنعم
السلطان على قطقطو بإقطاع، وعلى مخلص الدين براتب.

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، وصل رسول صاحب سيس ورسول صاحب
القسطنيطينية بتحف وهدايا، وتقادم للسلطان. فوصلوا الى دمشق في رابع الشهر،
وتوجهوا منها الى الأبواب السلطانية، في سادسه. ويقال إن مضمون رسالة صاحب
القسطنطينية، الشفاعة في صاحب سيس، والله أعلم.
وصول الفرنج الى الشام
وتكسير بعضها، ورجوع ما سلم منها
وفي هذه السنة، في العشر الآخر من شعبان، وصل الى بيروت مراكب كثيرة. وبطش
للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلة، يقال إن البطش كانت ثلاثين بطشة، في كل بطشة منها،
نحو سبعمائة. وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم الى البر، وتحصل إغارتهم على بلاد
الساحل. فلما قربوا من البر، أرسل الله عز وجل عليها ريحاً مختلفة. فغرقت بعض هذه
المراكب، وتكسر بعضها. ورجع من سلم منهم على أسوأ حال، وكفى الله تعالى شرهم.
وحكي عن الريّس ببيروت، أنه قال: والله لي خمسون سنة، ألازم هذا البحر، فما رأيت
مثل هذه الريح، التي خرجت على هذه المراكب، وليست من الرياح المعروفة عندنا.
وفي هذه السنة، عزل قاضي القضاة حسام الدين الرومي الحنفي عن القضاء بالديار
المصرية، وأعيد الى القضاء بدمشق عوضاً عن ولده القاضي جلال الدين. وكان وصوله
الى دمشق في يوم الخميس، سادس ذي الحجة. ولما عزل فوض القضاء بالديار المصرية،
على مذهب الإمام أبي حنيفة، للقاضي شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، على
عادته.
وفيها، كانت وفاة الأمير الزهد بدر الدين الصوابي فجأة في ليلة الخميس، تاسع جمادى
الأولى، ودفن بسفح قاسيون بكرة النهار. وكان أميراً ديناً صالحاً، خيراً كثير البر
والصدقة. وروى الحديث النبوي، وكان له في الإمرة نحو أربعين سنة. وكان من مقدمي
الألوف وأمراء المائة بالشام، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي النجمي، الأمير الكبير المشهور في

معتقله، بالقاعة الصالحية، بقلعة الجبل المحروسة، وأخرج ودفن بتربته. وكان الملك الناصر،
لما عاد الى المُلك، رسم بالإفراج عنه. فوقف الأمراء في ذلك، وحسنوا للسلطان إبقاءه
على ما هو عليه. فرجع الى رأيهم وأبقاه، فمات بعد ذلك بمدة يسيرة. وكان رحمه الله
تعالى، كريم النفس، عالي الهمة، يعطي الكثير ويستقله، وكان عليه في أيام إمرته لجماعة
كثيرة من مماليكه وأولادهم، وخدامه، الرواتب الوافرة من اللحم والتوابل والجرايات
والعليق. فرتب لبعضهم في كل يوم سبعين رطلاً من اللحم بالمصري، وما يحتاج إليه من
التوابل والخضراوات والحطب، وسبعين عليقة، ولأقلهم خمسة أرطال، وخمس علائق،
ولبعضهم عشرين رطلاً وعشرين عليقة، هذا زيادة من جهته على ما لهم من الإقطاعات
السلطانية. وبلغ ما يحتاج إليه في كل يوم بسماطه ودوره المرتب عليه فيما بلغني، ثلاثة آلف
رطل لحم، وثلاث آلاف عليقة. وكان ينعم بألف دينار عيناً، وبألف أردب غلة، وبألف
قنطار من العسل. ويتصدق على الفقراء بألف درهم وخمسمائة درهم. ولا يعطي أقل من
ذلك إلا في النادر عند التعذر. ولا يفعل ذلك عن امتلاء ولا سعة. مازال عليه لأرباب
الديون أربعمائة ألف درهم، وأكثر من ذلك. وإذا وفى ديناً، اقترض خلافه، يتكرم بذلك.
ولا يتجاسر أحد من مماليكه وألزامه أن يعدله عن ذلك، ولا يشافهه في الإمساك عنه،
والاختصار منه. وإن كلمه أحد منهم، أنكر عليه، وربما ضربه، وأهانه، وعزله عن
وظيفته، وإن كان أستاذ دار أو مباشراً عنده. وكانت مكارمه كثيرة مشهورة وعطاياه
وصلاته وافرة مذكورة، ما رأى أهل عصره من أمثاله في المكارم والعطايا والإنفاق والهبات
والصلات مثله، رحمه الله تعالى، ومات وعليه من الديون، ما يزيد على أربعمائة ألف
درهم، ورتب بعده من موجوده وأملاكه، رحمه الله تعالى.

وفاة الملك المظفر
صاحب حماه

وفي يوم الخميس، الحادي والعشرين من ذي القعلة، كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين

محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه
بن أيوب صاحب حماه، بها. ودفن ليلة الجمعة، آخر الليل عند أبيه رحمهما الله تعالى.
ومولده في الساعة العاشرة، من ليلة الأحد، خامس عشر المحرم، سنة سبع وخمسين
وستمائة. وأمه عائشة خاتون بنت الملك العزيز غياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غازي
ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب. فيكون عمره، رحمه الله تعالى، إحدى
وأربعين سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام، ومدة ملكه بحماه خمس عشرة سنة وشهراً واحداً
ويوماً واحداً، رحمه الله تعالى. وانقطع ملك حماه بعده من البيت الأيوبي سنين، الى أن
أعاده السلطان الملك الناصر في سلطنته الثالثة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في
موضعه. ولما مات، فوضت نيابة السلطنة بحماه الى الأمير شمس الدين قراسنقر
المنصوري، كما تقدم، وتداولها جماعة من النواب يأتي ذكرهم، إن شاء الله تعالى، في
مواضعه.
وفيها، توفي الملك الأوحد نجم الدين يوسف ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك
المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوف، رحمهم
الله تعالى، في ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة بالقدس الشريف، ودفن من الغد
برباطه عند باب خطه شمالي الحرم، وكان من المشهورين بالجلالة والتقدم في المجالس، وعند
الملوك، وكان كثير الإحسان الى الضعفاء، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي نجم الدين أيوب ابن الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر داود بدمشق،
وصلي عليه يوم الجمعة، رابع عشر ذي الحجة، رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام حجة العرب بهاء الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن
محمد بن نصر بن النحاس الحلبي النحوي بالقاهرة، في يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى، في
الثالثة من النهار. وأخرج من الغد، ودفن بالقرافة، ومولده بحلب، في يوم الأربعاء، سلخ
جمادى الآخرة، سنة سبع وعشرين وستمائة، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي تقي الدين توبة بن علي بن مهاجر التكريتي، في ليلة الخميس، ثاني جمادى

الآخرة بدمشق. ودفن بتربته بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.
وفيها، كانت وفاة الأمير جمال الدين آقش المغيثي، متولي البيرة، وكان له بها نحو أربعين
سنة.
توجه السلطان الى الشام
وفي هذه السنة، تواترت الأخبار بحركة التتار، فندب السلطان الجيوش المصرية وجردها.
وكان قد جرد في جمادى الآخرة، الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي ومضافيه، والأمير بدر
الدين عبد الله السلاح دار ومضافيه، والأمير جمال الدين آقش الموصلي المعروف قتال
السبع، والأمير مبارز الدين الرومي أمير شكار ومضافيه، فوصلوا الى دمشق، في سابع
شهر رجب. فلما قويت الأجناد الآن، جرد الأمير سيف الدين قطلبك الحاجب
ومضافيه، والأمير سيف الدين نوكيه التتاري ومضافيه، فوصلوا الى دمشق في يوم الإثنين
رابع عشرين ذي الحجة. ثم توجه السلطان بعد ذلك، بالعساكر المنصورة. فاستقل ركابه
الشريف من قلعة الجبل في الرابع والعشرين من ذي الحجة.
واستناب في غيبته بقلعة الجبل
المحروسة، الأمير ركن الدين بيبرس الدواداري المنصوري.
واستهلت سنة تسع وتسعين وستمائة
والسلطان الملك الناصر متوجه بالجيوش الى الشام، فوصل الى غزة في المحر، ونزل بتل
العجول.
الفتنة التي أثارها الأيرواتية بهذه المدينة
لما حل ركاب السلطان بمنزلة تل العجول، اتفق جماعة من الأويراتية، الذين وفدوا الى
الديار المصرية، في الأيام العادلية الزينية، مع الأمير سيف الدين برلطاي، أحد الأمراء
المماليك السلطانية الذين كانوا بدار الوزارة، على إثارة فتنة. فبينما الأمراء في الموكب، لم
يشعروا إلا وقد شهر برلطاي سيفه، وحمل نفسه وكرّ صوب الدهليز المنصور السلطاني،
فأمسِك. وسيره السلطان الى الأمراء، فقتل لوقته. وقبض على جماعة من المماليك
السلطانية، وسيروا الى قلعة الكرك، واعتقلوا بها. وقبض على جماعة من الأويراتية،
فشنقوا بظاهر غزة. وكان من اتهم بمباطنتهم قطلوبرس العادلي، فطُلم فلم يوجد. واختفى

مدة، ثم حصل الظفر به، بعد ذلك، فشنق بسوق الخيل تحت القلعة.
وأقام السلطان الناصر بهذه المنزلة مدة، ثم رحل منها، وتوجه نحو دمشق، فوصل إليها في
يوم الجمعة، ثامن شهر ربيع الأول، ونزل بقلعتها. وهذه السفرة، هي أول وصول السلطان
الملك الناصر الى دمشق، وحال وصوله، أمر بخروج العسكر الشامي، فخرج من دمشق،
وتلته العساكر المصرية. ثم توجه السلطان في أعقابهم، الى جهة حمص، لقتال التتر، ودفعهم
عن الشام، وكان رحيله من دمشق، في وقت الزوال، من يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع
الأول.
وقعة غازان ملك التتار بمجمع المروج ببلاد حمص
كانت هذه الوقعة يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة تسع وتسعين
وستمائة. وذلك أن السلطان الملك الناصر، لما رحل من دمشق، الى جهة حمص، تواترت
الأخبار بوصول التتار الى وادي الخزندار. فسار السلطان إليهم، وحث السير. فقطع ثلاث
مراحل، في مرحلة واحدة، فأشرف على مجمع المروج، وقد تعبت خيول العساكر
الإسلامية، وركب غازان في جيوش التتار، ومن انضم إليها من الكرج والأرمن وغيرهم،
ومعه الأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير فارس
الدين البكي، والأمير سيف الدين عزاز. والتقى الجمعان في الخامسة من النهار المذكور.
فحملت الميسرة الإسلامية على ميمنة التتار، فهزمتها أقبح هزيمة، وقتل من التتار خلق
كثير. فلما عاين غازان انهزام ميمنته، اعتزل في نحو ثلاثين فارساً، وعزم الفرار. فمنعه
الأمير سيف الدين قبجاق، وثبته ومناه بالظفر. وكان قصده بذلك، فيما قال بعد عوده،
القبض على غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه.
ثم ركبت فرقة من التتار، كانت لم تشهد الحرب، واجتمعوا كراديس، وحملوا حملة منكرة،
وقصدوا قلب العساكر الإسلامية، وضعفت الميمنة الإسلامية عن لقاء ميسرتهم. فكان
من الهزيمة ما كان، وذلك بعد العصر من اليوم المذكور.
من استشهد وفقد، في هذه الموقعة من المشهورين

كان من استشهد وفقد من الأمراء والمشهورين، في هذه الوقعة، الأمير سيف الدين كرد،
نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية، والأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير عز الدين أيدمر
الحلبي، أحد الأمراء بالديار المصرية، والأمير سيف الدين بلبان التقوي، من أمراء طرابلس،
والأمير ركن الدين بيبرس الغتمي، النائب بحصن المرقب، والأمير صارم الدين أزبك، النائب
بقلعة بلاطنس، والأمير بدر الدين بيليك المنصوري المعروف بالطيار، من أمراء دمشق،
قتل في عوده بعد الوقعة، والأمير سيف الدين نوكيه التتاري، والأمير جمال الدين أقش كرجي
الحاجب، والأمير جمال الدين أقش المطروحي، حاجب الشام، فقدوا نحو ألف فارس من
الحلقة والمماليك السلطانية وأجناد الأمراء ومماليكهم. وهؤلاء الأمراء، منهم من استشهد
في المعركة، ومنهم من أصابته جراحة، فمات بعد انفصال الوقعة فيعد شهيداً، ومنهم من
عدم ولم تتحقق وفاته. وعدم قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الرومي، والقاضي عماد
الدين اسماعيل ابن الأثير الموقع. وقتل من التتار فيما ققيل نحو أربعة عشر ألف.
ولما تمت الهزيمة، وشاهد غازان من قتل من أصحابه وكثرتهم، وقلة من قتل من العساكر
الإسلامية، بالنسبة الى من قتل من التتار، ظن أن هذه الهزيمة مكيدة، واستجرار لعساكره،
فتوقف عن اتباع العساكر الإسلامية، حتى تبين له صحة الهزيمة. ثم سار من مكان الوقعة
الى حمص، وبها الخزائن السلطانية، فسلمها متوليها محمد بن الصارم، من غير ممانعة، ولا
مدافعة، ثم رحل عنها الى جهة دمشق ونزل بالغوطة.
ما اتفق بدمشق بعد الوقعة ومفارقة العساكر الإسلامية في مدة
استيلاء التتار عليها، الى أن فارقوا البلاد، وعادوا الى الشرق
كانت الأخبار وصلت إليهم بانهزام الجيوش الإسلامية، وتحققوها في يوم السبت، مستهل
شهر ربيع الآخر. فتوجه من أمكنه السفر الى الديار المصرية في هذا اليوم. فكان ممن
توجه قاضي القضاة إمام الدين الشافعي، وقاضي القضاة جمال الدين الزواوي المالكي، وابن
الشيرازي، ومتولي مدينة دمشق، ومتولي برها، ومحتسب المدينة، وجماعة كبيرة من أهل

البلد، ممن قدر على الانتزاح، وفي ليلة الأحد، أحرق المعتقلون بسجن باب الصغير بابه،
وخرجوا منه، وكانوا نحو مائة وخمسين. وتوجهوا الى باب الجابية، وكسروا الأقفال،
وخرجوا منه. وبقي البلد لا حامي له، ولا ممانع عنه. فاجتمع أكابر دمشق، في يوم الأحد
الثاني من الشهر، بمشهد علي بالجامع الأموي. واتفقوا على أن يتوجهوا الى الملك غازان،
ويسألوا الأمان لأهل البلد. فتوجه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وهو الخطيب
يومئذ، والشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي، والقاضي نجم الدين بن
صصري، والقاضي شمس الدين الحريري، والقاضي جلال الدين ابن القاضي حسام الدين،
وفخر الدين ابن الشيرجي، وعز الدين بن الزكي، ووجيه الدين بن متجا، والرئيس عز الدين
حمزة بن القلانسي، وابن عمه الصدر شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحراني، والشريف
زين الدين بن عدنان، ونجم الدين بن أبي الطيب، وناصر الدين بن عبد السلام، وشريف
الدين بن الشيرجي، وشهاب الدين الحنفي، والشيخ محمد بن قوام البالسي، وجلال الدين
أخو القاضي إمام الدين، وجماعة كبيرة من القراء والفقهاء والعدول. وتوجهوا بعد صلاة
الظهر، من يوم الإثنين، ثالث الشهر، واجتمعوا بالملك غازان، وهو عند النبك، وهو سائر.
ونزلوا عن مراكبهم. وقبّل بعضهم الأرض، فوقف غازان بفرسه لهم. وترجل جماعة من
التتار عن خيولهم. وتكلم الترجمان بينهم وبين الملك غازان، وسألوا الأمان لأهل دمشق.
وكان المخاطب له عن أهل دمشق، فخر الدين بن الشيرحي.
فقال غازان: الذي حضرتم
بسببه من الأمان قد أرسلناه قبل وصولكم. وقدموا ما كان معهم من المأكول، فلم يكن له
وقع عندهم. وأذن لهم في الرجوع الى دمشق، فرجعوا. وكان وصولهم بعد صلاة العصر،
من يوم الجمعة، سابع الشهر. ولم يُخطب في هذه الجمعة لسلطان.
وكان قد وصل الى دمشق، في يوم الخميس، سادس الشهر أربعة من التتار، من جهة
غازان، ومعهم الشريف القمّي. وكان قد توجه قبل توجه الجماعة، هو وثلاثة من أهل

دمشق الى غازان. فعاد وبيده أمان لأهل دمشق.
ثم وصل بعد صلاة الجمعة، الأمير اسماعيل وجماعة من التتار.
فنزلوا بالبستان الظاهري،
بطريق القابون. ثم ركب الأمير اسماعيل في يوم السبت،
ودخل الى دمشق، وجاء الى
مقصورة الخطابة بالجامع الأموي، لقراءة الفرمان. وقرأه أحد
العجم الواصلين صحبة الأمير
اسماعيل، وبلّغ عنه المجاهد المؤذن، ومضمونه:
بقوة الله تعالى، ليعلم أمراء التومان والألوف والمائة، وعموم
عساكرنا المنصورة، من المغول
والتازيك والكرج وغيرهم، ممن هو داخل تحت ربقة طاعتنا. إن
الله لما نوّر قلوبنا بنور
الإسلام، وهدانا الى ملة النبي، عليه أفضل السلام "أفمن شرح
الله صدره للإسلام فهو على
نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال
مبين".
ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين،
غير متمسكين بأحكام
الإسلام، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس
لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم
التئام ولا انتظام، وكان أحدهم إذا تولى، سعى في الأرض
ليفسد فيها، ويهلك الحرث
والنسل، والله لا يحب الفساد. وشاع من شعارهم الحيف على
الرعية، ومدّ الأيدي
العارية، الى حرمهم وأموالهم، والتخطي عن جادة العدل
والإنصاف، واركابهم الجور
والإعساف، حملتنا الحمية الدينية، والحفيظة الإسلامية، على أن
توجهنا الى تلك البلاد،
لإزالة هذا العدوان، وإماطة هذا الطغيان، مستصحبين الجم
الغفير من العساكر.
ونذرنا على أنفسنا، إن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد، أزلنا
العدوان والفساد، وبسطنا
العدل والإحسان في كافة العباد، ممتثلاً للأمر الإلهي: "إن الله
يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء
ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلك
تذكرون". وإجابة لما ندب
إليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، "إن المُقسطين عند الله
على منابر من نور عن يمين
الرحمن، وكلتا يديه يمين الدين، يعدلون في حكمهم وأهليهم
وما ولوا". وحيث كانت طويتنا
مشتملة على هذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة. منّ الله
علينا بتبلّج تباشير النصر

المبين، والفتح المستبين. وأتمّ علينا نعمته، وأنزل علينا سكينته، فقهرنا العدو الطاغية،
والجيوش الباغية، وفرقناهم أيدي سبا، ومزقناهم كل ممزق، حتى جاء الحق وزهق
الباطل، إن الباطل كان زهوقا فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام، وقويت نفوسنا بحقيقة
الأحكام، منخرطين في زمرة من حبّب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر
والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، فضلاً من الله ونعمة.
فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة، والنذور المؤكدة. فصدرت مراسيمنا العالية، أن
لا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طباقاتها لدمشق وأعمالها، وسائر
البلاد الإسلامية الشامية، وأن يكفوا أظفار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم، ولا
يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة، وآمال مفسوحة
بعمارة البلاد، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة وغير ذلك. وكان هذا الهرج
العظيم، وكثرة العساكر، فتعرّض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم، الى نهب بعض
الرعايا وأسرهم، فقتلناهم ليعتبر الباقون، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر، وغير ذلك
من الفساد. وليعلموا أنا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة، وأن لا يتعرضوا لأحد من
أهل الأديان، على اختلاف أديانهم، من اليهود والنصارى والصابئة. فإنهم إنما يبذلون
الجزية عنهم، من الوظائف الشرعية، لقول عليّ عليه السلام: "إنما يبذلون الجزية، لتكون
أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا". وللسلاطين موصّون على أهل الذمة الطيعين، كما هم
موصون على المسلمين، فإنهم من جملة الرعايا. قال صلى الله عليه وسلم: "الإمام الذي
على الناس، راع عليهم، وكل راع مسؤول عن رعيته".
فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا،
الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني، وأخذ الحظ الوافر من السرور، والنصيب
الأكبر من البهجة والحبور، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة، والمملكة الظاهرة، أناء
الليل وأطراف النهار.

وكتب في خامس ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة.
ولما قرئ هذا الفرمان، حصل للناس بعض الطمأنينة، وجلس التتار بالمقصورة الى أن
صلوا العصر، وعادوا الى منزلتهم بالبستان الظاهري. وأغلق الأمير علم الدين سنجر
أرجواش أبواب قلعة دمشق، وامتنع بها في أول هذه الحادثة.
واجتمع أهل دمشق في يوم الأحد تاسع الشهر بالقيمرية، واهتموا في تحصيل الخيل والبغال
والأموال، ليرضوا بها التتار، ونزل غازان ملك التتار بالغوطة، في يوم الإثنين العاشر من
الشهر، وأحدقت الجيوش بالغوطة؛ وقتلوا طائفة من أهل القرى.
ووصل الأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، وغيرهما في
هذا اليوم، ونزلوا بالميدان. ولما مروا بالقلعة، خاطبوا الأمير علم الدين سنجر أرجواش،
نائب القلعة، وأشاروا عليه بتسليمها، فسبهم أقبح سب.
وفي بكرة نهار الثلاثاء، حادي عشر الشهر، ورد مثال الأمير اسماعيل نائب التتار، يأمر
العلماء والمشايخ والرؤساء، أن يتوجهوا الى القلعة، ويتحدثوا مع نائبها في تسليمها، وأنه متى
امتنع من ذلك، دخل الجيش البلد ونهبها، وسفكت الدماء.
فاجتمع جماعة كثيرة الى باب
القلعة، وسألوا الأمير علم الدين سنجر أرجواش، أن يرسل إليهم رسولاً، فامتنع وسبهم
أقبح سب. وقال: قد وردت عليّ بطاقة من السلطان، أنه جمع الجيوش بغزة، وكسر الطائفة
التي اتبعتهم من التتار، والسلطان يصل عن قريب بعساكره.
ثم دخل قبجاق دمشق في يوم الأربعاء ثاني عشر الشهر، وجلس بالمدرسة العزيزية، وأمر
العلماء والأكابر بمراجعة أرجواش في تسليم القلعة، فتوجهوا إليه، فلم يسمع كلامهم. وكُتب
في هذا اليوم بالعزيزية فرامانات من شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني، ومقدم
من مقدمي التتار، ذكر أنه رضيع الملك غازان، ومن قبجاق، فلم تُجد نفعاً.
وفي يوم الجمعة رابع عشر الشهر ربيع الآخر خطب لغازان على منبر دمشق، بما رسم لهم
به من الألقاب والنعوت وهي مولانا السلطان، الملك الأعظم، سلطان الإسلام والمسلمين،
مظفر الدنيا والدين، محمود غازان. وصلى بالمقصورة جماعة من المغل. وحضر الى

المقصورة، عقيب الصلاة الأمير سيف الدين قبجاق، وصعد هو والأمير اسماعيل الى سدّة
المؤذنين. واجتمع جمع كثير من عامة الناس تحت النسر. وقرئ عليهم تقليد بتولية الأمير
سيف الدين قبجاق الشام أجمع، وعيّن فيه مدينة دمشق وحلب وحما وحمص وغير ذلك،
من الأعمال والجهات. وجعل إليه أن يولي القضاة، والحكماء والخطباء، وغيرهم. ونثر
على الناس الذهب والدراهم، فاستبشر الناس بولاية قبجاق، ظناً منهم أنه يرفق بهم.
وحضر في هذا اليوم شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني، الى المدرسة
العادلية. وأحضرت إليه ضيافة، وأظهر العتب على أهل البلد، كونهم لم يترددوا إليه.
وذكر أنه يصلح أمرهم، ويتفق معهم، على ما يفعل، في أمر القلعة. فقال بعض من حضر إن
الأمير سيف الدين قبجاق يَخبِر أمر متولي القلعة. فقال شيخ الشيوخ: خمسمائة من قبجاق
ما يكونون في خاتمي، وعظّم نفسه تعظيماً كثيراً.
وفي يوم السبت خامس عشر الشهر، ابتدئ بنهب جبل الصالحية، وما به من الترب
والمدارس وغيرها. فتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية الى شيخ الشيوخ، فركب إليهم في يوم
الثلاثاء. فلما وصل الى جبل الصالحية، هرب من به من التتار، ودخل أهل الجبل الى
دمشق عرايا في أسوأ حال.
وتوجه التتار الى قرية المزة، فنهبوها وسبوا أهلها. وتوجهوا الى داريا، وفعلوا كذلك،
وقتلوا جماعة من أهلها، وقتل أهلها جماعة من التتار. فتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية،
يوم الخميس الى الملك غازان، وهو بتل راهط، فدخل عليه ليشكو له ما جرى من التتار
بعد أمانه، فلم يمكّن من ذلك. وقيل له: إن شكوت إليه أمراً، يقتل بعض المغل، فيكون
ذلك سبب الاختلاف، وتدور الدائرة على أهل دمشق. فعدل الشيخ عن الشكوى الى
الدعاء، وفارقه واجتمع بالوزيرين سعد الدين، ورشيد الدين، وتحدث معهما. فذكرا أن
جماعة من المقدمين الأكابر، لم يصل إليهم من مال دمشق شيء، ولابد من إرضائهم. وأمر
الوزير بإطلاق الأسرى.

ثم اشتد الأمر على أهل دمشق، في طلب الأموال وحصار القلعة. وجاء منجنيقي.
فالتزم بأخذ القلعة، وقرر أن يكون نصب المجانيق عليها بالجامع الأموي. فأجمع أرجواش
رأيه، أنه متى نصب المجانيع بالجامع، رمى عليها بمجانيق القلعة. وكان ذلك يؤدي الى هدم
الجامع. فانتدِب رجال من أهل القلعة، بعد أن تهيأت أعواد المجانيق، ولم يبق إلا نصبها.
وخرجوا بالحمية الإيمانية، وهجموا الجامع، ومعهم المناشير، فأفسدوا ما تهيأ من أعواد
المجانيق. ثم جددوا غيرها، واحترزوا عليها. وحضر جماعة من المغل يبيتون بالجامع.
فيقال إنهم انتهكوا حرمته، وارتكبوا فيه المحارم، من شرب الخمور والزنا، وطرح القاذورات
والنجاسات، وقلّ حضور الناس فيه، حتى أنه لم تقم فيه صلاة العشاء الآخرة، في بعض
الليالي. ونهب التتار سوق باب البريد.
وتحول الناس من حول الجامع، وزهدوا في قربه لمجاورة التتار. فانتدِب رجل من أهل
القلعة. وبذل نفسه، والتزم بقتل المنجنيقي. وخرج الى الجامع، والمنجنيقي بين المغل، وهو
في ترتيب العمل. فتقدم إليه، وضربه بسكين فقتله. وهجم رجال القلعة، فتفرق المغل عن
القاتل، وحماه أصحابه، فلجأ الى القلعة، وبطل على التتار ما دبروه من عمل المجانيق.
واضطر أرجواش الى هدم ما حول القلعة، من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة،
وطواحين باب الفرج، وغير ذلك. كل ذلك احترازاً على حفظ القلعة، وأن يتطرق العدو
إليها. وحصل من إفساد التتار والأرمن وإخرابهم الأماكن، بإفسادهم الصالحية، وحرق
جامع التوبة بالعُقيبة وغير ذلك، ما بقيت آثاره، بعد ذهاب العدو زمناً طويلاً. ثم أعاد
المسلمون ذلك، والحمد لله تعالى، الى أحسن ما كان.
واشتد الأمر على أهل دمشق في طلب الأموال، في أواخر شهر ربيع الآخر، وأوائل جمادى
الأول، وطلب من البلد ما لا يتحمله أهله. وتولى استخراج الأموال، والمطالبة بها من أهل
دمشق، صفي الدين السنجاري، وولد الشيخ محمد ابن الشيخ علي الحرير. وغلت
الأسعار بدمشق هذه المدة.

ثم رجع غزان الى بلاد الشرق، يوم الجمعة، ثاني عشر جمادى الأولى ونزل قطلوشاه نائبه
بدمشق وجماعة كثيرة من التتار معه، وجعل نيابة الشام الى الأمير سيف الدين قبجاق،
ونيابة حلب وحمص الى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، ونيابة صفد وطرابلس
والسواحل الى الأمير فارس الدين البكي ولما توجه غازان، استصحب الوزير معه، من أكابر
دمشق بدر الدين ابن فضل الله، وعلاء الدين علي ابن الصدر شرف الدين محمد بن
القلانسي، وشرف الدين بن الأثير.
وفي يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى، رسم التتار بإخلاء المدرسة العادلية، ووقف
جماعة منهم على بابها يفتشون من يخرج منها، ويأخذون ما أحبوا من أمتعتهم، وعجز
أهلها عن نقل أثاثهم. ودخل التتار إليها، عقيب خروجهم منها، وكسروا أبواب البيوت،
ونهبوا ما بها، وأخلى التتار ما حول القلعة، وطلعوا الى الأسطحة، ورموا منها النشاب
على القلعة. فعند ذلك، أمر أرجواش بإحراق ذلك كما تقدم. وكان إحراق المدرسة
العادلية في الحادي والعشرين من جمادى الأولى.
وفي يوم الجمعة تاسع عشر الشهر، قرئ على سدة الجامع كتابان: أحدهما يتضمن تولية
الأمير سيف الدين قبجاق النيابة بالشام، والثاني يتضمن تولية الأمير ناصر الدين يحيى بن
جلال الدين شد الشام. وتضمن أحد الكتابين أن يصرف ما كان لخزائن السلاح، من مال
الجامع في مصالح السبيل الى الحجاز الشريف. ويتضمن أيضاً أن غازان يعود الى الشام في
فصل الخريف، ويتوجه الى الديار المصرية، وأنه توجه الى البلاد ونزل نائبه قطلوشاه في ستين
ألف فارس لحماية الشام، الى غير ذلك مما تضمنه.
واستمر قطلوشاه بعد توجه غازان أياماً يحاصر القلعة، فلم يتهيأ له منها ما يريد، فجمع له
قبجاق مالاً من أهل البلد، فأخذه وعاد الى بلاد الشرق. وكان رحيله في يوم الثلاثاء
الثالث والعشرين من جمادى الأولى. وتوجه الأمير سيف الدين قبجاق لوداعه. وعاد في
يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر، ودخل الى دمشق، من باب شرقي، وشق البلد،

وخرج من باب الجابية، وكانا مغلقين في مدة مقام التتار، ففتحا له الآن، ونزل بالقصر الأبلق.
وعاد الأمير يحيى بن جلال الدين والصفي السنجاري بجماعة من التتار، وشقوا البلد،
وتوجهوا الى القصر أيضاً. ثم نودي في البلد، في يوم الجمعة، أن يتوجه الناس الى ضياعهم
وقراهم. وكان قد نودي في أول هذا النهار، أن لا يخرج أحد الى الجبل والغوطة، وأن لا
يخاطر بنفسه، ولا يغرر بنفسه.
وفي تاسع عشر جمادى الأولى، دخل الأمير سيف الدين قبجاق، ومن معه الى المدينة،
ونزلوا بدار الأمير سيف الدين بهادر آص، وما يجاورها من الأدر، بقرب مأذنة فيروز.
وفي يوم الثلاثاء، مستهل جمادى الآخرة، وثانيه، نودي في دمشق بأمر الأمير سيف الدين
قبجاق أن يخرج الناس الى أماكنهم. وانضم الى قبجاق جماعة من الجند في أول هذا
الشهر، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، وفتحت أبواب البلد، إلا ما بجوار القلعة
منها.
وفي يوم الجمعة رابع الشهر، ضربت البشائر بالقلعة. وفي يوم الإثنين سابع جمادى الآخرة،
أمّر الأمير سيف الدين قبجاق، أستاذ داره علاء الدين، وطاجار، وركبا بالشرابيش
والطبلخاناة. ثم أمّر ثلاثة في العشر الأوسط من الشهر، وركبوا بالشرابيش والطبلخاناة.
وأمر بإدارة الخمارة بدار ابن جراده، فأظهرت الخمور والفواحش، وضمنت في كل يوم ألف
درهم، واستمر الحال على ذلك بقية جمادى الآخرة وبعض شهر رجب.
كان غازان قد جرد من عسكره عشرين ألف فارس، صحبة بولاي، وأشبقا وحجك
وهولاجو، فنزلوا بالأغوار. وشنوا الغارات ونهبوا، ووصلت غاراتهم الى بلد القدس
والخليل، ودخلوا الى غزة، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفراً من المسلمين، ثم رجعت هذه
العساكر الى دمشق، وعادت الى بلاد الشرق، في ثاني شهر رجب، واستصحبوا معهم أمين
الدين شقير الحراني.
وعاد التتار بجملتهم في ثامن شهر رجب، لما بلغهم اهتمام السلطان، وخروج العساكر. ولم

يفتح غازان شيئاً من القلاع الشامية، بل امتنعت بجملتها، اقتداء بقلعة دمشق. وتمسك
نواب القلاع من تسليمها، واعتذروا أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بعد تسليم قلعة دمشق،
فسلمت القلاع بجملتها.
ثم توجه الأمير سيف الدين قبجاق والأمراء الى خدمة السلطان الملك الناصر على ما
نذكره.
ولما توجه قبجاق من دمشق، دبّر أمر البلد الأمير علم الدين أرجواش. وأعيدت الخطبة
بدمشق باسم السلطان في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب. وكانت انقطعت من
سابع شهر ربيع الآخر، فانقطعت مائة يوم. وفي هذا اليوم أبطل ما كان جدد من المنكرات،
وأغلقت الخمارات، وأريق ما فيها، وكسرت المواعين، وشقت الظروف. وتولى ذلك الشيخ
تقي الدين بن تيمية وأصحابه.
هذا ما كان بدمشق، فلنذكر ما اعتمده السلطان عند عوده.
ما اعتمده السلطان الملك الناصر عند عوده الى الديار المصرية من الاهتمام بأمر الجيوش والعساكر
لما كان من أمر هذه الحادثة ما قدمناه، رجع السلطان من مكان الوقعة الى الديار
المصرية. وتفرقت العساكر، فأخذت كل فرقة طريقاً. وكان وصول السلطان الى قلعة
الجبل، في يوم الأربعاء، ثاني عشر شهر ربيع الآخر ولم يصحبه في هذه السفرة إلا بعض
خواصه، والأمير سيف الدين بكتمر الحسامي أمير آخور، والأمير زين الدين قراجا، في نفر
يسير. وخدم الأمير سيف الدين بكتمر، المشار إليهم، السلطان في هذه السفرة أتم خدمة.
فكان يركبه وينزله ويشده خيله، ويشتري لها العليق، ويسقيها، الى غير ذلك من أنواع
الخدمة.
ثم ترادفت الجيوش الى الديار المصرية متفرقة. ووصل النواب بالممالك الشامية. وكان
فيمن وصل الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري. فمشى في خدمة نائب السلطنة الأمير
سيف الدين سلار، وجلس بين يديه، وكان يرمّل علامته إذا كتب.
ووصلت العساكر،
وعدمت خيولهم وأقمشتهم وأموالهم، وأثقالهم وأسلحتهم.
فجرد السلطان الاهتمام،

وأخرج الأموال الكثيرة، وأنفق في الجيوش، ووسع عليهم، وسلم الى كل نائب من نواب الشام
نفقة عسكره. فسلم الى الأمير جمال الدين أقش الأفرم نفقة عسكر الشام، والى الأمير
سيف الدين بلبان الطباخي نفقة عسكر حلب، والى الأمير سيف الدين كراي المنصوري
نفقة عسكر صفد. وسلّم نفقة عسكر طرابلس الى الأمير شرف الدين قيران الدواداري،
ثم الى الأمير سيف الدين قطلبك. وكانت النفقة في الجيوش ذهباً. ورخص سعر الذهب
بالديار المصرية، حتى بلغ صرف الدينار سبعة عشر درهماً وارتفعت أسعار العدد
والسلاح والأقمشة والدواب. ومع ذلك فلم تمض الأيام القلائل على العسكر، حتى كملت
عدتهم وخيولهم، وجميع ما يحتاجون إليه من الأسلحة والأقمشة.
وجهّز السلطان الى نواب الحصون بالشام أجمع القصاد بالملطفات يعلمهم ما هو عليه، من
الاهتمام وسرعة حركة ركابه، ويحثهم على حفظ الحصون. فوصلت القُصّاد إليهم،
فامتثلوا ذلك، وحفظوا الحصون، وكافأهم على اهتمامهم بها وحفظها. ولما تكامل ما
تحتاجه العساكر، توجه السلطان بهم، لقصد الشام.
توجه السلطان بالعساكر الى جهة الشام، ووصوله الى منزلة الصالحية
وإرسال الجيوش الى دمشق والممالك الشامية،
وعود الأمراء الى الخدمة السلطانية ورجوع السلطان الى قلعة الجبل
وما تقرر من أمر النواب
وفي تاسع شهر رجب، من هذه السنة، توجه السلطان بجميع العساكر والنواب الى الشام،
لدفع التتار. فاتصل به عود التتار ومفارقتهم الشام، فأقام بالصالحية، وتوجه نائبه الأمير
سيف الدين سلار، وأستاذ داره الأمير ركن الدين بيبرس الى الشام، وصحبتهما سائر
النواب والأمراء. ورحلوا من الصالحية في الثاني والعشرين من هذا الشهر. وكانت
الملطفات قد سيرت الى الأمراء سيف الدين قبجاق، وسيف الدين بكتمر، وفارس الدين
البكي، بالحضور الى الخدمة السلطانية، ومراجعة الطاعة، واستدراك ما فرط، فأجابوا

بالسمع والطاعة. وبادروا بالحضور الى الخدمة الشريفة السلطانية، واجتمعوا بالامراء بمنزلة
سكرير. وتوجهوا الى خدمة السلطان، وهو مقيم بمنزلة الصالحية، وذلك في العاشر من
شعبان. فركب السلطان وتلقاهم وأكرمهم وأحسن إليهم، وعاد وهم في خدمته الى قلعة
الجبل. وكان وصوله إليها في رابع عشر شعبان، وأسكن الأمراء المذكورين بالقلعة، وأجرى
عليهم الإقامات، وشملهم بالإنعام.
وأما الأمير سيف الدين سلار والعساكر، فإنهم توجهوا الى دمشق. وكان وصول الأمير
جمال الدين أقش الأفرم نائب السلطنة بدمشق إليها بالعسكر الشامي، في يوم السبت عاشر
شعبان.
وفي يوم الأحد وصل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بحلب
بعساكرها، وكان قد فوض إليه نيابتها، والأمير سيف الدين قطلبك نائب الفتوحات
الطرابلسية جميعاً.
وفي يوم الإثنين، ثاني عشر الشهر، وصلت ميسرة الجيوش المصرية، ومقدمها الأمير حسام
الدين لاجين أستاذ الدار. وفي يوم الأربعاء، رابع عشر الشهر، وصل قلب الجيش، وفيه
الأمير سيف الديار سلار، نائب السلطنة الشريفة، والمماليك السلطانية، والعادل زين الدين
كتبغا المنصوري في خدمته، ونزلت العساكر بالمرج.
وقرر الأمير سيف الدين سلار النواب بالممالك على ما رسم به السلطان له عند سفره.
فأقر الأمير جمال الدين أقش الأفرم على عادته بدمشق.
وفوض الى الأمير زين الدين كتبغا
الملقب - كان - بالملك العادل، نيابة السلطنة بالمملكة الحموية، عوضاً عن الأمير شمس
الدين قراسنقر المنصوري المذكور، وذلك بحكم أن الأمير سيف الدين بلبان الطباخي
استعفى من النيابة بحلب واستقر في جملة الأمراء المقدمين بالديار المصرية، على إقطاع
الأمير شمس الدين أقسنقر كرتيه، بحكم وفاته. وفوض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية
والفتوحات الى الأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري. وأعاد الأمير سيف الدين كراي
المنصوري الى نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية على عادته.

وفوض قضاء القضاة الشافعية بدمشق لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الحموي،
في خامس شهر شعبان، بحكم وفاة القاضي إمام الدين عمر ابن القاضي سعد الدين بن
الكرجي القزويني القونوي. وكانت وفاته بالقاهرة، في يوم الثلاثاء خامس عشرين شهر ربيع
الآخر، ودفن بالقرافة. وفوض قضاء القضاة الحنفية، لقاضي القضاة شمس الدين محمد ابن
الشيخ صفي الدين الحريري، في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من الشهر.
وفوض شاد الدواوين بالشام، الى الأمير سيف الدين أقجبا المنصوري. وولى بر دمشق
للأمير عز الدين أيبك التجيبي. وفوض حسبة دمشق لأمين الدين الرومي، إمام المنصور
لاجين.
وأقام سيف الدين سلار نائب السلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس بدمشق، الى أن
استقرت أحوالها، وترتبت وظائفها. ثم رجعا الى الديار المصرية. وكان رحيلهما من
دمشق بالجيوش المصرية المنصورة، في يوم السبت ثامن شهر رمضان. ووصلا الى خدمة
السلطان بقلعة الجبل، في يوم الثلاثاء، ثالث شوال. ولما وصلا، فوّض الى الأمير سيف الدين
قبجاق نيابة السلطنة بالشوبك. وأعطى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار إمرة مائة
فارس وتقدمة ألف، بالديار المصرية، والأمير فارس الدين البكي الساقي، إمرة بدمشق.
واستقرت الحال على ذلك.
ما اعتمده الأمير جمال الدين أقش نائب السلطنة بدمشق بعد عودة العساكر المصرية
لما عاد الأمير سيف الدين سلار والعساكر المصرية من دمشق، وخلا وجه الأمير جمال
الدين أقش الأفرم، نائب السلطنة بالشام، تتبع مَن أذى المسلمين عند التتار، وتجاهر بذلك.
فعامل كلاً منهم بما نذكره، مما أدى إليه اجتهاده، واقتضاه رأيه وتدبيره. فكحّل الحاج
مندوبه، وسمر الشريف القمي، وابن العوني البرددار، وابن خطلبشا المزي، وحملهم على
الجمال، ثم أطلق ابن العوني، بعد ثلاثة أيام. وشنق كاتب مسطبة الولاية بدمشق،
وابراهيم مؤذن بيت لِهْيا، ورجلاً من اليهود. وقطع لسان ابن طاعن، وقطع يد ورجل أحد

من أمّرهم قبجاق، فمات بعد ثلاثة أيام. وكحّل الشجاع همام، فمات بعد ليلة.
ثم توجه في العشرين من شوال الى جبال الكسروان والدرزية، وقصد استئصال شأفتهم،
لما عاملوا به العساكر الإسلامية، عند هزيمتها، من السلب والأذى. فالتزموا برد ما أخذوه
من أقمشة العسكر، وحمل ما ترد عليهم، وعاد الى دمشق، في يوم الأحد ثالث ذي القعدة
من السنة.
وألزم أهل دمشق أرباب الحوانيت بتعليق الأسلحة في حوانيتهم، وأمروا برماية النشاب،
ونودي بذلك. وحضرت رسالة قاضي القضاة بذلك الى فقهاء المدارس. وعرض عوام
البلد في الحادي والعشرين من القعدة، فحضروا بالسلاح. وقدم على أهل كل سوق رجلاً
منهم. ثم عرض السادة الأشراف، في يوم الخميس رابع عشرين الشهر، بالعدة الكاملة، مع
نقيبهم نظام الملك.
وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير الطواشي حسام الدين جلال المغيثي الجلالي، نسبة الى
الملك المغيث ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب. وكانت وفاته في تاسع شهر ربيع الآخر،
بمنزلة السوادة، وحمل الى قطيا، ودفن بها. وكان قد مرض بدمشق، فأعيد، ولم يشهد
الوقعة. وكان رحمله الله تعالى ديناً خيراً.
وفيها، توفي القاضي علاء الدين أحمد ابن قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف
بن بدر العلائي. وكانت وفاته.
وصليت عليه فيمن صلى، وكانت جنازته مشهودة، ودفن بتربتهم بالقرافة رحمه الله
تعالى.
وفيها، توفي الأمير سيف الدين جاغان الحسامي بأرض البلقاء من الشام.
وفيها، توفي الأمير علم الدين سنجر الدواداري بحصن الأكراد، في ثالث شهر رجب وكان
قد انصرف من الوقعة، والتحق بحصن الأكراد، فمات به، رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي والدي، رحمه الله تعالى، تاج الدين محمد عبد الوهاب ابن أبي عبد الله، محمد
بن عبد الدائم بن منجا بن علي البكري، التيمي القرشي المعروف بالنويري. وقد تقدم ذكر

باقي نسبه، عند ذكر مولدي في سنة سبع وسبعين وستمائة. وكانت وفاته رحمه الله، قبل
أذان المغرب، من يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وتسعين وستمائة،
بالمدرسة الصالحية النجمية، بقاعة التدريس المالكية. وكان ابتداء مرضه، في يوم الأربعاء،
الرابع عشر من الشهر. ومولده بمصر بالمدرسة المعروفة بمنازل العز سنة ثمان عشرة
وستمائة. ومات رحمه الله تعالى، ولم تفته صلاة. ولقد توضأ لصلاة العصر، من يوم وفاته
أربع مرات، وكان به ذرب، ثم صلى صلاة العصر جالساً. ومات قبل أذان المغرب من
يومه. وكان آخر كلامه، بعد أن دعا الله تعالى لي بخير، التلفظ بالشهادتين. ثم قبض رحمه
الله تعالى، ودفن من الغد، في يوم الجمعة الثالث من النار، بتربة قاضي القضاة زين الدين
المالكي، بالقرافة، رحمه الله تعالى وإيانا.

واستهلت سنة سبعمائة يوم الجمعة
والسلطان الملك الناصر بقلعة الجبل، ومدبرو الدولة، ونواب المملكة من ذكرناهم.

جباية المقرر على أرباب الأملاك والأموال بالديار المصرية والشام

وفي هذه السنة، في أولها قرر ناصر الدين محمد بن الشيخي، أحد الأمراء بالديار المصرية،
ومتولي القاهرة، أن يستخرج من أرباب العقارات والأموال مالاً سماه مقرر الخيالة، وانتصب
لاستخراج ذلك بدار العدل، تحت قلعة الجبل. وأحضر أرباب الأموال والأملاك، وقرر على
كل منهم بحسب قدرته، واستخرج من ذلك تقدير مائة ألف دينار. وتعدّى ضرره الى سائر
الناس، حتى أراد أن يستخرج من العدول الجالسين بسوق الوراقين، من كل عدل عشرين
ديناراً، ومن كل عاقد أربعين ديناراً. فنهض قاضي القضاة زين الدين المالكي في ذلك،
وتحدث مع الأمراء في ذلك. وذكر ضرورة العدول وفاقتهم واحتياجهم، وأن جلوسهم في
سوق الوراقين، لتحصيل أقواتهم، ولو قدروا على القوت ما جلسوا، وقام في ذلك أتمّ قيام،
حتى اندفعت عنهم هذه المظلمة، وأعفوا منها. واستُخرج من سائر الأعمال والبلاد
والقرى بالديار المصرية، قررت على كل بلد من البلاد المقطعة، واستخرجت الأموال من

الرعايا والفلاحين.
وأما دمشق، فإنه رُسم باستخراج أجرة أربعة أشهر من أرباب الأملاك والأوقاف التي
بدمشق وظاهرها، ومن الضياع، التي ضمانها أكثر من أمدائها ثلث ضمانها. وإن كانت
أمداؤها أكثر من ضمانها، استخرج عن كل مدى، ستة دراهم وثلثا درهم - والمُدى
أربعون ذراعاً في مثلها، يكون تكسيره ألف ذراع وستمائة ذراع، بذراع العمل - فنال الناس
من ذلك شدة. وكان المال المطلوب، عن ما تحصل في سنة تسع وتسعين وستمائة.
وفيها، في المحرم، كثرت الأراجيف بحركة التتار، فجفل أهل الشام أجمع، منهم من التجأ الى
الحصون، وأكثرهم وصلوا الى الديار المصرية، حتى امتلأت القاهرة ومصر منهم. وكان
سعر القمح، قبل وصول هذه الجفول، عن كل أردب عشرين درهماً. فنزل الى خمسة عشر
درهماً، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
توجه السلطان الملك الناصر بالعساكر الى الشام وعوده
لما كثرت الأراجيف وقويت الشناعة، بقرب التتار، توجه السلطان بالعساكر الى الشام.
واستقل ركابه من منزلة مسجد التبن، وهي المنزلة الأولى من قلعة الجبل، في يوم السبت
ثالث عشر صفر، ووصل الى غزة، ونزل بمنزلة بدعرش، وأقام بها. وتوالت الأمطار
وكثرت، واشتد البرد، وانقطعت الأجلاب عن العسكر، حتى عدمت الأقوات. واستمر
السلطان بهذه المنزلة الى سلخ شهر ربيع الآخر. ثم عاد الى القاهرة، فكان وصوله الى
قلعة الجبل في يوم الإثنين، حادي عشر جمادى الأولى، بعد أن جرد من منزلته بدعرش،
الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ومضافيه، والأمير بهاء الدين يعقوبا الشهرزوري
ومضافيه. فتوجهوا الى دمشق بألفي فارس، فوصلوا إليها، في سابع جمادى الأولى.
ولما ظهر بدمشق عود السلطان الى الديار المصرية، خرج من بقي من الدماشقة الى الديار
المصرية. وذلك أن متولي دمشق، كان يمر بالأسواق فيقول للناس: ما يجلسكم ها هنا،
وأي شيء تنتظرون، وأشباه هذا الكلام. ثم نودي بدمشق في تاسع جمادى الأولى، من
أقام، فدمه في عنقه، ومن عجز عن السفر فليتحصن بالقلعة.

وفي مدة مقام السلطان بمنزلة بدعرش، توفي الأمير سيف الدين بلبان الطباخي. واستعفي
الأمير سيف الدين كراي المنصوري من نيابة السلطنة بصفد، فأعفي منها؛ وأقطع إقطاع
الأمير سيف الدين الطباخي بالديار المصرية. وفوضت نيابة المملكة الصفدية الى الأمير
سيف الدين بتخاص المنصوري، أحد أمراء الشام.

وصول غازان الى الشام وعوده وما فعلته جيوشه

كان من خبر غازان في هذه السنة، أنه وصل بجيوشه الى بلاد حلب، ونزل بقرون حماه الى
بلاد سرمين. وبعث معظم جيوشه الى جبال أنطاكية وجبال السماق. فنهبوا من الدواب
والأغنام والأبقار شيئاً كثيراً. وسبوا من النساء والصبيان وأسروا من الرجال خلقاً
كثيراً. وكانوا في سنة تسع وتسعين وستمائة لم يصلوا الى هذه الجهة، فظن الناس أنهم لا
يقصدونها في هذه السنة. فاجتمع بها خلق كثير، فقُتلوا وأسروا وسُبوا. ورخصت
الأسرى من المسلمين، حتى بيع الأسير والأسيرة بعشرة دراهم. واشترى الأرمن منهم
خلقاً كثيراً، وسيروا في المركب الى بلاد الفرنج. وأرسل الله تعالى على غازان وجيوشه
أمطاراً كثيرة وثلوجاً، حتى هلك كثير منهم. فرجع بعساكره الى بلاد الشرق، وقد نفق من
خيولهم ما لا تحصى كثرة، فرجعوا شبه المكسورين. وعجزت كل طائفة من المسلمين
والتتار، عن ملاقاة الأخرى. وكان رجوعهم في جمادى الآخرة.

وغلت الأسعار في هذه
السنة بدمشق، فبيعت غرارة القمح بثلثمائة درهم، ورطل اللحم بتسعة دراهم، ثم
رخصت الأسعار.

وفيها، استعفى الأمير سيف الدين قطلبك المنصوري من نيابة المملكة الطرابلسية،
فأعفي. وفوضت النيابة بها الى الأمير سيف الدين استدمر كرجي.

وفيها، فنيت الأبقار بالديار المصرية فناء، لم يسمع بمثله. وحُكي لي أن بعض مشايخ
البلاد بأشموم طناح، كان يملك ألف رأس وأحد وعشرين رأساً من بقر الخيس، فمات منها
ألف رأس وثلاثة رؤوس، وبقي له ثمانية عشر رأساً، وغلت الأبقار بعد هذا الفناء، حتى

كادت تعدم. وبيع الثور منها بألف درهم وما يقارب هذا الثمن، واستعمل الناس في
السواقي بالديار المصرية لإدارتها، الخيل والجمال والحمير.
أهل الذمة وتغيير لباسهم
وما تقرر في ذلك، والسبب الذي أوجبه
في هذه السنة، وصل وزير بلاد المغرب الى الديار المصرية، بسبب الحج. وتكلم مع الأمراء
في أمر أهل الذمة، وذكر ما هم فيه من الذل والصغار ببلاد المغرب، وأنهم لا يمكنونهم من
ركوب الخيل والبغال، ولا يستخدمونهم في المناصب، وذكر أشياء كثيرة من هذا القول.
فرسم أن يعقد مجلس بحضور الحكام، وندب لذلك قاضي القضاة شمس الدين السروجي
الحنفي، فجلس بالمدرسة الصالحية. وحضر القاضي مجد الدين بن الخشاب، وكيل بيت
المال، وجماعة من الفقهاء، وأحضر بطرك النصارى وجماعة من أساقفتهم، وأكابر
قسيسيهم، وأعيان ملتهم وديان اليهود وأكابر ملتهم، وسئلوا عما أقروا عليه في خلافة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من عقد الذمة. فلم يأتوا عن ذلك بجواب.
وبحث الفقهاء في ذلك، فاقتضت المباحث الشريفة بين العلماء، أن يميز النصارى بلبس
العمائم الزرق غير الشعري، واليهود بلبس العمائم الصفر.
وتميز نساء أهل كل ملة كذلك
بعلامة تظهر. ولا يركبون الخيول ولا يحملون سلاحاً، ويركبون الخيول الحمر بالأكف عرضاً
من غير تزيين لها ولا قيمة، ويتجنبون أوساط الطرق للمسلمين في مجالسهم عن مراتبهم، ولا
يرفعون أصواتهم على أصوات المسلمين. ولا يعلو بناؤهم على بناء المسلمين، ولا يظهرون
شعانينهم، ولا يضربون بالنواقيس. ولا ينصّرون مسلماً ولا يهودونه. ولا يشترون من الرقيق
مسلماً ولا من سباه مسلم، ولا من جرت عليه سهام المسلمين.
ومن دخل منهم الحمام
يميز نفسه بعلامة عن المسلمين، بجرس في حلقه. ولا ينقشون فصوص خواتيمهم بالعربية،
ولا يعلمون أولادهم القرآن، ولا يستخدمون في أعمالهم الشاقة مسلماً، ولا يرفعون النيران.
ومن زنى منهم بمسلمة قتل.
وقال بطرك النصارى بحضرة جماعة العدول: حرّمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة

ذلك، والعدول عنه. وقال رئيس اليهود وديانهم: أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي في
مخالفة ذلك، والخروج عنه.
ونظمت المكاتيب بذلك، ورسم بحمل الأمراء على حكمها. وكتب الى سائر أعمال الديار
المصرية بإجرائهم على ذلك. وكتب الى أمراء الشام بذلك، فالتزموا به في شعبان من
السنة.
وتقرر بدمشق أن تلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود العمائم الصفر، والسامرة العمائم
الحمر. واستقر ذلك في سائر المملكة. إلا بالكرك، فإن النائب بها الأمير جمال الدين آقش
الأشرفي، رأى إبقاءهم على حالتهم. واعتذر أن أهل الكرك نصارى، وأن المسلمين بها
قليل، وأن هذا القدر يؤدي الى ظهور كثرتهم للغريب، وما أشبه هذه الأعذار. فاستقر
ذلك بالكرك والشوبك الى الآن.
وأخبرني الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري في سنة إحدى وسبعمائة وهو
يومئذ أستاذ الدار السلطانية وشاد الدواوين بدمشق، قال: ركبت في الموكب مع الأمير
جمال الدين آقش الأفرم، نائب السلطنة بها، فمر بنا طائفة من أهل الذمة، بالأقمشة النفيسة
والعمائم اللانس. قال: فشق ذلك عليّ كونهم لم يتميزوا بعلامة. فذكرت ذلك لنائب
السلطان، وقررت معه أن يأمر بتغيير هيأتهم، وأن تلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود
العمائم الصفر، والسامرة العمائم الحمر. وتقرر أن يطالع في ذلك، فورد مثال السلطان بذلك،
قبل وصول المطالعة إليه، ووافق تاريخ تلبيسهم بالديار المصرية، التاريخ الذي حدثت نائب
السلطان فيه بسببه. ولما منعوا من الاستخدام بالديار المصرية، أسلم جماعة كثيرة من
أعيانهم، لأجل مناصبهم. فاستمروا بعد إسلامهم على ما كانوا عليه.
وقد وقفت على كتاب الدر الثمين في مناقب المسلمين ومثالب المشركين، تصنيف محمد بن
عبد الرحمن بن محمد الكاتب. وهو كتاب خدم به السلطان الملك الناصر صلاح الدين
يوسف بن أيوف، رحمه الله تعالى.
وقد رأيت أن أذكر منه نبذة في هذا الموضع، لتعلقه به، فالشيء بالشيء يذكر. جاء في

الكتاب المذكور، في صدره، بعد تفويض السلطان الملك الناصر المشار إليه، نثراً،
والاستشهاد بأبيات من الشعر في معناه. ثم قال: وكان مولانا الملك الناصر، خلد الله
ملكه، وأبقى دولته، لما ملّكه الله الديار المصرية والشامية وما قاربها. ووعده على لسان
عدله، أن يفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها. انتصر لله، وتعصب لدينه، واجتهد في
رضاه، والعمل بحكم كتابه، وسنة نبيه، ولحقته الحمية الإسلامية، وسار السيرة العمرية.
وأمر بصرف الذمة وأن لا يتصرفوا ما بقيت هذه الأمة. وسطرها الكاتبان في صحائف
حسناته. وأثبتها المؤرخون في محاسن سيرته، ونظمها الشعراء في مدائح عقد مدائحه.
وشغله النظر في مصالح الإسلام، عن تميم هذا الاهتمام، والأعمال بخواتيمها. ونرجو من
الله، أن يبادر بتكميلها وتتميمها. ولقد قيل إن الشريف مسعود بن المحسن المعروف
بالبياضي، رؤي في المنام بعد موته، فقبل له ما فعل الله بك. قال: غفر لي بأبيات قلتها،
وكتبت بها الى الراضي وهي:

يا ابن الخلائف من قريش والأؤلى طهرت أصولهم من الأدناس
قلدت أمر المسلمين عدوهم ما هكذا فعلت بنو العباس
حاشاك من قول الرعية أنه ناس لقاء الله أو متناسي
ما العذر إن قالوا غدا هذا الذي ولّى اليهود على رقاب الناس
أتقول كانوا وفّروا أموالهم فبيوتهم قفر بلا آساس
لا تذكرن إحصاءهم ما وفّروا ظلماً وتنسى مُحصيَ الأنفاس
وخَف القضاء غداً إذا وافيت ما كسبت يداك اليوم بالقسطاس
في موقف ما فيه إلا شاخص أو مهطع أو مُقنع للراس
أعضاؤهم فيه الشهود وسحتهم نار وخازنهم شديد الباس
إن عطل اليوم الديون مع الغنى فغداً يؤديها مع الإفلاس
لا تعتذر عن صرفهم بتعذر الم تصرفين الحُذَّق الأكياس
ما كنت تفعل بعدهم لو أهلكوا فافعل وعدَّ القوم في الأرماس

ثم قال المصنف محمد بن عبد الرحمن: قرأت أن النصيحة من الدين. وقرأت: "وذكّر فإن
الذكرى تنفع المؤمنين". ثم ذكر ما ورد في كتاب الله تعالى من التحذير، فبدأ بقوله تعالى:

"ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزّل عليكم من خير من ربكم والله
يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم" وقوله تعالى: "ود كثيرٌ من أهل الكتاب لو
يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق" وقوله
تعالى: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم قُل إن هُدى الله هو الهدى
ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير".
ثم ذكر نسخة كتاب كتب الى عمر بن الخطاب، عن أهل الذمة، فقال: قال عبد الرحمن بن
عثمان: كتبنا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في نصارى أهل الشام ما
نسخته:
هذا كتاب لعبد الله عمر، أمير المؤمنين، من نصارى أهل الشام ومصر.
لما قدمتم علينا، سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا، وأهل ملّتنا. وشرطنا على
أنفسنا، أن لا نحدث في مدائننا، ولا فيما حولها، ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية، ولا صومعة
لراهب. ولا نجدد ما خرب منها، ولا ما كان في خطط المسلمين، وأن نوسع للمارة ولبني
السبيل. وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال، نطعمهم. ولا نأوي في كنائسنا ولا في
منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غيناً على المسلمين. ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا،
ولا ندعو إليه أحداً. ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في دين الإسلام، إن أراد، وأن
نوقّر المسلمين، ونقوم لهم في مجالسنا، إذا أرادوا الجلوس. ولا نتشبه بهم في شيء من
ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة ولا نعلين، ولا فرق شعر. ولا نتسمى بأسمائهم، ولا نتكنى
بكناهم. ولا نركب بالسروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله.
ولا ننقش على خواتمنا بالعربية. وأن نجز مقادم رؤوسنا. ونلزم زيّنا حيث كنا، وأن نشد
الزانير على أوساطنا، وأن لا نظهر صلباننا، ولا نفتح كتبنا في طرق المسلمين ولا أسواقهم.
ولا نضرب بنواقيسنا، في كنائسنا، في شيء من حضرة المسلمين. ولا نخرج في شعانيننا،

ولا طاغوتنا. ولا نرفع أصواتنا مع مواتانا. ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا
أسواقهم. ولا نجاورهم بموتانا. ولا نتخذ من الرقيق، من جرت عليه سهام المسلمين. ولا
نطلع عليهم في منازلهم، ولا تعلو منازلنا منازلهم. فلما أتيت أمير المؤمنين عمر بالكتاب
زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين.
شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن خالفنا في شيء مما
اشترطناه لكم علينا، وضمناه عن أنفسنا، وأهل ملتنا، فلا دية لنا عليكم، وقد حل بنا
ما حل بغيرنا، من أهل المعاندة والشقاق. فكتب عمر رضي الله عنه: امض ما سألوه،
والحق فيه حرفين، اشترطهما عليهم، مع ما شرطوه، أنه من ضرب مسلماً عمداً فقد خلع
عهده.
قال عبد الرحمن بن عثمان: وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله
عنه، على أنه متى نقض الذمي عهده، بمخالفة شرط من هذه الشروط المأخوذة عليهم،
فالإمام مخيّر بين القتل ولاأسر. ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس والزي،
ولا يتشبهون بهم في أمر من أمور زيهم. ويشدون الزنانير في أوساطهم. ويكون في رقابهم
خواتم رصاص أو نحاس أو جرس، يدخل معهم في الحمام. وليس لهم أن يلبسوا العمائم
والطيلسان.
وأما المرأة فتشد الزنار من تحت الإزار، وقيل من فوق الإزار وهو الأولى. ويكون في عنقها
خاتم رصاص، يدخل معها الحمام. ويكون أحد خفيها أسود، ليبقى مشتهراً ظاهراً،
والآخر أبيض.
ويركبون الحمير بالأكف، ولا يركبون بالسروج. ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدأون
بالسلام. ويلجأون الى أضيق الطرق. ويُمنعون أن يعلو بناؤهم على أبنية المسلمين، وتجوز
المساواة، وقيل لا تجوز، بل يُمنعون. ويجعل الإمام عليهم رجلاً يكتب أسماءهم وحلاهم،
ويستوفي عليهم ما يأخذون به من هذه الشرائط. وإن زنى أحد منهم بمسلمة، أو أصابها
بنكاح، برئت منه الذمة. وقال أبو هريرة: أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله

عنه، بهدم كل كنيسة استجدّت بعد الهجرة، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام. وسيّر عروة
بن محمد، فهدم الكنائس بصنعاء. وصانع القبط على كنائسهم بمصر، وهدم بعضها، ولم
يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بعثة النبي، صلى الله عليه وسلم. هذا آخر ما لخصناه
من الكتاب المذكور. فلنرجع الى تتمة حوادث سنة سبعمائة.
وصول رسل غازان ملك التتار وما وصل
على أيديهم من المكاتبة وما أجيبوا به
وفي هذه السنة، في ذي القعدة، وصل رسل غازان الى البلاد الشامية، وهم الأمير ناصر
الدين علي خواجا، والقاضي كمال الدين موسى بن يونس، ورفيقهما. فوصل البريد من
حلب بوصولهم. فرُسم بتوجه الأمير سيف الدين كراي المنصوري لإحضارهم. فتوجه
على خيل البريد فأحضرهم الى الأبواب السلطانية. وكان وصولهم الى قلعة الجبل، في ليلة
الإثنين، خامس عشر ذي الحجة. وأحضروا بين يدي السلطان، في عشية نهار الثلاثاء،
فخطب كمال الدين خطبة في معنى الصلح، واتفاق الكلمة، ورغب فيه. ثم أخرج كتاباً
نسخته:
بسم الله الرحمن الرحيم. بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود
غازان.
ليعلم السلطان الملك المعظم الناصر، أنه في العام الماضي، بعض عساكرهم المفسدة،
دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها، لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهدوا الله
بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من
محاربة الله وخرق ناموس الشريعة. فأنفنا من تهجمهم، وغرنا من تقحمهم. وأخذتنا الحمية
الإسلامية، فحدتنا على دخول بلادهم، ومقاتلتهم على فسادهم. فركبنا بمن كان لدينا من
العساكر، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر. وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا،
سلكنا سنن سيد المرسلين، واقتفينا آثار المتقدمين. وافتدينا بقول الله: "لئلا يكون للناس
على الله حجة بعد الرسل". وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجي، جماعة من القضاة والأئمة

والثقات. وقلنا: "هذا نذير من النذر الأولى أزفت الأزفة ليس لها من دون الله كاشفة".
فقابلتهم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليه وعلى المسلمين بالأضرار، وأهنتموهم
وسجنتموهم. وخالفتم سنن الملوك في حسن السلوك.
فصبرنا على تماديكم في غيّكم،
وخلودكم الى بغيكم، الى أن نصرنا الله، وأراكم في أنفسكم قضاه. "أفأمنوا مكرَ الله فلا
يأمن مكر الله". وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال، وآل بهم الأمر الى ما آل، أنهم ربما
تداركوا الفارط في أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، وأوجه إلينا وجه عذرهم، وأنهم ربما
سيروا إلينا حال دخولهم الى الديار المصرية، رسلاً لإصلاح تلك القضية. فبقينا بدمشق
غير متحثحثين، وتثبطنا تثبط المتملكين المتمكنين. فصدهم عن السعي في صلاح حالهم
التواني، وعللوا نفوسهم عن اليقين بالأماني.
ثم بلغنا، بعد عودنا الى بلادنا، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا
من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب أو الفرات. وأن عزمهم مصر على ذلك لا
سواه. فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم. ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم، وقلنا
ولعلهم وعساهم. فما طلع لهم بارق، ولا ذرّ شارق. فتقدمنا الى أطراف حلب، وتعجبنا
من بطئهم غاية العجب. فبلغنا رجوعهم بالعساكر، وتحققنا نكوصهم عن الحرب. وفكرنا
في أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أخرب البلاد مرورها،
وبإقامتهم فيها فسدت أمورها. وعم الضرر العباد، والخراب البلاد. فعدنا بُقيا عليها،
ونظرة لطف من الله إليها.
وها نحن الآن أيضاً مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة،
ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار "وما كنا معذبين حتى نبعث
رسولاً".
وقد سيرنا حاملي هذا الفرمان: الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجه، والإمام العالم ملك
القضاة، كمال الدين موسى بن يونس. وقد حملناهما كلاماً يشافهاهم به. فليثقوا بما تقدمنا

به إليهما. فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما، لنكون كما قال الله تعالى: "قل فلله الحجة
البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين". فيعدوا لنا الهدايا والتحف. فما بعد الإنذار من عاذر.
وإن لم يتداركوا الأمر، فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله
على طول تقصيرهم.
فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره. فقد قال صلى الله عليه وسلم: "من ولاه الله أمراً
من أمور هذه الأمة، واحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم. احتجب الله دون حاجته
وخلته وفقره". وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر. والسلام على من اتّبع الهدى.
كتب في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد، والحمد لله رب
العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين.
فقرئ كتابه، ورسم بإنشاء جوابه، فكتب. وهو من إنشاء المولى القاضي علاء الدين علي
ابن المولى المرحوم فتح الله محمد ابن القاضي المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد
الظاهر. وأعاد السلطان رسله، من غير أن تصحبهم رسولاً، بل استحضرهم بمنزلة
الصالحية، وأنعم عليهم وجهزهم، فتوجهوا في سنة إحدى وسبعمائة.
ونسخة الجواب:
بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية.
أما بعد حمد الله، الذي جعلنا من السابقين الأولين، الهادين المهتدين، التابعين لسنة سيد
المرسلين، بإحسان الى يوم الدين. والصلاة على سيدنا محمد والسلام على آله وصحبه
الذين فضل الله من سبق منهم الى الإيمان في كتابه المكنون. فقال سبحانه وتعالى:
"والسابقون السابقون أولئك المقربون" بإقبال دولة السلطان الملك الناصر.
كلام محمد بن قلاوون:
ليعلم السلطان المعظم، محمود غازان، أن كتابه ورد، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من
الإكرام. ورعينا له حق القصد، فتلقيناه منا بسلام. وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه،

المستكشف عن حقائقه. فألفيناه قد تضمن مؤاخذت بأمور، هم بالمؤاخذة عليها أحرى،
معتذراً في التعدي بما جعله ذنوباً لبعض، طالب بها الكل. والله تعالى يقول: "ولا تزرُ وازرةٌ
وزر أخرى".
أما حديث إغارة من أغار على ماردين من رجّالة بلادنا المتطرفة، وما نسبوه إليهم من
الإقدام على الأمور البديعة والآثام الشنيعة، وقولهم: إنهم أنفوا من تهجمهم، وغاروا من
تقحمهم، واقتضت الحمية ركوبهم في مقابلة ذلك، فقد تلمّحنا هذه الصورة التي أقاموها
عذراً في العدوان، وجعلوها سبباً الى ما ارتكبوه من طغيان.
والجواب عن ذلك أن
الغارات من الطرفين، لم يحصل من المهادنة والموادعة، ما يكف يدها الممتدة، ولا يفتر هممها
المستعدة. وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما عملتم من الكفر والشقاق، وعدم المصافاة
للإسلام والوفاق. ولم يزل ملك ماردين ورعيته منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد
عنهم، متولين كبر مكرهم، والله تعالى يقول: "ومن يتولّهم منكم فإنه منهم".
وحيث جعلتم هذا ذنباً، موجباً للحمية الجاهلة، وحاملاً على الانتصار، الذي زعمتم أن
همتكم به ملية، فقد كان هذا القصد، الذي ادعيتموه، يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف،
التي أوجب ذلك فعلها، والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار اتباعاً لقوله تعالى: "وجزاء سيئة
سيئة مثلها"، لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفّقة، على اختلاف الأديان، وتطأوا البقاع
الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس، الذي هو ثاني بيت الله الحرام،
وشقيق مسجد رسول الله، عليه الصلاة والسلام. وإن احتججتم أن زمام الغارة بيدنا،
وسبب تعدّيهم من سُنّتنا. فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والموادعة،
أوجب سلوك هذه المسالك.
وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين واقتفاء آثار المتقدمين، في إنفاذ الرسل أولاً، فقد
تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة، والجواب عن ذلك أن هؤلاء
الرسل ما وصلوا إلينا إلا وقد دنت الخيامُ من الخيام، وناضلت السهام السهام، وشارف

القومُ القوم. ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعضُ يوم، وأشرعت الأسنّة من الجانبين، ورأى كل
خصمه رأي العين. وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب، فتشاغل عنها ولهى، ولا ممن يُسالم
فيقابل ذلك بجفوة النفار، والله تعالى يقول: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها". كيف والكتاب
بعنوانه. وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: "ما أضمر إنسان شيئاً
إلا ظهر، في صفحات وجهه وفلتات لسانه".
ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعةٌ في أغمادها، والأسنة مستكنّة في
أعوادها، والسهام غير مفوقة، والأعنة غير مطلقة، لسمعنا خطابهم وأعدنا جوابهم.
وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم، وأبدوه من غليظ كلمهم في قولهم: فصبرنا على تماديكم في
غيكم، وإخلادكم الى بغيكم. فأيّ صبر ممن أرسل عنانه الى المكافحة، قبل إرسال رسل
المصالحة، وجاس خلال الديار قبل ما زعمه من الإنذار والأعذار وإذا فكروا في هذه
الأسباب، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب، علموا العذر في تأخير الجواب، وما يتذكر
إلا أولو الألباب.
وأما ما تحججوا به مما اعتقدوه من نصره، وظنوه من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب
في كل كرةٍ الكرة. فلو تأملوا ما ظنوه ربحاً، لوجدوه هو الخسران المبين. ولو أنعموا النظر في
ذلك، لما كانوا به مفتخرين، ولتحققوا أن الذي اتفق لهم، كان غرماً لا غنماً، وتدبروا معنى
قوله تعالى، "إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً". ولم يخف عنهم من أبلتهم السيوف الإسلامية
منهم. وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا، التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء، ما ظهر
خبرٌ عنهم.
فإنا كنا في مفتتح ملكنا، ومتبدأ أمرنا، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد. فلما
تحققنا خبركم، وقفونا أثركم، بادرنا نقدّ أديم الأرض سيراً، وأسرعنا لندفع عن المسلمين
ضرراً وضيراً، ونؤدي من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى: "وسارعوا الى مغفرة من
ربكم وجنة عرضها السموات والأرض" فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة،

وثوقاً بقوله تعالى: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة" وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش
الإسلامية، التي كم وطئت موطئاً يغيظ الكفار. فكُتب لها به عمل صالح، وسارت في
سبيل الله، ففتح الله عليها أبواب المناجح. وتعددت أيام نصرتها، التي لو دققتم الفكر فيها
لأزالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم على أن تنكروها، وفي تعب من يجحد ضوء
الشمس. ومازال الله لنا نعم المولى ونعم النصير. وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ
الاستظهار، ولا ينبئك مثل خبير.
ومازالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله، فلا فخر
فيها للغالب، ولا عار على المغلوب. وكم ملك استظهر عليه، ثم نصر، وعاوده التأييد.
فجبر بعدما كسر، خصوصاً ملوك هذا الدين، فإن الله تكفل لهم بحسن العقبى. فقال
سبحانه: "والعاقبة للمتقين".
وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا، في كوننا لم نسيّر إليهم رسولاً، عندما
حلوا بدمشق فنحن عندما وصلنا الى الديار المصرية، لم نزد على أن اعتددنا وجمعنا
جيوشنا من كل مكان. وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان وأنفقنا جزيل الأموال في
العساكر والجحافل. ووثقنا بحسن الخلف، لقوله تعالى: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل
الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل".
ولما خرجنا من الديار المصرية، وبلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد،
توقفنا عن المسير، توقف من أغنى رُعْبُه عن حث الركاب، وتثبتنا تثبت الراسيات "وترى
الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب" وبعثنا طائفة من العساكر لمقاتلة من أقام
بالبلاد، فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر. وتقدمت فتخطفت من حمله على التأخر الغرر؛
ووصلت الفرات فما وقفت للقوم على أثر.
وأما قولهم: أننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام، أنهم فيما بعد يلتقوننا على حلب أو
الفرات، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا الى الفرات والى حلب، مرتقبين وصولنا. فالجواب
عن ذلك، أنه من حين بلغنا حركتهم، جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا، وخرجنا وخرج أمير

المؤمنين الحاكم بأمر الله، ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الواجب الطاعة
على كل مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلم، طائعين لله ولرسوله في
أداء فرض الجهاد، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد، عالمين أنه لا يتم أمر دين
ولا دنيا إلا بمشايعته. ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه. ومن عانده أو عاند من أقامه، فقد
أذله الله.
فحين وصلنا الى البلاد الشامية، تقدمت عساكرنا الى السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله تعالى
في النصر الرجاء والأمل. ووصلت أوائلها الى أطراف حماه وتلك النواحي، فلم يقدم أحد
منهم عليها. ولا جسر أن يمد حتى ولا الطرف إليها. فلم نزل مقيمين، حتى بلغنا رجوع
الملك الى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء، والله لا يخلف الميعاد. فعدنا لاستعداد جيوشنا
التي لم تزل تندفع في طاعة الله تعالى، اندفاع السيل، عاملين بقوله تعالى: وأعدوا لهم ما
استطعتم من قوة ومن رباط الخيل".
وأما ما جعلوه عذراً في الإقامة بأطراف البلاد، وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك،
ودخلوا بجيوشهم، ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، فقد فهم
هذا المقصود. ومتى أَلِفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق ومتى اتصفت جيوشهم بهذه
الأخلاق؟ وها آثارهم موجودة ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة. وهل هذا
اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه؟ كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
"المسلم من سلم الناس من يده ولسانه". وأسارى المسلمين عندهم في أشد وثاق، وفي يد
الأرمن والتكفور منهم، ما يخالف ما ادعوه من إشفاق.
وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا، وقتلوا من قتلوا من التتار، وحصل لهم التمكن في
البلاد والاستظهار، واستولوا على ملك آل سلجوق، وما تعرضوا لدار ولا جار، ولا عفوا
أثراً من الآثار. وما حصل لمسلم منهم ضرر ولا أذى في ورد ولا صدر. وكان أحدهم
يشتري قوته بدرهمه ودیناره، ويأبى أن تمتد الى أحد من المسلمين يد أضراره. هذه سنة
أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه من الاهتمام بجمع
عساكرهم، وتهيئة المجانيق، الى غير ذلك مما ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول: "الذين قال
لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم
الوكيل".
وأما قولهم: وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بأن
لا يصدر إليهم عن ذلك جواب، ومن قصد الصلح والإصلاح، كيف يقول هذا القول، الذي
عليه فيه من جهة الله، ومن جهة رسوله أي جناح؟ وكيف يضمر هذه النية، ويتبجح
بهذه الطوبة؟ ولم يخف مواقع الزلل من هذا القول وخلله، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول
"نية المرء أبلغ من عمله". وبأي طريق تهدر دماء المسلمين، التي من تعرض إليها، يكون الله
له في الدنيا والآخرة مطالباً وغريماً، ومؤاخذاً بقوله تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه
جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً".
وإذا كان الأمر كذلك، فالبشرى لأهل الإسلام، بما نحن عليه من الهمم المصروفة الى
الاستعداد، وجمع العساكر التي يكون لها الملائكة الكرام، إن شاء الله تعالى من الأمجاد
والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد، المتكاثرة المدد، الموعودة بالنصر، الذي
يحفها في الظعن والإقامة، الواثقة بقوله صلى الله عليه وسلم: "لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين
على عدوهم الى يوم القيامة". المبلغة في نصر دين الله آمالاً، المستعدة لإجابة داعي الله إذ
قال: "انفروا خفافاً وثقالاً".
وأما رسلهم، وهم فلان وفلان، فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، وأكرمنا وفادتهم، وغزرنا
لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم هذا، مع كوننا لم يخْفَ
علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم. وأنهم ما دعفوا الأفواه الخطوب إلا لما ارتكبوه
من ذنوب. وما كان ينبغي أن يُرسلَ مثل هؤلاء لمثلنا من مثله. ولا ينتدب لهذا الأمر المهم
إلا من يُجمع على فصل خطابه وفضله.
وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة، لعوضناهم بأحسن

منها. ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم بأجمل عوض عنها. وقد كان عمهم الملك أحمد، راسل
والدنا السلطان الشهيد وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد. وتقرب الى قلبه بحسن
الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها، بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة
بأقوى سبب.
والآن، فحيث انتهت الأجوبة الى حدها، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية
قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم، جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية، ممتثلاً ما
أمر الله به، مجتنباً ما عنه نهى، وانضم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته، تمسك
المتشرف بدخول فيه لا المنان، وتجنّب التشبه بمن قال الله عز وجل في حقهم: "قل لا تمنّوا
عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان". وطابق فعله قوله، ورفض الكفار
الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يرتّل آيات الصلح ترتيلاً؛
ويروق خطابه وجوابه، حتى يتلو كل أحد عند عوده "يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً".
صارت حجتنا وحجته المركبة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في
سائر الممالك، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هوانا؛ والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى:
"واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً.
وينتظم إن شاء الله تعالى شمل الصلح، أحسن انتظام. ويحصل التمسك من الموادعة
والمصافاة بعروة ولا انفصال لها ولا انفصام. وتستقر قواعد الصلح، على ما يرضي الله
ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، إن شاء الله تعالى.
كتب في ثامن وعشرين المحرم سنة إحدى وسبعمائة.
وفي سنة سبعمائة، ولي الأمير فارس الدين البكي الساقي نيابة السلطنة بحمص.
وفيها، توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير الدولة ومدبّرها، الى الممالك الشامية
لكشفها، ووصل الى المملكة الحلبية، وعاد الى الديار المصرية، في سنة إحدى وسبعمائة،
وعزل عن الوزارة في غيبته.
وفيها، توجه الأمير سيف الدين بكتمر الجوكان دار، أمين جاندار؛ الى الحجاز الشريف؛

وتصدق بصدقات عظيمة. فيقال إنه أنفق في هذه السفرة خمسة وثمانين ألف دينار عيناً.
وفي هذه السنة، توفي الأمير عز الدين أيدمر الظاهري؛ وهو الذي ناب عن السلطنة بالشام،
في الدولة الظاهرية والسعيدية. وكانت وفاته برباطه بجبل الصالحية، في يوم الأربعاء ثاني
شهر ربيع الأول ودفن هناك رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي الشيخ زين الدين عبد الرحمن ابن الشيخ برهان الدين ابراهيم بن سعد الله بن
جماعة، أخو قاضي القضاة بدر الدين. وكانت وفاته بحماه في سابع شعبان. وكان رجلاً
صالحاً ديناً خيراً. ومولده في شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وستمائة رحمه الله
تعالى.
وفيها، توفي الأمير عز الدين أيبك كربي الظاهري بدمشق، في عاشر ذي القعدة، ودفن
بسفح قاسيون. وكان من أعيان أمراء الشام، مقدمي الألوف. وورثه بناته، وأخوه الأمير
بدر الدين بكتوت العديمي المنصوري.